

محاضرات في الأنثروبولوجيا

«علم الإنسان»

«الموقع المعرفي، الموضوع، الميادين والمنهج»

د. عدنان أحمد مسلم

مكتبة العبيكان

٣ مكتبة العبيكان، ١٤٢١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مسلم، عدنان أحمد

محاضرات في الأنثروبولوجيا : علم الإنسان . - الرياض .

٣٤٤ ص، ١٧ × ٢٤ سم.

ردمك: ٦ - ٨١٧ - ٢٠ - ٩٩٦٠

١- الثقافة ٢- علم الإنسان الثقافي

أ - العنوان

٢١/٣٩٧٦

ديوي ٢٠٩، ٣٠١

رقم الإيداع: ٢١/٣٩٧٦

ردمك: ٦ - ٨١٧ - ٢٠ - ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ / ٢٠٠١م

حقوق الطبع محفوظة للناسر

الآراء والأفكار الواردة في الكتاب لا تمثل بالضرورة رأي الناسر وفكره

الناسر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - طريق الملك فهد مع تقاطع العروبة

ص.ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

هاتف ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩



﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ
شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ
أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ

obeikandi.com

إضاءة

يُعد هذا الكتاب «محاضرات في الأنثروبولوجيا» حصيلة خبرة تدريسية لمقرري «الأنثروبولوجيا الاجتماعية» و«مقدمة في الأنثروبولوجيا» منذ العام الدراسي ١٩٨٥م في الجامعات السورية واليمنية وجامعة الملك سعود في المملكة العربية السعودية .

وقد تجسد عن هذه الخبرة التدريسية في جامعة دمشق كتابان جامعيان من إصدار مديرية الكتب الجامعية في جامعة دمشق أعدا خصيصاً لتغطية مفردات مقرر «الأنثروبولوجيا الاجتماعية» لطلبة السنة الثانية في قسم علم الاجتماع هما «دراسات في الأنثروبولوجيا الاجتماعية» ١٩٨٧م و«علم دراسة الإنسان» ١٩٩١م .

وها هو كتاب «محاضرات في الأنثروبولوجيا» الموقع المعرفي ، الموضوع ، الميادين والمنهج يُعد نسخة معدلة للكتابين السابقين ، تجلت معطيات هذا التعديل في ضوء تدريس مقرري «مقدمة في الأنثروبولوجيا» و«الأنثروبولوجيا الاجتماعية» لطلبة قسم الدراسات الاجتماعية في كلية الآداب - جامعة الملك سعود .

obeikandi.com

تمهيد

يُعد الإنسان غاية الوجود الإنساني ، ووسيلة هذا الوجود بأن واحد ، فهو الذي أنتج وجسد المعرفة ، فأضحت المعرفة مسخرة لأجله .

إن هذا الكائن الفريد الذي اسمه الإنسان كان دائماً ولا يزال ، موضع التأمل والدراسة من قبل كثير من العلوم الطبيعية والإنسانية على حد سواء ، فمنذ قديم الزمان لاحظ الإنسان الفروق المتجسدة بين شعوب الجنس البشري ، واهتم بمعرفة الطبيعة الإنسانية ، وتفسير الاختلافات في الملامح الجسمية ، ولون البشرة ، والعادات والتقاليد ، والديانات وغير ذلك من مظاهر الحياة الإنسانية . وفي إطار هذا الاهتمام والتساؤل تطورت الدراسات تاريخياً ، وتجلت بظهور ميدان معرفي من فروع المعرفة استقل وأضحى علماً معترفاً به سمي الأثروبولوجيا (علم الإنسان) .

وعلم الإنسان هذا - بوصفه ميداناً معرفياً - هو العلم الذي يبحث كل شيء عن الإنسان من الجانب البيولوجي ، والجانب الاجتماعي ، والجانب النفسي ، والسياسي والثقافي والتربوي . . إلخ .

ولعلنا في ثنايا هذا الكتاب نحاول معالجة بعض الجوانب التي تتعلق بكون الإنسان إنساناً اجتماعياً ، حضارياً ، وجد مع المجتمع وتطور مع تطوره .

من هنا - وبعد إطلالة معرفية نحدد من خلالها موقع ومكانة علم الإنسان في نظرية المعرفة - سنعالج في القسم الأول مواضيع الإنسان

obeikandi.com

التفاصيل لميدان الأنثروبولوجيا الاجتماعية، إضافة إلى إيجاز لبعض الميادين الأخرى مثل: الأنثروبولوجيا الحضرية، واثروبولوجيا التنمية.

أما القسم الرابع فيعالج المسألة المنهجية المرتبطة بعلم الإنسان، وهي اعتماد المنهج العلمي الذي يستخدم في شتى أنواع المعرفة (العلوم)، والطرائق المنهجية العلمية التي تعد خاصة - إلى حد ما - بهذا الميدان المعرفي (علم الإنسان)، إضافة إلى الخطوات العلمية المتبعة في الدراسة الأنثروبولوجية حتى تتحقق وتتجسد عملية استخدام المنهج العلمي.

ويختتم هذا السفر العلمي المتواضع بقسم يخصص لموضوع الأمثال الشعبية التي تشكل جزءاً هاماً من التراث الفكري الاجتماعي للشعوب عبر تطورها الحضاري الإنساني، إضافة إلى عرض لبعض المصطلحات الأنثروبولوجية التي تفيد الطالب المتخصص والقارئ في إيضاح المفاهيم التي ترد في الكتاب أو يقرؤها في كتب أخرى.

آملين تحقيق الغاية المنشودة، وأن لا نضل الطريق الذي نشد، وأملنا الأكبر بمستقبل الجيل الواعد وهو يتابع طريق العلم بطموح رائد، وتصميم واثق الخطى، وإيمان قوي بالله تعالى الذي نسأل أن يوفقنا جميعاً لما فيه الخير والصواب.

عدنان أحمد مسلم

الرياض ١٤٢١/٧/١هـ

٢٠٠٠/٩/٢٨م

obeikandi.com

موقع ومكانة الأنثروبولوجيا في نظرية المعرفة

يتحدد موقع ومكانة (علم الإنسان) الأنثروبولوجيا في نظرية المعرفة استناداً إلى تطور هذه النظرية تاريخياً.

ونقصد بنظرية المعرفة (العلم): الإنتاج المعرفي الذي قدمه الإنسان تاريخياً حول الطبيعة والمجتمع من معارف مادية ومعنوية معاً.

والمادية: هي الاكتشافات والاختراعات الإنسانية الملموسة.

والمعنوية: هي الفكر الإنساني غير المادي المتعلق بالمعرفة الدينية والتاريخية والاجتماعية... إلخ.

وبضوء ذلك فإن نظرية المعرفة (العلم) في مرحلة ما من التاريخ كانت تساوي العلم الشمولي، أي كل ما ذكرناه سابقاً، لكن مع التطور الموضوعي للتاريخ البشري الذي رافقه تطور آخر في المعرفة العلمية (الوعي البشري أو الفكر) واتساع ميادين المعرفة العلمية والحاجة إلى التخصص وعدم قدرة الباحث على أن يستوعب هذا التطور المعرفي انقسمت نظرية المعرفة إلى محورين أساسيين هما:

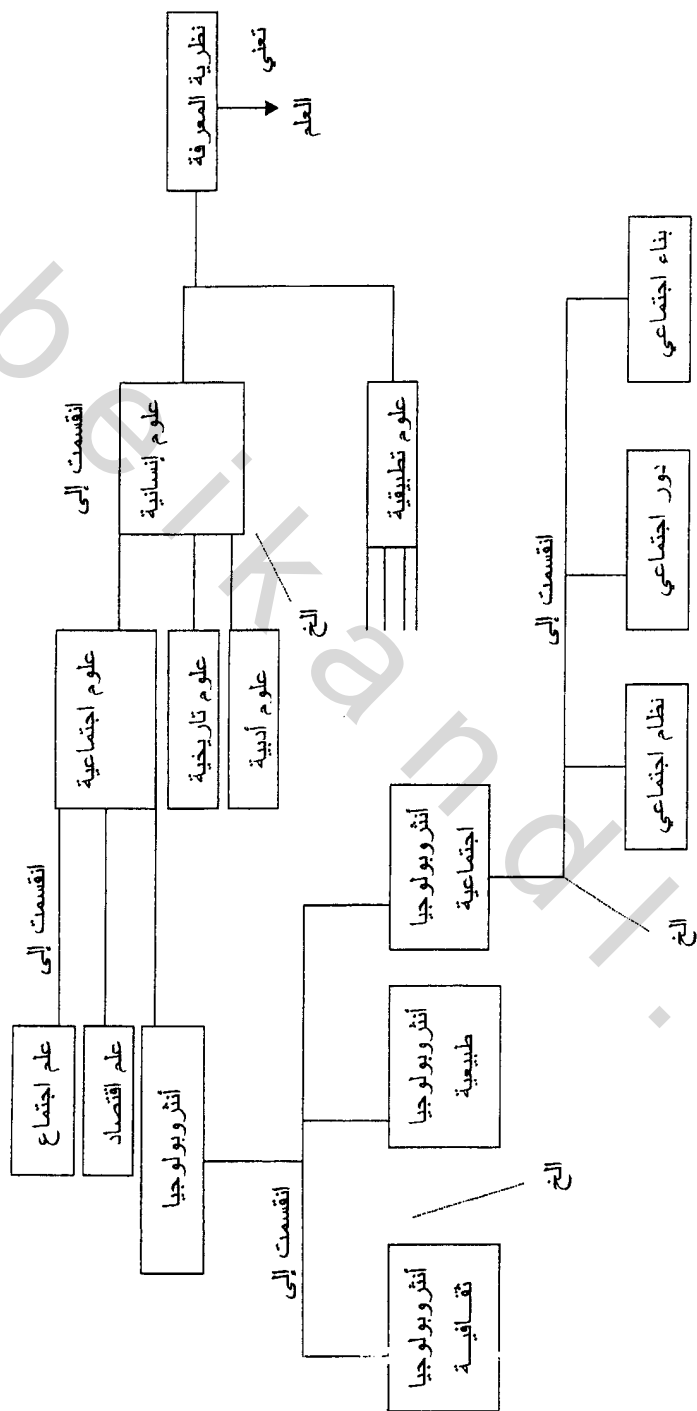
المحور الأول: محور العلوم الإنسانية (وهو ما يهمنا هنا).

المحور الثاني: محور العلوم التطبيقية أو الطبيعية.

حيث شمل المحور الأول ميادين معرفية إنسانية نظرية مثل : ميادين الآداب والتاريخ والفلسفة والعلوم الأخرى .

ولا شك أن مسألة التطور السابق التي أشرنا إليها عملية مستمرة تخضع وخضعت لها العلوم الإنسانية من خلال هذه الميادين المشار إليها (انظر الشكل التوضيحي رقم ١) ، أي أن العلوم الإنسانية انقسمت للأسباب نفسها التي أدت إلى انقسام نظرية المعرفة - إلى ميادين معرفية مثل : العلوم الأدبية والتاريخية والعلوم الاجتماعية ، وبدورها العلوم الاجتماعية وللأسباب نفسها انقسمت إلى ميادين كان منها علم الاجتماع ، وعلم الاقتصاد السياسي ، وعلم الإنسان ، أو علم دراسة الإنسان أو علم الأناسه ، وكل هذه التسميات تعني (الأنثروبولوجيا) ، وهنا ظهرت الأنثروبولوجيا وتحدد موقعها بالنسبة للعلم أو نظرية المعرفة .

وفي هذا الإطار لا بد من الإشارة إلى مسألة هامة وهي أن هذا التطور المعرفي المرتبط بالتطور التاريخي الاجتماعي للبشر عمل مستمر نحو المستقبل ، وخضع علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) لهذا التطور وانقسم إلى موضوعات : (ثقافية ونفسية واجتماعية وطبيعية . . . إلخ) ، وأصبحت هذه الموضوعات ميادين معرفية ارتقت إلى مستوى العلم المحدد وسميت : الأنثروبولوجيا الثقافية ، والأنثروبولوجيا الاجتماعية ، والأنثروبولوجيا النفسية ، والأنثروبولوجيا السياسية ، والأنثروبولوجيا الطبيعية . . . إلخ ولا شك أن كل ميدان من هذه الميادين يخضع للعملية المعرفية التطورية ذاتها ، ويقسم إلى موضوعات كما هو موضح في المخطط أو الشكل التوضيحي المشار إليه .



الشكل التوضيحي رقم (١)

ولا شك أيضاً أن هذه العملية المعرفية المنطقية هي أحد جوانب التأكيد على علمية هذا العلم الأنثروبولوجيا (بيد أن هناك جوانب أخرى تؤكد بدورها العلمية أو الاعتراف العلمي بهذا العلم الأنثروبولوجيا) وهي : (مقاييس الاعتراف العلمي).

١- الاعتراف الأكاديمي بالأنثروبولوجيا من خلال وجوده على أنه قسم علمي أو شعبة في قسم أو مقررات في مناهج تدريسية أو دائرة بحثية في مركز بحث علمي . . . إلخ .

٢- انتشاره العلمي من خلال الكم المعرفي له عبر الكتب المؤلفة، أو الدراسات المنشورة في الدوريات، أو الرسائل العلمية في الدراسات العليا . . وهذا ما يعبر عن وجوده كمادة معرفية معترف بها .

٣- اعتباره مادة علمية لندوات متخصصة ومؤتمرات علمية أيضاً كأن نقول : ندوة علمية حول مستقبل الأنثروبولوجيا) أو (المؤتمر العلمي السادس «مثلاً» حول الأنثروبولوجيا والقرن الحادي والعشرين) . . إلخ .

٤- انطباق قانون العام والخاص والوحيد على هذا العلم، ويقصد بقانون العام والخاص والوحيد : المقياس المعرفي الذي يحدد موقع ومكانة أي علم من العلوم في نظرية المعرفة .

وهنا إذا طرحنا السؤال : هل ينطبق هذا القانون على الأنثروبولوجيا؟ ستكون الإجابة نعم بعد عملية تطبيق قانون العام والخاص والوحيد وهو التالي :

«شكل توضيحي يبين تطبيق قانون

العام - الخاص - والوحيد على علم الإنسان» .

العام	الخاص	الوحيد
نظرية المعرفة	العلوم الإنسانية	العلوم الاجتماعية
العلوم الإنسانية	العلوم الاجتماعية	الأنثروبولوجيا
العلوم الاجتماعية	الأنثروبولوجيا	الأنثروبولوجيا الاجتماعية
الأنثروبولوجيا	الأنثروبولوجيا الاجتماعية	البناء الاجتماعي

إذاً انطبق هذا القانون وأصبحت الأنثروبولوجيا هي الوحيد عندما شكلت جزءاً من العلوم الإنسانية عبر العلوم الاجتماعية .

وهي «الخاص» عندما شكلت جزءاً مباشراً من العلوم الاجتماعية .

وهي «العام» عندما أصبحت علماً مستقلاً له خاص وحيد . . أي علم له تعريفه المحدد ، وموضوعه ومنهجيته ، وعلاقته بالعلوم الأخرى . . . إلخ .

obeikandi.com

الفسر الأول (*)

علم الإنسان (الأنثروبولوجيا): الموضوع الرئيس.

* اعتمدنا في هذا القسم وضمن مباحثه الثلاثة على كتاب: المحامي عبدالهادي عباس «المرأة والأسرة في حضارات الشعوب وأنظمتها»، الجزء الأول، دار طلاس ١٩٨٧م. (المعذرة من المؤلف للتصرف العلمي بهذا القسم).

obeikandi.com

المبحث الأول

أصل الإنسان في ميثولوجية الشعوب

الإنسان في نظر علماء الاجتماع والفلاسفة حيوان اجتماعي عاقل مفكر ، وهو في نظر البيولوجي حيوان كسائر الحيوانات ، ونوعه ما هو إلا واحد من ثمان مئة إلى تسع مئة ألف نوع تنتشر حالياً على سطح الأرض ، وهو في نظر الأديان مخلوق أصلاً من التراب .

إن جميع التعاريف للإنسان هذه إنما جاءت عن طريقه ، فهو الفيلسوف ، وهو رجل الدين ، وهو العالم . . ولكنه قبل كل هذا وبصورة عامة يبدو لذاته ، وهو خاضع للضرورات نفسها التي تخضع لها الحيوانات الأخرى ، ومحكوم بالقوانين نفسها ، فهو يتغذى ويتمثل ويتناسل مثلها . . ولكنه بخلاف الحيوان ، يأكل بغير جوع ، ويشرب بغير ظمأ . . كما أنه بخلاف الحيوان يتمتع بالقدرة على تفسير تركيبه البيولوجي وربما تغييره ، وتنظيم سلوكه عن طريق الأشكال الرمزية كاللغة مثلاً ، وبالرغم من أن عمله لم يقرر بعد إلى أي حد تشكل فيه سلوكه فإنه يبدو أنه من المحتمل - أن هذا الإنسان - لا يخضع لأنواع التنظيم المسلكي ذاته الذي يتصف به الحيوان الرئيس الأسبق .

إن الإنسان هو في غاية التنوع ، وإنه ينتمي إلى سلالات (Races) إنسانية متباينة صنفها في أربع سلالات كبرى تضم في طياتها فروقاً سلافية

كثيرة . . إلا أنه رغم هذه الفروق أسبغ على نفسه أنه هو الإنسان الحكيم العاقل (Homos Sapiens)، أما الحيوانات القريبة إليه كالقردة العليا وأنواعها مما تماثله في المظهر العام (القامة وانعدام الذنب وشكل الأسنان) ومجموعة من التفاصيل التشريحية فإنها لم تستطع اجتياز الفاصل النفسي المتصل في الظاهر باختلاف كتلته الدماغية وتكوينه رغم محاولاته المتعددة بما أجراه من تجارب كي يجعلها تصل إلى ملكة التجديد واللغة والمنطق والعقل . . ولهذا بقي النوع الإنساني المنعزل عن أصناف الحيوانات الأخرى^(١) رغم انتمائه إلى المملكة الحيوانية؛ ولهذا يستجمع في طبيعته تطبيق متناقضين: صفاته الحيوانية، وإنسانية حياته . إن كل معرفة الإنسان الحالية لم تتمكن أن يحدد على درجة من الدقة تلك الخصائص التي أدت به إلى أن يكون مخلوقاً فريداً . . فكل ما لديه من صفات وراثية أو تطورية وجد لها نظائر ولو بصورة بسيطة في الصور الأدنى من الأحياء .

صحيح أن قدرة الإنسان على المشي منتصباً، وتحرر طرفيه الأماميين وتقاطع مجالي بصره، وقدرته على الإبصار بالعينين معاً، وكبر قشرة مخه، وطول فترة طفولته، كل ذلك يشكل صفات بيولوجية هامة تميز الإنسان، ولكن هذه الصفات ليست خاصة بالنوع البشري، بل هي مجرد صور مبالغ فيها لاتجاهات تتمثل في كثير من المخلوقات، كما أن صنعه للأدوات والتنظيم الاجتماعي والاتصال بالأفراد الآخرين المنتمين إلى الجماعة،

(١) جان رويستون، الإنسان، ترجمة محمد عبدالرحمن مرحبا، ص ١٧ .

توجد أيضاً بقدر معين في أنواع مختلفة من الحيوانات الأدنى .

ومجمل القول : إن ما يتميز به الإنسان ليس صفاته البيولوجية والاجتماعية بقدر ما صنعه من هذه الصفات ، فهو يختلف أساساً عن جميع أنواع الحيوانات الأخرى بفضل منجزاته المتراكمة عبر ألوف الأجيال . . ومن هذه الزاوية كان قول الفيلسوف الأسباني (إرتيجا أي جاسية) Orteia. y. Gaset : ليس للإنسان طبيعة . . بل تاريخ فقط . ولكن هذا القول لم يحل المشكلة القائمة لمعرفة تلك الخصائص التي تتميز بها الطبيعة البشرية ، والتي أتاحت للإنسان أن يكون له تاريخ^(١) . وبقيت التساؤلات تفرض وجودها حول هذا النوع وكيفية نشأته على الأرض وكيفية إقامته لمجتمعه ونظمه وعلاقاته ؟

لقد بقيت قصة التكوين التوراتية هي الحقيقة السائدة لفترة طويلة من عمر البشرية عن الخلق ، وفي الإصحاح الأول من سفر التكوين نجد أن الله خلق في اليوم الخامس من بدء الخليقة السمك والطيور ، بل كل الكائنات التي تعيش في الماء أو الهواء ، وأنه خلق في اليوم السادس كل صنوف الحيوان ، وأخيراً خلق الإنسان الذكر والأنثى كليهما على صورته^(٢) . ومن هذه القصة يستنتج أن الإنسان قد خلق بعد أن خلقت كائنات الأرض جميعها ، كما يظهر أن تقسيم الإنسان إلى ذكر وأنثى وهو التقسيم الذي تختص به الإنسانية قد تم على يد الخالق نفسه .

(١) جان رويستان ، الإنسان ، ترجمة محمد عبد الرحمن مرحبا ، ص ١٧ .

(٢) سفر التكوين (٢٨) .

غير أن الإصحاح الثاني يناقض هذه القصة، حيث يشير إلى أن الله تعالى خلق الإنسان أولاً ثم خلق صنوف الحيوان الدنيا من بعده، أما المرأة فقد خلقها بعد فراغه من كل هذا، وشكلها من ضلع انتزعه من الرجل في أثناء نومه .

ويشير بعض العلماء^(١) إلى التناقض بين الحالتين من حيث أن الحكاية الأولى تشير إلى خلق الكائنات أولاً، ثم الإنسان بجنسيه الرجل والمرأة، أما الحكاية الثانية فتبدأ بخلق الرجل ثم يجري خلق الحيوانات الدنيا، ثم يخلق في النهاية المرأة، فخلق حواء كان لتسليّة آدم وإيناس وحشته .

وستعاني المرأة في تاريخ البشرية كثيراً من هذه الأسطورة وتحكمها باعتبارها عقيدة دينية لدى الشعوب، وقد احتفظت رواية إفريقية عن أصل الخليفة بالأسطورة المروية عن كاهن بابلي تقول : (إن الإله بل قطع رأسه، وإن سائر الآلهة جمعوا الدم المتدفق منه، عجنوا به التراب وخلقوا البشر من هذه العجينة المخلوطة بالدم؛ ولهذا السبب - وكما يقول البابليون - كان الرجال حكماء كل الحكمة؛ لأن الطين الذي خلقوا منه كان مخلوطاً بدم الإله . . وتروي الأساطير الفرعونية أن (خنم) أبا الآلهة قد خلق الإنسان من الطين على دولابه الذي كان يشكل عليه الفخار .

(١) جيمس فريزر، الفلوكلور في العهد القديم، ترجمة د. نبيلة إبراهيم، طبعة مصر، ص ١٩٣ .

وتحكي الأساطير الفرعونية أن (بروفينوس) الحكيم قد خلق الإنسان الأول من الطين . . وقد تخلفت عن عملية الخلق كمية من الطين كان من الممكن رؤيتها بعد هذا الزمن الطويل على شكل صخرتين كبيرتين في وسط بلاد الإغريق تشرفان على واد ضيق^(١) . ومثل هذه الأفكار الساذجة عن أصل الإنسان التي كانت مألوفة لدى الإغريق والبابليين والسوريين والعبريين والمصريين القدماء انتقلت إلى الشعوب المتحضرة القديمة عن طريق أجدادهم . . كما يقول (فريزر)، والذي يعرض أيضاً نماذج عن تفكير الشعوب التي تتماثل أحياناً . . ومنها الرواية الشبيهة بالرواية التوراتية حيث يرى (الكارينون) سكان بورما : (أن الله خلق الرجل ولكن من أي شيء خلقه؟ لقد بدأ يخلق الرجل من التراب، ثم أتم من بعد عملية الخلق، خلق المرأة . . ولكن من أي شيء خلقها؟ لقد أخذ ضلعاً من أضلاع الرجل وخلق منه المرأة . .)^(٢) وهناك أساطير متعددة أخرى لدى شعوب بدائية تتقارب وتتماثل في تصور الإنسان عن فكرة الخلق الأول، لا تتميز عن فكرة الخلق التوراتية كثيراً من حيث مضمونها . . وتدخل هذه القصص الشيطان أحياناً في هذه العملية . . وغالباً ما تشير إلى كون المرأة مصنوعة من ضلع الرجل بصورة أو بأخرى، كما تشير إليه أساطير الشعوب، وحسب تصورات العقل البشري في طفولته وخيالاته المستمدة من وجوده في هذا الكون، والطريف في الأمر أن جل شعوب العالم في

(١) المصدر السابق، ص ١٣٣ .

(٢) جيمس فريزر، الغصن الذهبي، ترجمة د. أحمد أبو زيد .

عصرنا مازالت تعد مثل هذه الأساطير مسلمات لا يجوز التصدي للجدل فيها تحت طائلة عد ذلك مروقاً عن المعتقدات الدينية . . ورغم انتشار العلم وزيادة عدد المتعلمين ، فإن الخوض في مثل هذه الأمور ما يزال يعرّض صاحبه إلى كثير من المشكلات ، الأمر الذي يجعل الإنسان الوريث لكثير من أمثال هذه الأساطير يعاني من تحكمها في حياته وسلوكه في هذه الحياة .

المبحث الثاني

الإنسان في ضوء العلم

أولاً: نشأة الحياة على الأرض؛

وجود الإنسان في دنياه الغربية والملاى بالأسرار هو الذي أوحى إليه بأساطيره التي ابتكرها عن أصل وجوده، ومنذ فجر الإنسانية وهو يحاول التوصل إلى سر بدء الحياة على هذه الأرض، وإذا كان لا يوجد لديه من معلومات عن بدء هذه الحياة سوى ما تقدمه دراسة هذه الأرض أو ما استطاع تطوره أن يصل إليه من معرفة محدودة عن الأجرام الأخرى فإنه كان من المنطقي جداً أن يتلمس الفكر عبر تطوره الكبير تفسيراً لأصل الحياة خلافاً للتفسير الأسطوري المبسط الذي اخترعه في المراحل الأولى من حياته. . . وكان من ذلك أن تولدت نظريات مختلفة عن نشأة الحياة على الأرض، وإذا كانت هذه النظريات على درجة من التنوع والاختلاف عبر الزمان والمكان وأن لغز الحياة وبدءها بقي غامضاً يتسع المجال معه لنظريات جديدة تتولد كل حين فإنه من المفيد أن نشير إلى بعض هذه النظريات التي كانت ومازالت موضع افتراضات واختلاف وجدل على مستوى الفكر العالمي.

فمن هذه النظريات نظرية تقول: إن الحياة نشأت بطريقة فجائية من مواد غير حية، ولكن هذه النظرية دحضتها التجارب العلمية في القرنين السادس والسابع عشر، ومنها نظرية تسمى نظرية الخلق الخاص. . . إذ إنه

وحتى منتصف القرن التاسع عشر كان الرأي السائد أن الحياة نشأت عن طريق قوة فوق القوى الطبيعية إما دفعة واحدة أو على فترات متتالية ، وكل نوع خُلِقَ مستقلاً على حدة . . ولكن هذا القول لا يخضع لإمكان إثباته بالتجربة العلمية . . وجاءت نظرية ثالثة تقول : إن الحياة انتقلت إلى الأرض على هيئة / بذور / كائنات حية بسيطة التركيب من مصادر أخرى في الكون الفسيح . . ولكنها لم تفسر نشأة الحياة أساساً في تلك الأماكن الأخرى المفترضة . . ثم هنالك النظرية التي سميت النظرية الطبيعية التي تفترض أنه منذ أكثر من بليون من السنين أصبحت درجة الحرارة والرطوبة على الأرض مناسبة للحياة . ولم يكن هناك أوكسجين حر ، ولكن الغلاف الجوي كان محتوياً على غاز الميثان بالإضافة إلى بخار الماء والنشادر والهيدروجين ، وقد ثبت من التجارب الحديثة أن الأحماض الأمينية كالجليسين تتكون عندما تتعرض الغازات المذكورة إلى الأشعة فوق البنفسجية أو الشحنات الكهربائية مثل البرق ، وكذلك فإن الحامض النووي والأدينين أمكن الحصول عليهما في المعمل بواسطة تعريض خليط من الميثان والنشادر والماء للإشعاع ، ومن الممكن أن مثل هذه الجزيئات العضوية قد تجمعت في الماضي السحيق في بحر حسائي حيث لم يكن هناك بكتيريا تسبب التحلل ، وتكونت فيما بعد المواد البروتينية ، وبعضها أمكنه أن يعمل كعوامل مساعدة لتكوين بروتينات أخرى ، ومن المحتمل أن الطاقة اللازمة لهذه العمليات استحدثت من تخمير بعض السكريات ، ثم تكونت بعد ذلك جزيئات كربونية معقدة وانطلق الأوكسجين نتيجة لهذه

العملية . . وبهذا تكون مخزن الأوكسجين في الغلاف الجوي . . ثم تكونت الطحالب وحيدة الخلية باستخدام الطاقة الشمسية ، وأصبحت هذه الطحالب غذاءً للحيوانات الأولية وحيدة الخلية التي بدأ ظهورها في ذلك الوقت .

وعند الوصول إلى مرحلة تكون الحيوانات الأولية وحيدة الخلية أصبح في مقدور الخلايا أن تتجمع في مجموعات ذات خلايا متشابهة ، ثم تحولت بعد ذلك إلى أنسجة ذات وظائف متعددة كما هو الحال في الحيوانات الراقية . . وهذه النظرية لنشأة الحياة تؤيدها الدراسات الحديثة للفيروسات التي تعد نقطة اتصال بين المادة الحية والجماد ، والتي لا تدب فيها الحياة إلا عند وجودها داخل خلايا الكائن الحي حيث تسلك مسلك الكائنات الحية ، والتي أمكن الحصول عليها على هيئة بلورات مثل المواد غير العضوية تماماً ، والتي أمكن تحويل بعضها إلى مركبين لا حياة فيهما وهما : بروتين وحامض النوويك ، وعند إعادة اتحاد البروتين وهذا الحامض نحصل من جديد على / فيروس / به خصائص الحياة ، حيث يصبح في إمكانه إحداث الإصابة في نباتات الطباق^(١) .

ولكن طالما أن الفيروسات لا تدب فيها خصائص الحياة إلا عند وجودها داخل خلايا النبات أو الحيوان ، وأنه إذا أمكن الحصول على

(١) د. يوسف عز الدين عيسى ، تطور الخلية ، مجلة عالم المعرفة ، الكويت ، العدد ٤ ، العام ١٩٧٣م ، ص ١٠٥ .

فيروس من خصائص الحياة وهو خارج الخلايا النباتية أو الحيوانية فإن مثل هذا الفيروس في هذه الحالة يشبه من وجوه كثيرة مرحلة مبكرة لنشأة الحياة على الأرض .

ولكن متى نشأت الحياة؟ للإجابة عن هذا التساؤل استخدم العلماء طرائق متعددة لتقدير عمر الأرض وذلك بوساطة تقدير عمر الصخور الأولى التي تكونت على سطحها بوسائل علمية اعتمدها وتوصلوا إلى أن عمر الأرض يبلغ نحو / ٤٦٠٠ / مليون سنة ، وأن نشأة الحياة على الأرض تقدر بنحو ألف مليون سنة ، أما الإنسان فلم يوجد على الأرض إلا بعد نحو مليون سنة .

ثانياً- أصل الإنسان:

عقد في باريس عام ١٩٨٤م المؤتمر العلمي الدولي بعنوان (فهم جديد لنشوء النوع البشري وتطوره) وقد ضم هذا المؤتمر مجموعة من الباحثين العلماء في مختلف ميادين المعرفة .

وفي حوار نشرته مجلة العربي في عددها (٣١١) سنة ١٩٨٤م مع البروفسور (إيف كوبنز) الناطق الرسمي باسم المؤتمر حول نشأة الإنسان وتطوره وما توصل إليه المؤتمر بهذا الصدد قال :

بالاستناد إلى التحاليل التي أجريت على بقايا الهياكل العظمية البشرية التي اكتشفها علماء الآثار والتنقيب يبدو أن مسار تطور النوع البشري مر بأربع مراحل كبيرة ، ارتبطت كل منها بنوع حيواني معين .

المرحلة الأولى:

كانت منذ ثلاثين مليون سنة، وتمثلت بظهور نوع من الثدييات القردية والبشرية التي لم يكن طول قامتها يتجاوز نصف متر، ولم يكن في فمها سوى نصف فك، وقد عثر على بقايا هياكل عظمية لهذه النماذج الأولى في منطقة الفيوم جنوب القاهرة. . مما يعني أن أرض مصر القديمة قد تكون المهد الأول للبشرية. وقد عرفت هذه النماذج باسم «بروبليوباتاك».

المرحلة الثانية:

وترجع إلى خمسة عشر مليون سنة، وتشمل مناطق أفريقيا وآسيا وأوروبا، حيث عاشت النماذج المعروفة باسم «راماباتاك» وقد تميزت بحجم الجمجمة الأكبر بكثير من حجم جمجمة النموذج الفيومي المصري الأول، لكن مساحة الوجه أضيق وعدد الأسنان أقل. وقد عاشت هذه السلالة في الغابات إجمالاً، وكانت تعتمد في غذائها على العشب والنبات بشكل رئيس. ويبدو أنها كانت تستعمل الحجارة لتحطيم عظام الحيوانات لكي تتغذى بالنخاع العظمي.

المرحلة الثالثة:

مرحلة ما يسمى النموذج الأسترالي وقد ظهرت في أفريقيا منذ ستة ملايين عام، وقد كان هذا النموذج ما اصطلح العلماء على تسميته بسلالة (ما قبل الإنسان)، وقد احتفظ بمعظم الملامح العامة (للراماباتاك)، وإن كان تميز عنه بارتفاع حجم الجمجمة إلى ست مئة سنتيمتر مكعب بدل أربع مئة

لكن مساحة الوجه ظلت ضيقة . ويبدو أن الإنسان الأسترالي قد حقق تطوراً خطيراً جداً بالنسبة لمسار النوع البشري ؛ ذلك أنه بعد أن كانت نماذج المرحلتين السابقتين تدب على أطرافها الأربعة مشى الإنسان الأسترالي على قدميه فقط .

والدليل القاطع في هذا المجال ، هو الاكتشاف الذي توصلت إليه عالمة الآثار البريطانية الشهيرة (ماري لوكاي) التي عثرت في العام ١٩٥٩م في منطقة (أولدفاي) في (تانزانيا) على بقايا هياكل عظمية للإنسان الأسترالي . وقد وجدت في المنطقة نفسها آثار خطوات محفورة في رماد بركاني متحجر يعود عمره إلى أربعة ملايين عام ، وهي خطوات مزدوجة فقط (وليست رباعية) لأقدام بشرية .

وطبعيٌّ فإن استعمال القدمين فقط للمشي يعني بقاء اليدين حرتين لاستعمالات أخرى . وقد تبين فعلاً أن النموذج الأسترالي بدأ منذ ثلاثة ملايين عام باستعمال حجارة الكوارتز لتوليد الشرارة النارية ، وقد استدل على ذلك من خلال اكتشافات أثرية توصل إليها منقبون أمريكيون عملوا في «وادي أومو» الواقع في المنطقة الحدودية بين إثيوبيا وكينيا .

وهذه المرحلة الأسترالية هي التي يصطلح العلماء على تسميتها بمرحلة «ما قبل التاريخ» أو «فجر التاريخ» .

المرحلة الرابعة:

تمثلت في ظهور «الإنسان الحاذق» (هومو هابيلوس) وكان ذلك منذ

مليونين ونصف المليون عام، وهو نسخة متطورة لنموذج الإنسان الأسترالي يتميز عنه بأنه أطول قامة، وحجم الدماغ صار هنا أكبر بكثير (ثمان مئة سنتيمتر مكعب بدل ست مئة)، كما أن قوامه استقام عمودياً بعدما كان قوام الأسترالي مائلاً إلى الانحناء، كما تميز الإنسان الحاذق بقدرته على قرض أي شيء سواء أكان لحمياً أم نباتياً، وذلك بفضل أسنانه الأقوى والأكبر عدداً، والأكثر تنوعاً، مما جعله قادراً على التأقلم مع أي نوع من البيئة.

ويبدو أن هذا «الحاذق» بدأ يتعرف على أكل جيف الحيوانات الميتة، مما جعله يستطيب طعم اللحم فصار يسعى إلى الصيد . . ويستدل من الاكتشافات الأثرية التي عثر عليها المنقبون أن طرائد إنسان هذه المرحلة تراوحت بين الفأرة والفيل .

ومع هذه السلالة دخلت البشرية عهداً جديداً، إذ إن الإنسان «الحاذق» بدأ بتصنيع الأدوات اللازمة لمختلف استعمالاته اليومية، أسلحة صيد حجرية، قاذحات شرر لإحداث النار وغيرها، والأهم أنه بدأ باعتماد نوع من المبادئ الأولية في تقسيم العمل . . ومع ذلك بدأ يتقن بناء الأكواخ التي فزع إليها من تقلبات المناخ ومخاطر الطبيعة، أكواخ يتراوح قطرها بين أربعة أمتار وخمسة أمتار .

كما أن بناء البيوت جعله يبتكر عملية التكنيس وأدواتها المناسبة . وفي هذه المرحلة بدأ «الإنسان الحاذق» يتحول نحو المجتمع الأسري

حيث يقيم في الكوخ الواحد نحو عشرين شخصاً. وهذا يعني أن معدل الكثافة السكانية كان بمعدل (١, ٠ إلى ٣, ٠) أشخاص في الكيلو متر المربع الواحد.

مما يعني أن مجموع سكان العالم آنذاك، أي منذ مليوني عام كان في حدود مئتي ألف نسمة. وبطبيعة الحال فقد استمر عدد سكان العالم القديم في التصاعد وبخاصة بعد الانتقال من العصر الحجري إلى عصر حضارة الزراعة والعيش مع تجمعات سكنية قروية.

لقد كانت مرحلة الإنسان الحاذق آخر مراحل تطور السلالات البشرية وأهمها، وقد انبثق منها «الإنسان البناء» (هومو أزيكتوس) الذي انطلق من أفريقيا ينتشر في مختلف بقاع العالم وبخاصة في الصين وفلسطين القديمة. وكان ذلك منذ مليون وخمس مئة ألف عام.

وقد تميز إنسان هذه المرحلة بتحقيق تقدم مهم في تطوير أدوات الصيد، كما أحرز تقدماً مهماً في مجال إحكام سيطرته التامة على النار وإخضاعها للاستخدام في معظم أوجه حياته، ويبدو أنه بدأ أيضاً ومنذ ثمان مئة ألف عام بإدخال النار في طقوس الموت، بدليل أن معظم الجماجم البشرية المكتشفة في المناطق الواقعة ما بين الصين وتانزانيا كانت محطمة ومحرقة، وكأما الإنسان القديم «البناء» كان يشوي دماغ مواته ويأكله من باب التعظيم والتكريم. وبعد ذلك ظهر إنسان «الهوموسابينس» وهو الجد الأقرب للإنسان الحديث، كان ذلك منذ مئتي ألف عام، وقد تميز بقامته

الأطول ، وبمجممته الأضخم وبمساحة وجهه الأوسع .

إن السؤال الجدير بالاهتمام هنا ، هو هل بالإمكان عد عملية تأريخ وسلسلة نشوء النوع البشري وتطوره ثابتة ونهائية؟

لا ثوابت في هذا المجال ، بل إن كل شيء نسبي . المسألة ليست مسألة تنظير محسوس ، بل إن ذلك متعلق بمستجدات الاكتشافات الأثرية . إن كل النتائج التي توصل إليها مؤتمر باريس الذي أشرنا إليه سابقاً تستند إلى تحليل ما هو متوافر من معطيات متأتية من الاكتشافات الأثرية الحاصلة حتى تاريخ انعقاده .

ومن هنا فإن كل الاحتمالات تبقى واردة ، فلا شيء يمنع أن يظهر غدا اكتشاف أثري جديد ، يجعل الجميع مضطرين إلى إعادة النظر في كل شيء سابق .

ولكن كيف يمكن حتى الآن على الأقل تحديد الأب الحقيقي لإنسان الأزمنة الحديثة من بين كل تلك السلالات والنماذج البشرية القديمة؟ هذه المسائل باتت محسوسة تماماً ، فذلك يعود إلى المفهوم الذي تعنيه كلمة إنسان ، وهو : الكائن الذي يمشي على قدمين ، والقادر على استعمال يديه وأسنانه (للنبات واللحم) والذي تحتوي جمجمته على دماغ متنام يسمح له بالتفكير وبالنطق وممارسة الحس الاجتماعي والإبداعي . من هذا المنطلق يمكن عد «هومو هابيلوس» الحاذق الأب الحقيقي لإنسان الأزمنة الحديثة ، مما يعني أن عمر البشرية الحالية يرقى إلى مليونين ونصف المليون سنة .

وذلك أن المراحل السابقة (للهايلوس) لم تكن سوى مقدمة للنموذج البشري وبالفعل فإن هذه المقولة تتلاءم تماماً مع أعمار الحضارات البشرية المعروفة حتى الآن في معظم أنحاء العالم؛ ففي الصين مثلاً ثبت أن عمر الصيني الأول يرقى إلى مليوني سنة، والأندونيسي الأول إلى مليون وتسع مئة ألف سنة، والفرنسي الأول إلى مليون وثمان مئة سنة، والشرق الأوسطي الأول إلى مليون وثمان مئة ألف سنة أيضاً.

إن التفسير العلمي لعمليات التطور التي خضعت لها السلالات البشرية كما يؤكد المؤتمر المذكور من خلال نتائجه يحدده (البروفسور كوبنز) بقوله : «لا شك أن العوامل المناخية والجيولوجية هي الأساس الأول في جميع عمليات التطور السلالي، لجميع الكائنات الحية من إنسان وحيوان ونبات» .

فقد تحول منذ نحو عشرين مليون سنة مناخ الأرض فجأة وبصورة عجيبة إلى منحى جديد بحيث أصبحت المناطق الجبلية والصخرية أقاليم وغلية، وفي الوقت نفسه تحولت الأدغال والصحاري الاستوائية إلى سهول منبسطة يغطيها النبات والماء .

وكان من شأن تلك الانقلابات الطبيعية أن دفعت بأنواع من الكائنات إلى الانقراض، ومنها مثلاً الثدييات التي لم تستطع العيش خارج الأدغال والصحاري .

ومن جهة أخرى فإن السلالات البشرية القديمة القريبة من السلالة

القردية والتي كانت معتادة على العيش متسلقة أعلى الأشجار اضطرت إلى الهبوط أيضاً للعيش في المساحات المنبسطة السهلية الجديدة، مما اضطرها بالتالي مع الوقت إلى اعتياد استعمال القدمين فقط للمشي بدل الأطراف الأربعة، وصارت لليدين استعمالات جديدة للصيد والقتال دفاعاً عن النفس، ولبناء المساكن الأرضية.

وكان من الطبيعي أن ينجم عن ذلك تطور هام في التركيبة الدماغية والعصبية للإنسان. وقد حدثت فيما بعد تحولات مناخية جذرية أخرى منذ نحو مليونين ونصف المليون سنة، حيث اجتاحت موجة عارمة من الجفاف جعلت السهول تتحول إلى قفار جرداء تصعب فيها استمرارية الحياة بالبداهة والعفوية التي كانت اعتاداتها السلالات البشرية الغابرة، مما اضطرها إلى ابتكار أدوات وأساليب جديدة هي في النهاية نوع من الاحتيال على الطبيعة للتمكن من العيش. . وكان هذا أهم الإنجازات التي حققها نموذج «هومو هابيلوس» الحاذق.

ثالثاً- طبيعة الإنسان:

كما قلنا آنفاً: إن ما يتميز به الإنسان ليس صفاته البيولوجية والاجتماعية بقدر ما صنعه من هذه الصفات، وحياته هي نتاج القوى الاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي صنعت التاريخ. فضلاً على ذلك فإن تاريخ كل شخص يضم ماضيه التطوري وتجاربه البيولوجية الخاصة، وعليه يمكن دراسة جسم الإنسان من حيث هو آلة تخضع تركيباتها وآلياتها

لقوانين الفيزياء والكيمياء، ولكن الإنسان من ناحية أخرى، يتمثل على صورة كائن عضوي معقد، يتجاوب مع بيئته على نحو متفرد يعطي حياته ذاتية مستقلة إلى حد كبير رغم كون النماذج والرموز التي يعمل عن طريقها العقل البشري مستمدة من عالمه الخارجي. صحيح أن خصائص آلة الجسم مشاعة بين جميع الأفراد المنتمين إلى نوع (الإنسان العاقل). وتكاد تطابق خصائص القردة العليا، ولكن كل شخص يتميز في الوقت نفسه بخصائص مستمدة من تجاربه ونشاطاته الخاصة، وهي سمات ينفرد بها عن جميع الأشخاص الآخرين، وهذه الاختلافات الفردية والجماعية دقيقة للغاية، وتتضمن أنماطاً معقدة لا تركيبات أو وظائف موحدة.

إن تأثير القوى الثقافية في أوجه نشاط الإنسان من الواضح بحيث جعل علماء الاجتماع يميلون إلى الاعتقاد بأن الإنسان قد أفلت من قبضة البيولوجيا، ولكن هذه القوى لا تزال تؤثر بعمق في معظم جوانب حياة الإنسان الفردية والاجتماعية، وفي الواقع إن التاريخ والتجربة اليومية يوضحان أن الدوافع البدائية التي كانت تحرك إنسان العصر الحجري القديم يمكن في كثير من ظروف الشدة أن تخترق بسهولة قشرة الحضارة، ويرجع ذلك على وجه التحديد إلى أن الحياة المتحضرة نشأت أساساً من تغييرات نفسية اجتماعية لا من تطور عضوي^(١). وعلى النقيض من الحيوانات المختلفة التي اكتسبت أثناء تطورها درجة عالية من التخصص التشريحي

(١) زكريا فهمي، طبيعة الإنسان، مجلة عالم الفكر، العدد ٢، العام ١٩٧٥، ص ٤٦.

والفسيولوجي والسلوكي ، وأصبحت نتيجة ذلك مرتبطة ببيئات معينة وملزمة بطرائق حياة خاصة فقد ظل الإنسان أعظم كائن غير متخصص في عالم الأحياء ، ومواهبه الطبيعية أقل في كثير من النواحي من مواهب الأنواع الحيوانية الأخرى التي تعيش في الوقت الحاضر - كما ذكرنا ، ولكنه ربما كان يسبقها جميعاً في قابليته للتكيف هذه هي التي مكنت الإنسان من الاشتغال بعدد لا حصر له من الأعمال المختلفة والاستيطان في عدد كبير من مناطق العالم المختلفة . ويبدو أن حجم المخ ونمو قشرته المميزة هي التي كانت السمة البارزة في تطور البشر وثقافتهم ؛ لأن المخ في جميع الحيوانات العليا هو العضو الرئيس للوعي ، وله قدرة مذهلة على إحداث تكامل بين عدد هائل من عناصر التجربة المنفصلة والمختلفة في كثير من الأحيان ، وفي أنماط منظمة ، وهي أنماط وتجارب يفتن الكائن العضوي إلى كل نوع منها على حدة وعلى نحو متميز ، كما أن له قدرة على مد أفكاره إلى المستقبل البعيد وهي صفة من أهم صفاته التي أدت إلى إعطائه القوة الدافعة اللازمة للبحث عن مزيد من المعرفة وبذل جهود جديدة لإيجاد أنماط للتعلم تؤدي إلى تحقيق هدف بعيد .

وكذلك فإن القدرة على الكلام أضفت على الإنسان ميزات جعلت الوظائف الاجتماعية أكثر فاعلية ، ويعتقد كثير من الأنثربولوجيين أن عملية الانتخاب التي أدت إلى الكلام طرحها في الواقع على أسلاف الإنسان اعتمادهم المتزايد على الأنشطة التعاونية ، وبصفة خاصة حاجتهم إلى نقل المعلومات لصنع واستخدام الأدوات إلى الأفراد الآخرين ،

وبذلك اعتمد التقدم في صنع الأدوات واستخدامها في تطور اللغة اللازمة للاتصال، وأصبحت اللغة بدورها الأداة الحاسمة في تطور الحضارة.

وبصورة عامة فإن الإنسان يختلف عن الحيوان بمجموعة من الصفات بعضها موجود في أنواع الحيوانات ولكنها في حالة غير متطورة فقط في كثير من الأحيان، وإليك قائمة بصفات مميزة موجودة إلى حد ما في الحيوانات العليا، ولكنها أساسية لرفعة شأن الإنسان. وهي درجة أعلى من قابلية التغير، وضع منصب، يدان يمكن العمل بهما، قشرة مخية معقدة، طول فترة عدم اكتمال النمو وقابلية التعليم والمهارة في استخدام الأدوات واختراعها، كلام رمزي ووسائل اتصال أخرى، وقدرة على التفكير التصوري والإبداعي.

وهناك سمات للحياة الاجتماعية تكاد تبدو وقفاً على الإنسان وحده، وتمثل حداً فاصلاً بين الإنسان والرئيسات العليا، هذه السمات هي: مقاسمة الطعام مع أفراد الأسرة، والبناء الأسري المستمر على درجة عالية من التنظيم، وقواعد السلوك المتعلقة بالمحارم ومزاوجة الغرباء، وعلى الرغم من أن كثيراً من الناس تنقصهم بدرجة كبيرة واحدة أو أخرى من هذه السمات، بل إن الجنس البشري يمكنه أن يذهب إلى أبعد من هذا ويدعي أن من صفاته الخصوصية قبول القيم الأخلاقية التي تتجاوز نطاق الاحتياجات، ووعي يسمو على الذهن المحض، وضمير يقهر المخاوف، واهتمام بالماضي السحيق، وقلق على المستقبل البعيد.

إن حدوث المراحل الأخيرة من التطور البيولوجي للإنسان في آن واحد من المراحل الأولى لثقافته يكاد يجعل من المؤكد أن الصفات البيولوجية والثقافية لا يمكن بحثهما على حدة، فليس هنالك شيء يمكن تسميته بطبيعة الإنسان البيولوجية الصرفة، فثقافة الإنسان كلها قامت بدور في التشكيل الوراثي للإنسان على النحو الذي نعرفه اليوم، ومن هنا ينبغي ألا ينظر إلى أنماط الثقافة على أنها مظاهر خارجية لطبيعة الإنسان، بل إنها تؤلف خططاً وتصميمات لرسم معالم حياته؛ ولهذا قيل: إن الإنسان يصنع نفسه، فهو لم يطرأ عليه من الناحية البيولوجية سوى تغير طفيف منذ أواخر العصور الحجرية القديمة، وإذا كانت نظريات التطور تشير إلى أن الثدييات بأنواعها كلها هي بعض الحلقات الأخيرة للتطور حتى وصلت إلى الشكل الإنساني وقد استغرق هذا التطور بكامله - منذ الخلايا الأولية - مدة تتراوح بين ألف وخمسمائة مليون سنة وألفي مليون سنة فإن الألف قرن الهزيلة للإنسان الحكيم لا تمثل إلا جزءاً من عشرين ألف جزء من التاريخ العام، إنها شيء قريب من أربع ثوان في نهاية يوم مقداره أربع وعشرون ساعة، وأما التاريخ بالمعنى الحقيقي للإنسان المتمدّن فإنما يمثل خمس الثانية الأخيرة من الساعة الأخيرة^(١).

(١) جان روستان، الإنسان، ترجمة محمد عبدالرحمن مرحبا، ص ١١٠.

obeikandi.com

المبحث الثالث

التطورية الثقافية والاجتماعية للإنسان

يقول أحد المفكرين : «إن أعمق نمو للنفس لا يتحقق كما يطيب للناس أن يفترضوا اليوم في علاقة الإنسان بنفسه، بل في العلاقات بين الواحد والآخر، أي بين الناس، أي في المقام الأول في تبادل الاعتراف بالوجود - أعني في الاعتراف بوجود نفس أخرى، وفي معرفة أن المرء يوجد في ذاته الخاصة بواسطة الآخر - مع تبادل القبول والإيجاب والتأييد».

والإنسان لم يطرأ عليه من الناحية البيولوجية سوى تغير طفيف منذ أواخر العصور الحجرية القديمة، وقد ظل في الصورة نفسها أساساً من الناحية الوراثية، ولكن مظاهر حياته وبناء مجتمعاته تتغير بلا حدود، بل إن مفهوم التقدم ذاته يتضمن أن أحداث حياة الإنسان الاجتماعية لا تتكرر أبداً بالصورة نفسها، والتغير المستمر في حياة الإنسان يأتي من الاستجابات الخلاقة التي يبديها هو ومجتمعاته إزاء تحديات البيئة الكلية. ولكي يعيش لا بد له من الاستجابة، ومن ثم تنشيط العمليات البيئية الكلية المؤدية إلى التكيف والتطور الخلاق، وفي هذا تميز الإنسان عن الأنواع كافة بحيازته على حضارة مادية وروحية، وبأنه يبدع هذه الحضارة ويتمتع بخيراتها؛ وبذلك كان الحيوان الوحيد الذي سمي نفسه بحق كائناً اجتماعياً وأخلاقياً.

إن العلماء المتطورين يختلفون في كثير من الأمور وبخاصة فيما يتعلق بتفاصيل العملية التطورية وعدد المراحل التي مر بها المجتمع والثقافة منذ البدء حتى الآن ولكنهم يتفقون على الأغلب أن الصفة الغالبة على سير الحضارة هي الارتقاء، وأن الحياة تسير بالضرورة لتحقيق مزيد من التقدم والرفق، والنظم الاجتماعية والمجتمعات الإنسانية ذاتها تقدمت وهي تتقدم بالضرورة من حالة التأخر والبداية إلى التحضر والتمدن مارة بمراحل معينة يختلف عددها وخصائصها ومقوماتها من عالم لآخر، ولكنها تتفق في أن المرحلة اللاحقة تكون أعلى من السابقة، وأنها تهيئ الفرصة لقيام مرحلة أرقى منها هي ذاتها^(١).

إن من أبرز العلماء الذين بحثوا في هذا الميدان العالم الأمريكي الشهير (لويس مورجان) الذي ذكر في كتابه «المجتمع القديم» أن العالم مرّ بحقتين كبيرتين هما: حقبة التوحش وحقبة البربرية قبل أن يصل إلى الحضارة الأوروبية الحديثة. ثم يقسم كلا من هاتين الحقتين بعد ذلك إلى ثلاث مراحل أخرى: دنيا ووسطى وعليا، وبذلك يكون المجتمع قد مر بحسب تقسيمه في المراحل التالية:

أ- مرحلة التوحش الدنيا، وتبدأ من طفولة البشرية.

ب- مرحلة التوحش الوسطى وتبدأ باستخدام النار، وكان الاقتصاد يعتمد فيها على صيد السمك.

(١) جون لويس، الإنسان والارتقاء، ترجمة عدنان جاموس، دار الجماهير، دمشق.

ج- مرحلة التوحش العليا وتبدأ منذ اختراع الإنسان القوس والسهم ، وبذلك كانت الحياة الاقتصادية تقوم في الأغلب على القنص .

د- مرحلة البربرية الدنيا وتبدأ باختراع الأواني الفخارية .

هـ- مرحل البربرية الوسطى التي تتميز بحفظ الحيوانات واستئناسها وزراعة الذرة والاعتماد على الري .

و- مرحلة البربرية العليا وتبدأ باكتشاف طريقة سبك الحديد ، وبالتالي استخدام الأدوات والآلات الحديدية .

ز- وأخيراً وصلت الإنسانية إلى المرحلة السامية وهي مرحلة الحضارة الصحيحة التي تمتاز باكتشاف حروف الهجاء والكتابة وتمتد حتى عصرنا الحالي^(١) .

أما فيما يتعلق بوسائل العيش فإن (مورجان) يميز بين خمس طرائق انتحلها الإنسان في معاشه ، وهو يرد اثنتين منها إلى حقبة التوحش ، بينما ترجع الثلاث الأخرى إلى البربرية . وأولى هذه الوسائل يسميها (مورجان) بطريقة العيش الطبيعية ، وذلك بجمع الفواكه والبذور والجذور في المنطقة التي يقطن فيها الإنسان ، والوسيلة الثانية هي صيد السمك .

أما الوسائل الثلاث الأخرى فهي : الاعتماد على زراعة الحبوب في

(١) أحمد أبو زيد ، المجتمع القديم عند لويس مورجان ، مجلة تراث الإنسانية ص ٣٦ .

الحدائق، والاعتماد على اللحم واللبن، ثم ممارسة الزراعة الواسعة في الجبال^(١).

ومن العلماء أيضاً العالم الاقتصادي الألماني (كارل بيشر) الذي رأى أن الاقتصاد البشري مرّ بثلاث مراحل قبل أن يصل إلى المرحلة الصناعية في أوروبا في القرن التاسع عشر، وفي أولى هذه المراحل الثلاث كانت حياة الإنسان تعتمد إما على الجمع والالتقاط، أو على قنص الحيوان، أو صيد السمك بحسب ظروف كل مجتمع على حدة، ثم انتقل الإنسان بعد ذلك إلى مرحلة الرعي، وأخيراً وصل إلى مرحلة الحياة المستقرة التي تعتمد على الزراعة^(٢).

ولكن فكرة التطور بمعنى التقدم والارتقاء لم تسلم أيضاً من كثير من الانتقادات كما صادفت نظرية النشوء والارتقاء من حرب مسعرة لما تنته^(*)، وأبرز المنتقدين لفكرة الارتقاء عدد من العلماء ورجال الدين بالذات، فقد رفض هؤلاء المعارضون تصور المجتمع البشري وهو يسير في خط التقدم الذي

(١) أحمد أبو زيد، تايلور، دار المعارف بمصر، ١٩٦٣، ص ٢٥.

(٢) المصدر ذاته، ص ٢٩.

(*) ما زال يوجد تشريع في ولاية / تينسي / بأميركا يحرم تدريس التطور، وفي سنة ١٩٢٥ جرت محاكمة لأحد المدرسين واسمه / سكويس / لأنه خالف قانون الولاية هذا، غير أن هذا القانون رغم استمرار بقائه فإنه - نتيجة التطور - لا يطبق.

وفي عام ١٩٧٨ م سيطر الاتجاه الديني في مصر على طلاب الجامعة، وفاز المتشددون في هذا الاتجاه بأكثرية المقاعد القيادية لاتحادات الطلبة، وقد أخذت القيادات تطرح رأيها جهاراً وبإلحاح بلزوم حذف نظرية النشوء والارتقاء / لداروين / من المناهج التعليمية «انظر - خريف الغضب - محمد حسين هيكل ص ٣٠٢».

رسمه أصحاب هذا الرأي، ورأوا على العكس من ذلك أن الإنسان خلق في الأصل على درجة عالية نسبياً من الرقي الثقافي، ولكن هذه الثقافة الأولى الراقية تعرضت لبعض عوامل مضادة دفعت بها إلى التدهور والانحلال^(١).

ورغم نقد المتقدين فإن العلم يثبت كل يوم تطوراً اجتماعياً يعبر عن ارتقاء الإنسان، هذا الإنسان الذي أصبح نفسه عاملاً وقوة فعالة في التقدم التكنولوجي، وفي إعادة تنظيم الموجودات، وفي إيجاد الأيديولوجيات والنظم الحياتية والقواعد الأخلاقية، وبمبادئ التفكير العلمي.

إن تغير الجنس البشري والمجتمع من الناحية الاقتصادية والتكنولوجية أقوى بكثير من التغير الوراثي، والتغير الأهم هو الأول ولا سيما أن التغيرات التكنولوجية تصدر عن المتطلبات الاقتصادية وممارسة الإنتاج والمعارف العلمية. فقد تعلم الإنسان الطيران خلال خمسين سنة فقط، بينما استغرق الارتقاء البيولوجي حتى توصل إلى الأمر نفسه عن طريق التغيرات الوراثية إلى خمسين مليون سنة. والنظم الاجتماعية تتغير بسرعة كبيرة وبجذرية عميقة تجعلان من غير الممكن أن تتعلق هذه النظم بالتحويلات الفجائية التي تطرأ على المورثات (الجينات)، وقد غير سكان جزيرة / مانوس / في المحيط الهادي خلال / ٢٠-٣٠ / عاماً ليس فقط أسلوب حياتهم، بل غيروا سلوكهم وقواعدهم ومقاييسهم

(١) أحمد أبو زيد، التطورية الاجتماعية، مجلة عالم الفكر الكويتية العدد ٤، العام ١٩٧٣، ص

الأخلاقية . . بشكل جذري . ولم يكن هذا أيضاً تغيراً وراثياً اجتماعياً^(١) .

إن الهيئة الاجتماعية جسم حي ، والقوة التي تدفع بالهيئة الاجتماعية إلى الرقي هي العقل ، ويفترض بالعقل أن يكون قوة الابتداع والتجديد وعدو التقاليد الجامدة ، والصراع بين القديم والجديد لا يخمد أواره ، وفي هذا الصراع يتهم الجامدون على القديم خصومهم بفساد الأخلاق ويتسلحون بالقواعد القديمة للدين والعادات ، ويتهم المجددون التقليديين بالرجعية والجمود ، وتستمر الحياة ليصبح ما كان جديداً قديماً ويتولد جديد آخر ، وتلك هي سمة التطور المستمر في المجتمع التي تكمن في جوهر النظام الارتقائي ، هذا النظام الذي عمل الإنسان - بما حباه الله من إمكانيات - على تطويره بالذات ، وفي تغييره أحياناً تغيراً جذرياً ، وانتقل موضوعياً من منهج المصادفات الذي يخضع له التغيير الوراثي والارتقاء الطبيعي إلى مناهج التطور الاجتماعية . ولم ينحصر ذلك في التقدم الاقتصادي والتكنولوجي فحسب ، بل وفي تطور الحياة الاجتماعية كلها بما فيها السلوك الأخلاقي ، وفاعلية الغرائز ، وبحيث تصبح الأخلاق وسيلة من وسائل توطيد العلاقات الاجتماعية ، إضافة إلى الوسائل الأخرى التي اقتضت وجودها الضرورات الاجتماعية كالقانون . . والأعراف . . والعادات . . إلخ .

ولم يعد المجتمع يتكيف مع ظروف البيئة المحيطة . بل أخذ ينظم

(١) جون لويس ، الإنسان والارتقاء ، ترجمة عدنان جاموس ، ص ٥٥

ظروف هذه الهيئة ويخلق منها ما تقتضيه حياته المتطورة، واضطلعت الجهود المشتركة للأجهزة الاجتماعية بدور تحقيق هذه المهمة التي لا تستطيع القيام بها جهود أفراد منفردين .

وهكذا أصبح المحيط مطواعاً، وأصبحت الظروف مرنة لتقبل التغيير في طابع تطور الإنسان، وإيجاد ظروف عادة خلق الإنسان نفسه، وهنا يستقر مفتاح التطور وبقاء المجتمع الإنساني ونموه .

لقد أصبح الإنسان كائناً أخلاقياً منذ أزمنة موعلة في القدم، وكان ذلك بفضل التعاون والتبادل بين مختلف أعضاء الجماعة التي تعيش حياة مشتركة، وعلى ما صادفه تاريخ البشرية من نزاعات وصراعات وحروب دامية، فإن ذلك كله لم يوقف عجلة التطور في اتجاه المجتمعات نحو إدراك مزايا التعاون واتساع حلقة التلاحم الإنساني والاجتماعي، وما الأعراف والعادات والقيم التي ابتكرها الإنسان خلال مراحل تطوره سوى مظهر من مظاهر تطور الإنسان في المجتمع، وتطور هذا المجتمع عبر آلاف السنين في اتجاه الارتقاء والسمو، ورغم ظهور نقاط سوداء تعيق سرعة الارتقاء فإن علوم الإنسان ومعرفته وتجاربه في مختلف أقطار الأرض غدت تراثاً اجتماعياً مشتركاً يسهم في إقامة أنواع التحولات الاجتماعية أسرع وأكثر فعالية بكثير من الارتقاء الطبيعي، وتبرز كل يوم طاقة العقل الإنساني الذي ما هو سوى نتيجة لعملية الارتقاء، كما تبرز قدرة هذا العقل على مواجهة المواقف المتجددة في مشكلات الإنسانية ومعالجتها، وتؤكد على أن القواعد الأخلاقية والمبادئ والثقافات المختلفة هي جزء

جوهري من النشاط الاجتماعي الواعي ، وأن منبع العقائد والقناعات الأخلاقية يكمن في حياة المجتمع ، وأن أهداف هذه العقائد والقناعات ووظائفها نفعية ، وأنها ليست حقائق أزلية خالدة ، بل هي خاضعة للتطور والتبدل ، وأن أي مجتمع يعدها قواعد جامدة لا حركة فيها هو مجتمع عقيم يعيق حركة التطور دون أن يستطيع منعها .

إن الأفكار الغيبية والآراء المتعددة التي حاولت في الماضي أن تخرج الإنسان وثقافته عن نطاق الطبيعة وتعامله معها لم تصمد أمام تطور وارتقاء فكر الإنسان وارتقائه وإدراكه لذاته ، وبأنه وكل ما أبدعه بعمله أو شارك في إبداعه هو جوانب متنوعة للطبيعة ، وأنه وكل ما يصنع يشكلان الطبيعة في أكثر مراحلها حياة وتطوراً وفعالية .

لقد أظهر الإنسان بصفته كائناً اجتماعياً أنه يعرف العالم ويمكنه التعامل معه ، وأنه يدعم أركان الحياة الاجتماعية ، وأنه بعلاقته مع عناصر العالم المحيط به قد أبدع الحضارة المبنية على الوجود العقلاني ؛ ولهذا فإن الإنسان وكل ما أبدعه لا يخرج عن نطاق عملية التطور التاريخي ولا يمكن عدها بأي حال شيئاً معزولاً عن الطبيعة أو معارضاً لها أو واقعاً فوقها .

يقول (تشاردن) في كتابه / ظاهرة الإنسان / : «إن شلال النشاط العقلاني الذي انهمر فجأة هو اقتحام نوع جديد من أنواع الحيوان للعالم أخذ يسيطر على جميع أشكال الحياة الأخرى .

إن هذا السيل العارم من الحقول والمصانع والمعامل وهذا الإبداع
الضخم المتنامي المادي والروحي ليس إلا تبشيراً بحدوث انقلاب في الحياة
على الأرض يشمل الكوكب بأسره»^(١).

(١) المصدر السابق، ص ٨٤.

obeikandi.com

الفصل الثاني

علم الإنسان: تطوره
وعلاقته بالعلوم الأخرى

obeikandi.com

المبحث الأول

في التعاريف (١)

إن هذا الكائن الفريد الذي اسمه الإنسان كان دائماً ولا يزال موضع التأمل والدراسة من قبل كثير من العلوم الطبيعية والإنسانية على حد سواء؛ فمنذ قديم الزمان لاحظ الإنسان بصفة عامة الفروق القائمة بين شعوب الجنس البشري، واهتم بمعرفة الطبيعة الإنسانية وتفسير الاختلافات في الملامح الجسمية، ولون البشرة، والعادات والتقاليد، والديانات والفنون وغير ذلك من مظاهر الحياة، وفي إطار هذا الاهتمام والتساؤل تطورت الدراسات خلال العصور وتبلورت بنشأة فرع جديد من فروع المعرفة اصطلاح على تسميته «بالأنثروبولوجيا». ولكن ما هي الأنثروبولوجيا؟ وما موضوعها، إذ إن لكل علم عادة مجموعة من الظواهر التي يعكف الباحثون على دراستها بالوصف والتحليل والتفسير.

تشير بعض الدراسات الأنثروبولوجية إلى أنه ربما تكون أفضل طريقة لتعريف الأنثروبولوجيا هي أن نقدم للقارئ فكرة عما يفعله الأنثروبولوجيون. وفي هذا الصدد كتبت الباحثة الأنثروبولوجية الأمريكية الشهيرة (مارجريت ميد) (١٩٠١-١٩٨٩) تقول: «نحن نصف الخصائص

(١) اعتمدنا في هذه الفقرة على كتاب: قصة الأنثروبولوجيا، تأليف د. حسن فهمي الصادر ضمن سلسلة عالم المعرفة الشهرية التي يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت، ونشير إلى أننا قمنا بإجراء بعض التعديل (مثل الحذف أو الإضافة...) وللأمانة العلمية نشير إلى ذلك.

الإنسانية البيولوجية والثقافية للنوع البشري عبر الزمان وفي سائر الأماكن .
ونحلل الصفات البيولوجية ، والثقافية المحلية كأنساق مترابطة ومتغيرة ،
وذلك عن طريق نماذج ومقاييس ومناهج متطورة ، كما نهتم بوصف النظم
الاجتماعية والتكنولوجيا وتحليلها ، ونعنى أيضاً ببحث الإدراك العقلي
للإنسان وابتكاراته ومعتقداته ووسائل اتصالاته . وبصفة عامة - فنحن
الأنثروبولوجيين - نسعى لربط نتائج دراساتنا وتفسيرها في إطار نظريات
التطور ، أو مفهوم الوحدة النفسية المشتركة بين البشر .

إن التخصصات الأنثروبولوجية التي قد تتضارب مع بعضها هي في
ذاتها مبعث الحركة والتطور في هذا العلم الجديد ، وهي التي تثير الانتباه
وتعمل على الإبداع والتجديد ، هذا وتجدر الإشارة إلى أن جزءاً لا بأس به
من عمل الأنثروبولوجيين يوجه نحو القضايا العملية في مجالات الصحة
والإدارة والتنمية الاقتصادية ومجالات الحياة الأخرى .

يعبر هذا النص ولا شك عن تصور الأنثروبولوجيين الأمريكيين بصفة
عامة لأهم مجالات الأنثروبولوجيا ، والتي تعني في نظرهم دراسة الإنسان
من الناحيتين العضوية والثقافية على حد سواء . ويستخدم الأمريكيون
مصطلح الأنثروبولوجيا الفيزيائية للإشارة إلى دراسة الجانب العضوي أو
الحيوي للإنسان ، بينما يستخدمون مصطلح الأنثروبولوجيا الثقافية ليعني
مجموع التخصصات التي تدرس النواحي الاجتماعية والثقافية لحياة
الإنسان ، تدخل في ذلك الدراسات التي تتعلق بحياة الإنسان القديم (أو
حضارات ما قبل التاريخ) ، والتي يشار إليها بعلم الأركيولوجيا وتتناول

الأنثروبولوجيا الثقافية كذلك دراسة لغات الشعوب البدائية واللهجات المحلية، والتأثيرات المتبادلة بين اللغة والثقافة بصفة عامة، وذلك في إطار ما يعرف بعلم اللغويات، علاوة على ذلك يوجد مجالان دراسيان آخران ذوا أهمية كبيرة، وهما الأنثوغرافيا والأنثولوجيا وعلى الرغم من التداخل بين المصطلحين، إلا أن مصطلح الأنثوغرافيا يعني الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد، والعادات، والقيم، والأدوات والفنون، والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة، أو مجتمع معين، خلال فترة زمنية محددة. أما الأنثولوجيا فتهتم بالدراسة التحليلية والمقارنة للمادة الأنثوغرافية بهدف الوصول إلى تصورات نظرية أو تعميمات بصدد مختلف النظم الاجتماعية الإنسانية، من حيث أصولها وتطورها وتنوعها. وبهذا تشكل المادة الأنثوغرافية قاعدة أساسية لعمل الباحث الأنثولوجي، فالأنثوغرافيا والأنثولوجيا مرتبطتان وتكمل الواحدة منها الأخرى.

هذا هو معنى الأنثروبولوجيا ومجالات دراساتها الرئيسة في الولايات المتحدة الأمريكية.

أما في أوروبا، فإن الوضع يختلف تماماً حتى من بلد أوروبي إلى آخر، ويرجع ذلك - بطبيعة الحال - إلى تباين الخلفيات الثقافية والمصالح القومية للدول الأوروبية، فبصدد كلمة الأنثروبولوجيا ذاتها يذكر الباحث الفرنسي (جان بواريه) أنها ظهرت أولاً في كتابات علماء الطبيعة إبان القرن الثامن عشر لتعني دراسة التاريخ الطبيعي للإنسان، وربما كان عالم الطبيعة الألماني (جوهان بلومينباخ) من رأي (بواريه) أيضاً - أول من أدخل

كلمة «الأنثروبولوجيا» في منهج تدريس التاريخ الطبيعي بالمقررات الجامعية، كما استخدمه في الطبعة الثالثة من كتابه الذي صدر عام ١٧٩٥م بعنوان «عن التنوعات الطبيعية الجوهرية بين البشر». ويذكر (بواريه) أيضاً أن الفيلسوف الألماني إيمانويل كان قد أشاع استخدام هذا المصطلح وبخاصة بعد صدور كتابه «الأنثروبولوجيا من منظور عملي» ومع أن إسهامه في دراسات التاريخ الطبيعي للإنسان كان محدداً للغاية إلا أنه كان مهتماً بقراءة مدونات الرحلة، كما أنه درس موضوع تصنيف السلالات البشرية. هذا ولا يزال استخدام كلمة الأنثروبولوجيا بمعنى «دراسة التاريخ الطبيعي للإنسان» سائداً في أوروبا إلى حد كبير، إلا أن موضوعات الأنثروبولوجيا بهذا المعنى قد اتسعت وتنوعت لتشتمل على الدراسات المقارنة بين الإنسان والحيوان، ودراسة تنوع السلالات البشرية، والخصائص الوراثية للشعوب، علاوة على الدراسات المقارنة بين الإناث والذكور من حيث الصفات التشريحية والعمليات البيولوجية وصلة ذلك بتحديد الوظائف أو الأدوار الاجتماعية لكل نوع.

إن ما يدرجه الأمريكيون تحت عبارة «الأنثروبولوجيا الثقافية» اصطلاح الفرنسيون على الإشارة إليه بالأنثولوجيا، أو ثنوغرافيا في بعض الأحيان، وهم يدرسونها تحت مظلة علم الاجتماع. أما الإنجليز، فقد اختاروا تسمية أخرى، وهي الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ونظروا إليها بعدد علمائهم قائماً بذاته، لا يدرج تحته أي من الأركيولوجيا أو اللغويات مثلاً. ويصف (إدوارد إيفانز بريتشارد) (١٩٠٢-١٩٧٣)، أحد رواد الأنثروبولوجيا

الاجتماعية الأوائل مهمة الأنثروبولوجيا الاجتماعية بأنها «تدرس السلوك الاجتماعي الذي يتخذ في العادة شكل نظم اجتماعية كالعائلة، نسق القرابة، والتنظيم السياسي، والإجراءات القانونية، والعبادات الدينية وغيرها، كما تدرس العلاقة بين هذه النظم سواء في المجتمعات المعاصرة أو في المجتمعات التاريخية، التي يوجد لدينا عنها معلومات مناسبة من هذا النوع، يمكن معها القيام بمثل هذه الدراسات. إن دراسات الأنثروبولوجيين البريطانيين المكثفة لكثير من النظم الاجتماعية خلال النصف الأول من القرن العشرين، وإجراء المقارنات التحليلية بشأنها، ساعد على وضع نماذج نظرية لشرح أبنيتها، وتفسير وظائفها، ودورها في استمرارية الحياة المجتمعية وتماسكها. هذا وقد شكلت دراسات النظم ذاتها تخصصات فرعية، وبهذا خرج إلى الوجود ما يشار إليه مثلاً بأنثروبولوجيا القرابة والأسرة مثلاً، أو أنثروبولوجيا الدين، أو الأنثروبولوجيا الاقتصادية، أو أنثروبولوجيا النظم السياسية، وغير ذلك، وإن كانت جميعها تسير وفقاً للإطار العام لمفاهيم الأنثروبولوجيا الاجتماعية ومنهجها.

وإذا نظرنا إلى استخدام كلمة الأنثروبولوجيا في بلاد أوروبية أخرى نجد أنها تستخدم في ألمانيا مثلاً للإشارة إلى الدراسة الطبيعية للإنسان، بينما تستخدم كلمة أثولوجيا لتشير إلى «علم الشعوب»، إلا أن الاتجاهات تتعدد في المدارس الألمانية الأثنولوجية، هناك مثلاً اهتمامات بالنواحي النظرية الفلسفية، وهناك أيضاً اهتمامات بالنواحي المادية في الثقافات

الإنسانية . وقد برز مؤخراً اتجاهٌ جديد نحو الدراسات الميدانية ، وإذا انتقلنا إلى الاتحاد السوفيتي «سابقاً» ومعه معظم بلاد شرق أوروبا نجد أن مصطلح «الأثنوغرافيا» يشيع استخدامه ، ومن أهم مجالات الأثنوجرافيا لديهم دراسة التنظيم الاجتماعي للمجتمعات البدائية وبخاصة فيما يتعلق بالتحويلات التي تحدث في تلك المجتمعات عند تحولها إلى دول جديدة وما يتبعه من بروز للطبقات الاجتماعية . علاوة على ذلك يهتم الأثنوجرافيون السوفيت بدراسة المشكلات المتصلة بالجماعات العرقية ، والمشاعر القومية للأقليات ، كما يهتمون - بطبيعة الحال - بدراسة تطور المجتمعات الإنسانية في إطار النظرية الماركسية ونتائج البلشفية التي حدثت في عام ١٩١٧ .

وكما هو الحال في أوروبا ، تتنوع مسميات الأثنوبولوجيا الثقافية وذلك وفقاً للاتجاه الأمريكي ، إلا أن اصطلاح «الأثنوبولوجيا الحضارية» غير شائع ، ويدعو الباحث الجغرافي والأثنولوجي (د . محمد رياض)^(١) إلى الأخذ بمصطلح الأثنولوجيا بدلاً من استخدام أيٍّ من المصطلحات المزدوجة ؛ وذلك تسهيلاً واختصاراً . وفي الوقت نفسه - وعلى حد قوله - ترتبط الأثنولوجيا بدراسة الحضارة ، لدى الشعوب والمجتمعات المختلفة ، إن المهم - في رأيه أيضاً - هو «الاتفاق على المضمون ، وهو دراسة الحضارة بعناصرها المادية والمعنوية (غير المادية) ، في ارتباط واضح بالتفاعلات

(١) د . محمد رياض ، الإنسان ، دراسة في النوع والحضارة ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ص ١٧٧ .

الداخلية للحضارة، والتفاعلات الخارجية مع الحضارات الأخرى المجاورة وغير المجاورة»^(١).

وضمن إطار تحديد اصطلاح الأنثروبولوجيا يشير الدكتور (شاكر سليم) في قاموس الأنثروبولوجيا الذي صدر في عام ١٩٨١ إلى مايلي «إن الأنثروبولوجيا هي علم دراسة الإنسان طبيعياً واجتماعياً وحضارياً»^(٢) وعلى الرغم من بساطة هذا التعريف وإيجازه إلا أنه قد يحسم لنا مشكلة تعدد فروع الأنثروبولوجيا فيحدددها في ثلاثة تخصصات رئيسة فقط، ، وهي الأنثروبولوجيا الطبيعية، والأنثروبولوجيا الاجتماعية، والأنثروبولوجيا الثقافية. وهو في ذلك يشير ضمناً إلى خاصية مميزة للأنثروبولوجيا وهي النظرة الشمولية في دراسة الإنسان. هناك علوم أخرى كثيرة - طبيعية كانت أو إنسانية - تدرس الإنسان من جانب أو آخر، ولكن الأنثروبولوجيا تشكل في نهاية الأمر منهجاً يسعى إلى تجميع المعرفة بالإنسان من جميع الجوانب؛ وذلك بهدف تقديم فهم متكامل ومتربط عن الإنسان وحياته ونتاجه الحضاري في الماضي والحاضر، ومن ثم يكون لديها القدرة أيضاً على استقراء أنماط الحياة المستقبلية.

وإلى جانب دراسة الأنثروبولوجيا للمجتمعات كافة كجزء من منظورها الشمولي يتجه الأنثروبولوجيون عند دراستهم لأسلوب حياة

(١) المصدر السابق.

(٢) شاكر سليم، قاموس الأنثروبولوجيا (عربي - إنكليزي)، جامعة الكويت، ١٩٨١، ص ٥٦.

مجتمع معين ، إلى الربط بين الجانبين المعنوي والمادية لما يدور في الحياة اليومية للناس ، وإبراز الكيفية التي ينظم بها الأفراد والجماعات وسائل معيشتهم ، والمحافظة على بقائهم ؛ لهذا لا تفحص الأنثروبولوجيا نظاماً أو نشاطاً معيناً إلا في إطار ترابطه وصلاته بالنظم الأخرى . وبالتالي أصبحت الدراسة الحقلية التي تقوم على الاتصال المباشر والمكثف بمجتمع الدراسة سمة أو ميزة أساسية في تقاليد العمل الأنثروبولوجي . ولعل من السمات أو الخصائص الأخرى التي تنفرد بها الأنثروبولوجيا هي الأخذ أيضاً بمنهج المقارنة الموسعة ، وهي في ذلك تختلف عن العلوم الاجتماعية والإنسانية الأخرى في أنها تسعى في تعميماتها إلى مقارنة النظم أو أوجه النشاط الإنساني - موضع البحث - عبر الأماكن وعبر الأزمنة . ولقد استفاد الأنثروبولوجيون في تعميق هذا النوع من المقارنة ، مما حدث من تطوير لوسائل توثيق المادة وتحليلها باستخدام أدوات التكنولوجيا المتقدمة .

واستناداً إلى ذلك فإن كلمة (أنثروبولوجيا) هي اشتقاق لغوي من أصل يوناني إغريقي تتألف من مقطعين (إنثروبوس) أي الإنسان و (لوجوس) أي العلم أو الدراسة . أي أن المعنى اللفظي للاصطلاح هو علم الإنسان . «ولقد استطاع العلامة الإنكليزي (هادون) أن يتتبع تاريخ استخدام هذا الاصطلاح إلى الحضارتين الإغريقية والرومانية ، فقد لاحظ أن الفيلسوف الكبير (أرسطو) قد استخدم هذا الاصطلاح للإشارة إلى «الشخص الذي يتحدث عن نفسه» ، ومن الواضح أن هذا المعنى يختلف تماماً عن المعنى الحديث للاصطلاح وفي عام (١٥٠١) ظهر هذا الاصطلاح كعنوان لكتاب

للمفكر الذي تكلم فيه عن خصائص جسم الإنسان من الناحية التشريحية . . »^(١) وانطلاقاً من ذلك « يهتم هذا العلم بالجنس البشري فيدرس أجسام أفرادهم ومجتمعاتهم ووسائل الاتصال فيما بينهم وكل ما ينتجونه سواء أكان مادة أم علاقة اجتماعية أم فكرة . وقد اهتم الأنثربولوجيون الأوائل بدراسة مظاهر الحياة الاجتماعية للمجتمعات البدائية، إذ اجتذبتهم غرابة تلك المجتمعات واختلافها عن المجتمعات الأخرى بخاصة المجتمعات الأوروبية، ويكمن تلخيص الأسباب التي دفعت الرعيل الأول من الأنثربولوجيين إلى ذلك الاتجاه فيما يلي :

١- كان أهم ما يبحثون عنه هو اللغات والعادات الغريبة التي تختلف وتتناقض مع لغات مجتمعاتهم الأوروبية وعادات هذه المجتمعات، وأصبح هذا تقليداً على مر السنين .

٢- يتميز علم الإنسان بالنظرة الكلية الشاملة أي المنهج الكلي التكاملي الذي يهدف إلى تحديد جميع عناصر الثقافة في مجتمع ما (. . .)^(١) .

(١) د. عاطف وصفي، الأنثربولوجيا الاجتماعية، دار المعارف بمصر، ١٩٧٧، ص ٧ .

(٢) المصدر السابق، ص ٨ .

obeikandi.com

المبحث الثاني

في التكوين والانتشار

أولاً: مصادر التكوين^(١).

أ- الأنثروبولوجيا والدراسات الوصفية للرحالة:

تطورت الأنثروبولوجيا مثل أي علم من العلوم الاجتماعية الأخرى في جانبين على الأقل:

الأول: يرتبط بالاستخدامات الاجتماعية والسياسية لها.

الثاني: بالخصائص والمفاهيم وطرائق البحث التي تتسم بها.

ومع أن التطور في المجالين السابقين يحمل عناصر التأثير والتأثير المتبادلين إلا أنه لا بد من التمييز بينهما عند البحث في تطور الأنثروبولوجيا، وسوف نعمل لدراسة التطور التاريخي الذي يشمل الجانبين معاً لنوضح أن العلوم في ارتقائها وتطورها تقع ضمن منظومة علمية تتشابك فيها المعارف والفلسفات، كما أن نتائج التطبيق ترتبط بالتوجهات السياسية، أما عناصر التحقق والاستكشاف والتنبؤ فإنها من خصائص البحث العلمي.

وقد اعتمدت الأصول الأولى للأنثروبولوجيا على المستويين النظري والمنهجي في دراسة ما خلّفته الشعوب القديمة من حكايات شعبية وأساطير

(١) اعتمدنا في هذه الفقرة على كتاب د. صفوح الأخرس، الأنثروبولوجيا الاجتماعية، مطبعة

«أبو بكر الرازي»، دمشق ١٩٨٣-١٩٨٤، ص ١١-١٢ (مع الإشارة إلى إضافات قدمناها في

غير مكان).

معقدة على الوصف والتحليل بقصد استنباط أنماط من الإنجازات الحضارية الهامة، والتي تشكل منعطفات في تاريخ تطور الإنسان منذ وجوده على سطح الأرض ومغامراته بحثاً عن الاستقرار، ومن تلك المنعطفات الأساسية التي حصلت عليها الأنثروبولوجيا على طريق الإنجازات الحضارية الهامة للإنسان اكتشاف النار واختراع بعض الأدوات والفنون المفيدة أو صناعتها، أو البدايات الأولى للتقانات المختلفة المستخدمة في إنتاج الطعام.

وبدأت منذ عصر الاكتشافات الكبرى في القرن الخامس عشر الميلادي تقريباً تتراكم كمية من المعلومات الأنثروبولوجية تجمعت على يد الرحالة والمبشرين والجنود، خلفت تجميعاً ضخماً للمادة، امتزج فيها الوصف بالتراث الشعبي وحكايات العجائز والمسنين، حيث كتب المؤرخون عن خبراتهم الشخصية والأقاصيص والأساطير التي صادفوها أو سمعوها خلال رحلاتهم. وهكذا فإن مصادر المعلومات كانت مبنية على التحليلات الصورية وما تتناقله الأفكار والألسن؛ لهذا تعرضت جوانب كثيرة من هذه المعلومات للتشويه؛ ذلك أن معظم الرحالة كانوا ينظرون إلى الشعوب والحضارات الأجنبية من خلال مناظر ميولهم الثقافية المتعصبة^(١).

وأخذ اصطلاح الأنثروبولوجيا ينتشر تدريجياً مع بداية القرن السادس عشر باعتماده على نظرة أكثر علمية وجدية من السابق، حيث تجلّى هذا

(١) د. محمد الجوهري، الأنثروبولوجيا أسس نظرية وتطبيقات عملية، سلسلة علم الاجتماع المعاصر الكتاب الثالث والثلاثون، الطبعة الأولى، ١٩٨٠، ص (٤١-٤٢).

عند العلامة الإنكليزي (هادون) الذي يعد أول من تتبع تاريخ استخدام مصطلح الأنثروبولوجيا ليعود به إلى الحضارة الإغريقية، فقد رأى أن الفيلسوف (أرسطو) قد استخدم هذا الاصطلاح للإشارة إلى «الشخص الذي يتحدث عن نفسه»، وظهر أيضاً هذا الاصطلاح كعنوان كتاب مستقل في عام (١٥٠١) للمفكر (هانت) تناول فيه دراسة خصائص جسم الإنسان من الناحية التشريحية^(١) (كما أشرنا سابقاً). كما ظهر اصطلاح الأنثروبولوجيا في اللغة الإنكليزية عام (١٦٥٥) في كتاب يبحث عن الطبيعة البشرية. وقد انقسمت أبحاث هذا الكتاب إلى قسمين رئيسيين: يرتبط القسم الأول بعلم التشريح، حيث لا زال هذا العلم حتى الوقت الحاضر يشكل دعامة رئيسة للأنثروبولوجيا بشكل عام والأنثروبولوجيا الطبيعية بشكل خاص، أما القسم الآخر فيرتبط بعلم النفس.

ولعل هذا التزاوج بين علم النفس وعلم التشريح في نطاق المفهوم القديم للأنثروبولوجيا يشير إلى ترابط الروح مع الجسد في نطاق الحياة والموت عند الأقدمين، حيث كان من غير المقبول على ما يبدو أن تبحث بخصائص الإنسان الفيزيولوجية دون أن تستكمل بقسم عن خصائصه الروحية المرتبطة في ذهن الأوائل بعلم النفس.

وقد أخذ اصطلاح الأنثروبولوجيا ينتشر تدريجياً ويكتسب أبعاده العلمية الواضحة بتخطيه نطاق الروح والجسد إلى الأصول الاجتماعية

(١) الدكتور عاطف وصفي، الأنثروبولوجيا الاجتماعية، دار المعارف بمصر، الطبعة الأولى،

والحضارية والثقافة والبيولوجية المكونة لسلوك الإنسان وعاداته وتقاليده ، حيث تميز في القرن الثامن عشر بالتوجه نحو البناء الخاص المتميز للمجتمع ، وقد كانت دراسات الفيلسوف الفرنسي (مونتسكيو) في كتابه «روح القوانين» منطلقاً للتمييز بين البناء الاجتماعي ونظام القيم ، ومنطلقاً للتوجه نحو الأصول التاريخية للأنساق والبُنى الاجتماعية ، فاتجه علماء الأنثروبولوجيا نحو المجتمعات البدائية لأنهم رأوا فيها مصدراً ثميناً لجمع المعلومات عن مراحل تاريخية يفترض أن مجتمعات معاصرة مرت بها .

«والواقع أن الباحث في تراجم علماء المسلمين العرب يقف على العديد من الأسماء العربية التي بلغ أصحابها القمة في شق الأقطار والتجوال في الفيافي والقفار وطلب العلم ونشره ومجالسة أعلامه من ناحية دراسة الأقاليم وعادات الأمم وثقافتها من ناحية أخرى»^(١) ، ولعل من أهم هؤلاء الرحالة العرب الذين أسهموا بدور رائد في تكوين المادة الأنثربولوجية الرحالة العربي ابن خلدون (عبدالرحمن ولي الدين بن خلدون) وما تتضمنه / مقدمة ابن خلدون / هذا الكتاب الشهير أكبر دليل على ذلك .

والرحالة العربي المقدسي (أبو عبدالله محمد بن أحمد المقدسي المعروف بالبشاري) الذي تعرض لدراسة النظم الاجتماعية والقراية

(١) د. زكي محمد إسماعيل : «ملاحم الدراسات الأنثروبولوجية في تراث المفكرين المسلمين» ، مجلة العلوم الاجتماعية ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

والأيكولوجية «أي التي تهتم بعلاقة الإنسان بالبيئة»، وذلك من خلال الوصف الأثنوغرافي إلى مرحلة التحليل المنهجي (الأثنولوجي).

ولعل في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» المادة الأثروبولوجية التي دعمت مصدر تكوين علم الإنسان فمثلاً يقول: «وما تمّ لي جمعه إلا بعد جولاتي في البلدان، ودخولي أقاليم الإسلام، ولقائي العلماء، وخدمتي الملوك، ومجالستي القضاة، ودرس علم الفقهاء، واختلافي إلى الأدباء والقراء وكتبة الحديث، ومخالطة الزهاد والمتفوقين، وحضوري مجالس القصاص والمذكورين، مع لزوم التجارة في كل بلد، والمعاشرة مع كل أحد، والتفطن في هذه الأسباب بفهم قوي حتى عرفتها، ومساحة الأقاليم بالفراخ حتى أتقتها، ودوراتي على التخوم حتى حررتها، وتنقلي إلى الأجناد حتى عرفتها، وتفتيشي عن المذاهب حتى علمتها، وتفطني في الألسن والألوان حتى رتبته، وبحثي عن الأخرجة حتى أحصيتها»^(١).

ويعد هذا العمل عملاً أنثروبولوجياً بحثاً، وإسهاماً معرفياً واضحاً من ضمن مصادر الدراسات الوصفية للرحالة.

وهذا البيروني (أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني) وهو أحد الرحالة الذين قدموا بشكل واضح للمادة الأثروبولوجية. ولعل كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة للعقل أو مردولة) يشير بوضوح إلى مفاهيم الأثروبولوجيا والأثنوغرافيا والأثنولوجيا، حيث يحلل البناء

(١) المقدسي: «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» الطبعة الثانية، ١٩٠٩ ص ٢.

الاجتماعي للهند وأنظمة هذا البناء المختلفة (الدينية والقضائية والأسرية والطبقية وغيرها). والأنماط الثقافية المتعددة، وهو لا يقف عند الوصف بل يقارن ويحلل ويستنتج ويعمم. . إلخ.

وبشكل عام فقد جمع البيروني عن الهند في تحقيقه كل ما يهم الأنثروبولوجي أن يقف عنده من شتى النظم الاجتماعية والسمات الثقافية في البحث الأنثروبولوجي الميداني.

ومن الرحالة العرب أيضاً ابن جبير (أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي الشاطبي) الذي جاء كتابه سجلاً شاملاً لكل ما شاهد وعاین من عادات وقيم وثقافات البلدان التي زارها وطوف بها وهو يسجل ما حدث في رحلته يوماً بعد يوم، ولا يترك شاردة أو واردة مما رأى وعاین إلا كتب عنها وسجلها^(١) ونقدها وحللها.

وكم نذكر من الرحالة العرب أمثال ابن بطوطة (أبو عبدالله بن إبراهيم اللواتي) نسبة إلى إحدى قبائل البربر وهو المعروف بابن بطوطة والملقب شمس الدين. وقد أضاف للمادة الأنثروبولوجية من خلال كتابه «رحلة ابن بطوطة». والمسعودي (أبو الحسين علي بن الحسين المسعودي الشافعي) وكتابه (مروج الذهب ومعادن الجوهر).

إذن تعد الدراسات الوصفية للرحالة العرب من أهم المصادر المعرفية لعلم الإنسان، والتي بمجملها - أي الدراسات الوصفية التي قدموها عبر

(١) طبعة دار التراث، بيروت، ١٩٦٨م.

رحلاتهم - تركّز على وصف عادات وأخلاق وتقاليد وملابس ومساكن الشعوب والنظم الاجتماعية والأنماط الثقافية التي ميزت هذه الشعوب والمجتمعات التي جابوها في ترحالهم .

ب- الأنثروبولوجيا والدراسات الجيولوجية؛

بدأت دراسات متعددة في أوروبا خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر حول البقايا العظمية التي عثر عليها في كثير من الأماكن في القارة الأوربية ، وحول أدوات إشعال النار عن طريق الاحتكاك ، وقد اعتمدت مثل هذه الدراسات على التقدم الذي أحرزته الدراسات الجيولوجية وعلم الحفريات القديمة ، ويعد العالم (لينو) أول من حاول أن يحصر ويصنف الأجناس البشرية المختلفة ، وكان ذلك نحو عام (١٧٥٠) .

في حين كانت البدايات الأولى لتقرير وجود الإنسان في أوروبا خلال العصر الجليدي كانت على يد العالم الفرنسي (بوشيه دي بيرت) ، حيث عثر في عام (١٨٣٠) على أدوات حجرية في وادي (سوم) ، ونشر نتائج دراساته واكتشافاته في مجموعة من الدراسات ظهرت بين عام (١٨٤٧) حتى (١٨٦٤) ، وعرض (سيرجون ليبوك) في عام (١٨٦٥) دراسة لخص فيها كل المادة وكل المعلومات الموجودة عن ثقافات العصر الحجري ، وأوضح فيها لأول مرة الفرق بين ثقافات العصر الحجري القديم وثقافات العصر الحجري الحديث .

وفي الفترة نفسها تقريباً عثر على أول دليل مباشر على وجود الإنسان

القديم في ألمانيا سنة (١٨٦٥)، وهو الاكتشاف الذي عرف باسم إنسان (نياندرتال) نسبة إلى القرية التي عثر عليه فيها، وهذا كان رَكِيزَةً للأنثروبولوجيا، فقد كانت بداية بحوث علمي الآثار والأنثروبولوجيا الطبيعية^(١).

ج- الأنثروبولوجيا ودراسات شعوب ما قبل التاريخ والشعوب البدائية؛

تراكمت معلومات كثيرة، جمعت من شعوب متعددة في القرن التاسع عشر، حيث عرفت الأنثروبولوجيا طفرة جديدة تعد في الواقع بداية هذا العلم، ويمكن تحديد ذلك ما بين عامي (١٨٦٠-١٨٨٠) حين ظهرت معظم مؤلفات المدرسة التطورية ومنها «حق الأمومة» (لباخ أوفن) و«القانون القديم» (لماين) عام (١٨٦١). كما ظهر عام (١٨٦٥) كتاب (تايلور) بعنوان «أبحاث في التاريخ المبكر للجنس البشري» وقد أتبعه عام (١٨٧١) بكتابه «المجتمع البدائي»، هذا إلى جانب كتاب (مورغان) عن «نظم القرابة» عام (١٨٦٩) وكتابه عن «المجتمع القديم» عام (١٨٧٧).

وقد حدد علماء هذه المرحلة للأنثروبولوجيا منحى علمياً يهتم بدراسة شعوب ما قبل التاريخ، ودراسة الشعوب البدائية المعاصرة، وتجلّى هذا في دراستهم لحضارة المجتمعات قيد الدراسة، وما يتضمنه ذلك من دراسة للعادات والتقاليد واللغات المرتبطة بها. كما يبدو ذلك في كتاب (تايلور) «الثقافة البدائية» وكتاب «المجتمع القديم» لمورغان.

(١) د. محمد الجوهري، مرجع سابق، ص (٤٣).

ولعل جوهر الاهتمام في عملية فهم المجتمعات البدائية نابع في اعتقادنا عن عدة مسائل رئيسة، ترتبط المسألة الأولى بما ذكر عن استخدامات الأنثروبولوجيا من قبل المستعمرين لتطوير الشعوب المستعمرة لحكمهم وبخاصة في مرحلة الاستعمار القديم، حتى بات ذلك الاستخدام سمةً من سمات التعريف بالأنثروبولوجيا. وتتعلق المسألة الثانية، التي تفسر اهتمام علماء الأنثروبولوجيا الأوائل بدراسة المجتمعات البدائية بما تتصف به تلك المجتمعات من سمات رئيسة تشكل مجالاً خصباً للأنثروبولوجي يربط فيه بين أصل الإنسان وحاضره، من خلال دراسة المجتمعات البدائية وتطورها إلى المجتمعات المعاصرة مروراً بالمجتمعات شبه البدائية.

أي من خلال التعرف على الأصول الأولى للمجتمعات الإنسانية، إضافة إلى ذلك فإن امتحان الافتراضات النظرية التي سیرت علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية في المرحلة التقليدية كان يتطلب دراسة مجتمعات صغيرة الحجم، والمجتمعات البدائية كما هو معلوم مجتمعات ترتبط بالتكون المبني على رباط الدم وأسلوب معين في الإنتاج الاقتصادي يتراوح من مرحلة قطف الثمار والصيد والرعي إلى مرحلة الزراعة. والأفراد في هذه المجتمعات يتدربون على قيم الجماعة ويتمسكون بها فتذوب شخصية الفرد في شخصية الجماعة، ويغدو الفرد والجماعة في وحدة متماثلة، يعبر الفرد عن نفسه بلفظ (نحن) مشيراً بذلك إلى تفاعله مع الجماعة، وإلى تعريف نفسه بقيمها ومثلها العليا. ويكون التعبير عن قيم الجماعة بشكل ردود أفعال آلية لا تفكير فيها، حيث معايير الجماعة هي

التي تؤثر في سلوك الفرد وآليته، كما أن الأفراد لا يمكن لهم أن يغيروا من وضعهم الاجتماعي شيئاً كونه موروثاً في المجتمع، فالأفراد يؤدون أدواراً متشابهة ويخضعون لعوامل واحدة في حياتهم العملية؛ لأن الكثافة السكانية قليلة وتقسيم العمل أو توزيعه بدائي وضعيف، أما العلاقات والأدوار الاجتماعية فتحدد حسب النوع (ذكوراً - إناثاً) والسن (أطفالاً - شباباً - كهولاً - شيوخاً) والمراكز في النظام العائلي (آباء - أمهات - أبناء - بنات - أعماماً - عمات - أخوالاً) . . . إلخ، كما تقوم علميات الضبط الاجتماعي على أساس التقليد؛ حيث يكون التعبير عنها عن طريق الكلام أو الإشارات أو أنماط متفق عليها.

أما النظام السياسي فهو بسيط ومحدود، وقد تفتقر إلى وجوده بعض المجتمعات البدائية التي يسود فيها اعتقاد قوى الأشياء المقدسة، وينشأ الشعور بالخطأ والصواب من جذور لا شعورية جماعية؛ لذلك يكون شعوراً قوياً وجبرياً وغير خاضع لمنظور الفرد.

وهكذا يتمثل النظام الأساسي الذي يربط أفراد المجتمع معاً بالنظام الأخلاقي القائم على أساس مفاهيم أخلاقية خاصة بالواجب والخير والقوى والغيبية ومصصلحة الجماعة، وذلك حسب كل مجتمع، وتكون هذه المفاهيم بالنسبة للأفراد أقوى من المفاهيم القائمة على أساس المصلحة الشخصية والمادية، والمعرفة التي يتعلمها الأفراد من الحياة العملية والتجارب اليومية التي يعيدونها، فالمجتمع البدائي بسيط بأدواته من الناحية التكنولوجية، إلا أنه معقد في نظمه الاجتماعية وفلسفاته.

هذا وقد تجلت هذه الدراسات عند أنصار المدرسة التطورية التي رأت أن التقدم يتبلور من خلال الانتقال من المرحلة الحيوانية إلى المرحلة البدائية، من هذه إلى البربرية، ومنها إلى التمدن، ويتضح هذا من تأكيد كلٍّ من (مورغان) و(تايلور) بأن الجنس البشري قد عرف شكلاً موحداً في نشأته، وتجربته وتقدمه، حيث يعدُّ (مورغان) التطور بمثابة خطٍّ مستقيم، فالبدائية حالة سبقت البربرية، وهذه سابقة على التمدن، وهكذا يتبين لنا سبب افتراض بعض الأنثروبولوجيين الأوائل أن الاهتمام بالمجتمعات البدائية هو أهم ما يميز الأنثروبولوجيا عن العلوم الأخرى^(١).

والجدير بالذكر أنه لم تزل توجد بعض المجتمعات البدائية في أفريقيا، وأندونيسيا، وفي نطاق ضيق من إستراليا، باقية على ما هي عليه بسبب العزلة وسوء الأحوال المناخية والبيئية والاستعمار، إلا أن هذه المجتمعات في طريقها للزوال بسبب عوامل التقدم الذاتي لها، وتحولها إلى مجتمعات متمدنة، كما عمد الاستعمار الاستيطاني بشكله القديم إلى قتل معظم أفراد تلك المجتمعات، ليفسح المجال أمام عمليات استيطان جديد^(٢). فقضى على حضارة القبائل البدائية وسيطر عليها، لتعيش حياة تختلف تماماً عن حياتها السابقة، وهذا ما يحدث في جنوب أفريقيا وروديسيا، فإن أغلبية الأفريقيين يعيشون حياة يسودها الجهل والفقر والمرض، حيث يقومون بالأعمال اليدوية المرهقة، بينما يعيش البيض في يسرٍ ورخاء.

(١) د. جيرار لكلرك، ترجمة د. جورج كتورة، «الأنثروبولوجيا والاستعمار» معهد الإنماء العربي،

كتاب الفكر العربي (٢) الطبعة الأولى، بيروت، ص (٢٤-٢٥).

(٢) د. عاطف وصفي، الأنثروبولوجيا الاجتماعية، مرجع سابق، ص ٦٥.

وهكذا اقتصر اهتمام علماء الأنثروبولوجيا التقليدية على تحليل الأصول التاريخية لبعض المجتمعات البدائية ورصد اتجاه التغيرات التي تحدث فيها بقصد الوصول إلى فهم لواقع المجتمعات الأوروبية، وقد كان الافتراض النظري الذي سير تلك الدراسات أن مراحل تطور المجتمعات الإنسانية واحدة، وبالتالي فإنه في حال تعذر دراسة الأصول التاريخية لمجتمع ما فإنه من الممكن دراسة مجتمعات أخرى في مرحلة تطور أدنى من أجل الوصول إلى جذور المجتمعات المعاصرة.

غير أن هذا الافتراض النظري بدأ يتضاءل في الوقت الراهن؛ نظراً لظهور دراسات أثبتت أن أنساق تطور المجتمعات لا تتم عادة بشكل واحد. وعلى هذا فإن دراسة المجتمعات البدائية في أفريقيا قد لا يؤدي إلى فهم واقع المجتمعات الأوروبية المعاصرة، نظراً لتشابك آلية تطور المجتمعات بفعل التولد الذاتي مع التغيرات التي تحدث في المنظومة الإنسانية وبخاصة بسبب انتصار الحضارات وتبادل المعلومات وسيطرة أنماط إنتاجية عالمية على كثير من الأسواق المحلية.

د- الأنثروبولوجيا والحملات الاستعمارية بشكلها القديم والحديث؛

استناداً لما سبق، حاول كثير من الأنثروبولوجيين تبرير الحملات الاستعمارية والتبشيرية التي اجتاحت الشعوب البدائية؛ حجبتهم في ذلك نقل هذه الشعوب إلى مرحلة المدنية والتقدم (أي عقلنة ما يمتاز الاستعمار الحديث به من عنف ونهب) فهذا برأيهم شرعي وضروري وإنساني ومتميز

عن الاستعمار القديم؛ لأنه حدث يسوغه تفوق المجتمع العلمي بخاصة في مجال العلوم الاجتماعية. وهكذا زعم (لورا بوليه) أحد منظري الإمبريالية الفرنسية في نهاية القرن التاسع عشر حين درس في كتابه «الاستعمار لدى الشعوب الحديثة»، لا «المظهر الجمالي أو البطولي في الاستعمار بل المظهر الاجتماعي التجريبي» ومن هنا رأى ضرورة تحرك كل الإمكانيات التاريخية والاجتماعية والديموغرافية إلى جانب مصادر الاقتصاد السياسي وإمكاناته.

ويتبلور تبرير الأنثروبولوجيا للاستعمار عند (ليوك) الذي يؤكد على أهمية دراسة الحياة البدائية للإمبراطورية البريطانية التي يشكل أبنائها (برأيه) أعلى درجات المدنية.

ومن خلال ما يقوله (هونتز) أحد العاملين الميدانيين نستنتج أن غاية دراستهم تتركز حول الدراسة المعمقة لتاريخ الشعوب البدائية لمعرفة عاداتها وحاجاتها ونقاط ضعفها لتتوفر لهم من خلال ذلك قاعدة للإرشادات السياسية والسيطرة الإدارية^(١).

وانطلاقاً من ذلك اتجهت الدراسات الأنثروبولوجية في القرن التاسع عشر نحو دراسة النظم والبنى الاجتماعية من منظور تطوري، مستهدفةً البحث في جذور الماضي؛ لتبين المراحل التي مرَّ بها النظام الاجتماعي، وقد كان النسق العام لهذه الدراسات يشابه منحى الدراسات الأنثروبولوجية الطبيعية التي اهتمت بدراسة أصل الإنسان ومراحل تطوره ونشوءه.

(١) المرجع السابق، ص (٣٤).

وقد كان الافتراض الأساسي (الذي سير تلك البحوث في تلك المرحلة) أن كل مرحلة تاريخية اتّبعَت في أشكال تطورها اتجاهات متباينة ترتبط بتراث الماضي من جهة، وبالواقع الراهن من جهة أخرى.

وقد كان لفكرة الانتشار الحضاري الأثر الكبير في نقلة الدراسات الأنثروبولوجية إلى مرحلة تدرس النظام الاجتماعي على أنه نظام إنساني يمكن أن ينشأ في غير المكان الذي ولد فيه، فقد تولد بعض الأنظمة الاجتماعية والأطر الحضارية في مكان وتنتشر إلى مكان آخر حيث تتفاعل مع معطيات المجتمع، وتولّد (بالتالي) نسقاً جديداً من البنى الاجتماعية والعلاقات التي تتميز عما كانت عليه في مكان ولادتها، وهكذا كان لابد من التمييز بين مفاهيم ثلاثة في الأنثروبولوجيا ترتبط بنشأة النظام وتطوره وانتشاره.

وقد اتجهت البحوث الأنثروبولوجية في القرن العشرين نحو إيجاد القاعدة الاقتصادية والاجتماعية للاستعمار الجديد، حيث تجلّى هذا الأمر بتحديث بعض الجوانب في البنى الاقتصادية والاجتماعية بما يعمل على استيعاب المعطيات الحضارية والتكنولوجية للمجتمع الغربي، فكان لابد من تحديث بعض الأنظمة القضائية والإدارية في كثير من المجتمعات الأفريقية ومراجعتها بما يحقق الانسجام والتواءم بين تلك الأنظمة، والاستطالات الاستعمارية للمجتمع الرأسمالي. ولعل أبرز مثال على ذلك اللجنة التي أوجدها حاكم أفريقيا الغربية للدراسات التاريخية والعلمية لأفريقيا الغربية الفرنسية، فقد قدمت تلك اللجنة معلومات

مفصلةً عن أنظمة في القانون والإدارة المدنية لمجتمعات أوروبية وأفريقية استخدمت في تحديث أنظمة في القضاء في مناطق متعددة في أفريقيا، وقد سهلت تلك العمليات الأعمال التجارية والاقتصادية والاجتماعية للشركات الرأسمالية الاحتكارية^(١).

وقد كان لانتشار المدرسة الوظيفية في نطاق الدراسات الاجتماعية الأثر البارز في تحقيق الانسجام بين الشروط الجديدة للمجتمعات النامية والمتطلبات الأساسية للمجتمعات الغربية حين حددت كتابات (مالينوفسكي) الشروط الجديدة للأنثروبولوجيا بالمعنى المعاصر للكلمة، وذلك ما بين (١٩٠٥ - ١٩٢٠) إذ لم يعد الأنثروبولوجيا لغةً مبهمَةً أو غيرَ أساسية لا علاقة لها بالأيديولوجية الاستعمارية، بل على العكس لقد عدها شكلاً مميزاً من أشكال الثقافة الغربية، بخاصة حين تتصدى نظرياً للثقافات الأخرى، وبهذا تكمن المواجهة مع حضارته الخاصة. وقد فضح (في مقال له بعنوان: أفريقيا ١٩٣٠) الصفة غير الإنسانية للتقدم التقني الذي يحول الإنسان إلى آلة، فلم تعد الأنثروبولوجيا الحارس الأعمى للمدنية، بل حارس الحياة الأصلية إزاء إحياءات المجتمع الصناعي. هذا وقد غدت دراسة أشكال الحياة الإنسانية تشكل (برأيه) أحد ملاجئ الهرب من سجن الثقافة الآلي، فالأنثروبولوجيا بالنسبة له شكلٌ من أشكال الهرب الرومنطقي بعيداً عن ثقافته المقبولة لدى مجتمعه، وبالنسبة للفترة السابقة

(١) انظر المرجع السابق، لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع والجهود التي تمت لنقل المعلومات حول أنظمة القضاء السوداني، ص (٤١).

لم تكن الدراسات الأنثروبولوجية تتعدى دراسة المجتمعات البدائية غير المتمدنة، وذلك بهدف إيجاد الطريقة التي ستتكيف بها هذه المجتمعات مع العالم الحديث، وقد تجلّى هذا كما رأينا في المدرسة التطورية، أما بالنسبة (لالمينوفسكي) فالأمر أبعد من ذلك فهو يُعدُّ الأنثروبولوجيا ثمرة لقاء الثقافة الغربية مع ثقافات أخرى، لا بالمعنى الذي عفى عليه الزمن. فالإعجاب الأولي (الذي شعر به البريطاني أمام شعوب الهند) قبل تحوله بدافع الضرورات الاستعمارية إلى احتقار، وقبل أن تتحول الفروقات إلى سياسة عرقية، هذا الإعجاب كان الشرط الحقيقي لقيام الأنثروبولوجيا، فهي وليدة الآثار الأصلية. وهو يعد الدراسات الأنثروبولوجية القديمة غير مقبولة ولا أصيلة حيث تعرّي الفروقات برأيه عن طبيعتها حين تضعها في إطارها؛ فتصفها بالغرابة، وتدخلها مفاهيم كلية شاملة مثل: (الطبيعية) و(الحيوانية) و(العقلية ما قبل المنطقية) . . إلخ. بدل أن تعتمد إلى مقارنات ضخمة، فعلى الأنثروبولوجيا (كما يقول) أن تعمل ميدانياً لتفهم المجتمع من الداخل.

إن هدم نظرية الانتقال من البسيط إلى المركب في كل مجال، ومن الأسفل إلى الأعلى على مستوى المجتمعات الإنسانية يعني في الوقت ذاته هدم أسس التعالي الغربي.

فإن تقدم مجتمع ما في المجال التّقني والاقتصادي لا يعني بالضرورة تقدّمه في المجال الاجتماعي والخلّقي^(١).

(١) المرجع السابق، ص (٥٣-٦٢).

هـ- الأنثروبولوجيا المعاصرة والتوجهات التنموية:

انطلقت الدراسات الأنثروبولوجية في النصف الثاني من القرن العشرين نحو دراسة النظم الاجتماعية كما هي في الوقت الراهن دون ضرورة البحث في أصولها التطورية أو انتشارها الحضاري، فقد اتجهت البحوث نحو تحديد خصائص النظام ووظائفه وأسلوب تفاعله وطريقة توافقه مع الأنظمة الاجتماعية الأخرى بما يؤدي إلى ديمومة النظام الاجتماعي واستمراره، وقد ترك نجاح المدرسة الوظيفية في مجال دراسات علم الحياة أثره الواضح في بعض الدراسات الاجتماعية وبخاصة الأنثروبولوجية.

وقد اتخذت البحوث الأنثروبولوجية المعاصرة طابعاً جديداً، بالإضافة إلى التوجه السابق لها، فاهتم بعض الباحثين بدراسة المجتمعات المتمدنة؛ كالأحياء السكنية في المدن الكبيرة والمجتمعات المحلية في القرى، فبذلت جهود كبيرة من قبل علماء الأنثروبولوجيا في كثير من الدول النامية لفهم آلية عمل التغيرات الاجتماعية التي تتم في القرى والمزارع والمجتمعات المحلية، وأسلوب انتقال المجتمعات من مراحل قطف الثمار والزراعة والصيد إلى أسلوب آخر في الحياة، يرتبط بالسدود والمصانع والمزارع الجماعية، وكان لهذا أكبر الأثر في دفع مسيرة الأنثروبولوجيا في وجهة تنموية تدرس مسائل التكيف الحضاري والمشكلات التي ترتبط بقضايا التنمية وتحول المجتمعات بشكل عام، وقد توافق ذلك الاتجاه التنموي المعاصر مع جهود كثير من المنظمات الدولية

التي رأت أن تخلف بعض القطاعات في المجتمعات المتخلفة يؤثر بالضرورة في مسار التقدم في المجتمعات النامية والمتقدمة على حد سواء وبخاصة في نطاق الصحة والتعليم ، وما إلى ذلك ؛ فانتشار وباء الكوليرا في منطقة ما من العالم يهدد الوضع الصحي في أجزاء أخرى منه ؛ لذلك اتجهت المنظمات الدولية لدراسة الأوضاع الصحية في كثير من المجتمعات المتخلفة ؛ حفاظاً على الأوضاع الصحية في العالم أجمع ، وتحقيقاً للتقدم الصحي في المجتمعات المحلية .

وظهرت دراسات متخصصة بتحديد معالم حضارات المجتمعات المتقدمة ، كالمجتمع الأمريكي ، والروسي ، والصيني ، كما انصب اهتمام بحوث أخرى على دراسة عمليات الصراع والامتزاج بين الحضارات المتقدمة التي تتلاقى في حالات الهجرة أو الحروب ، كالدراسات التي بينت أوضاع المهاجرين اليابانيين الذين هاجروا إلى أمريكا وعاشوا في مجتمعات شبه مغلقة ، واحتفظوا فيها بلغاتهم الأصلية وعاداتهم وتقاليدهم .

وقد استطاعت الدراسات الأنثروبولوجية في بعض بلدان العالم الثالث أن تخرج من أسوار العلماء الأجانب وموظفي الحكومات الاستعمارية والإمبريالية . فالأنثروبولوجيا ترتبط بالفلسفة الاجتماعية العامة للعلم ، ومن خلال الالتزام بنتائج البحث تحررت من تاريخها القديم المرتبط بالاستعمار وتحولت إلى أداة في يد العلماء الوطنيين ، الذي امتلكوا ناصية البحث في هذا العلم ، وأخذوا يسخرون معرفتهم النامية الجديدة في خدمات عمليات التنمية لبلادهم .

ثانياً: مصادر الانتشار:

أما بالنسبة للمصادر التي أسهمت بطريق مباشر، أو غير مباشر في انتشار الأنثروبولوجيا ذلك العلم الجديد الذي يدرس الإنسان دراسة شمولية وتاريخية فنذكر: (١)

١- الجمعيات والمجالات العملية:

لعبت الجمعيات العلمية دوراً هاماً كمنتديات لبلورة الفكر الأنثروبولوجي ودفعه نحو التخصص المهني والاستقلالية. ففي هذه الجمعيات كان يجتمع رجال الفكر والسياسة وعلية القوم الذين استطاعوا بأموالهم تمويل كثير من البحوث، وتبني المشاريع العلمية والدراسات الأكاديمية، وقبل أن تقام جمعيات أنثروبولوجية متخصصة، كان المهتمون بالدراسات الأنثروبولوجية أعضاء عاديين في جمعيات ثقافية عامة، كما كان الحال (مثلاً) في الولايات المتحدة بالنسبة للجمعية الأمريكية للفلسفة. ويذكر مؤرخو الأنثروبولوجيا أن أول جمعية مهنية متخصصة وجهت جهودها إلى الدراسات الأنثروبولوجية قد أنشئت في باريس عام (١٨٠٠) تحت اسم جمعية «ملاحظو الإنسان» وهي الجمعية التي أنشأها مجموعة من المهتمين بالدراسات الإنسانية، بهدف القيام برحلات خارج أوروبا لاستطلاع موضوعات أنثروبولوجية عديدة وغيرها من الموضوعات عن الإنسان والحياة الاجتماعية للشعوب الأخرى؛ رغم أن هذه الجمعية لم

(١) كل ما يتعلق بهذه الفقرة من كتاب قصة الأنثروبولوجيا (بتصرف).

تستمر طويلاً، كما أن نتائج الرحلات لم تكن مثيرة للغاية، إلا أن أهميتها كانت في إبراز إمكان قيام جمعيات أكاديمية متخصصة في الأنثروبولوجيا خاصةً إذا كانت موضوعاتها قد بدأت تستحوذ على اهتمام الناس عامة في بلاد أوروبا الغربية، والولايات المتحدة (أيضاً).

ومرة أخرى نجد لباريس قصب السبق حين أنشأت «الجمعية الأنثولوجية» عام (١٨٣٩) وتكونت بعدها بثلاث سنوات (١٨٤٢) «الجمعية الأمريكية الأنثولوجية»، ثم أقامت بريطانيا في العام التالي جمعيتها الأنثولوجية، التي تحولت فيما بعد إلى «المعهد الملكي الأنثروبولوجي لبريطانيا العظمى وأيرلندا» ويعد هذا المعهد أكبر مدرسة للفكر الأنثروبولوجي في بريطانيا^(١). ويجدر التنويه إلى «رابطة تقدم العلوم»، التي أنشئت في بريطانيا عام (١٨٤٦)، ومثيلتها في أمريكا التي تكونت عام (١٨٥٢) قد أدتا دوراً هاماً في عرض القضايا والمسائل الأنثروبولوجية ومناقشتها، كما عززت الاتجاه القائل بإمكان قيام علم مستقل ومتخصص في تلك القضايا. ولم يقتصر الأمر على قيام جمعيات بفرنسا وإنجلترا وأمريكا فحسب بل نجد أن شعبية الأنثروبولوجيا قد عمت مدناً أخرى مثل: موسكو، ومدريد، وبرلين، وفيينا، وتكونت على أثر ذلك جمعيات أنثولوجية كثيرة بلغت نحو (٤٠) جمعية في عام (١٨٧٠)، بينما اختفى بعضها الآخر، أو عدل من تكوينه أو اسمه. وجدير بالذكر في هذا المقام أن الجمعية الأنثروبولوجية الأمريكية التي أنشئت عام (١٩٠٢)

(١) شاكر سليم، قاموس الأنثروبولوجيا، ص (٨٣٠).

لاتزال قائمة، وقد عقدت في عام (١٩٨٤) اجتماعها السنوي الثالث والثمانين بمدينة دينفر بولاية كولورادو.

وبصدد الدوريات العلمية فقد توالى ظهورها (خاصة) خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر في كل من أوروبا وأمريكا، نذكر على سبيل المثال لا الحصر المجلة الألمانية التي حررها (لازاروس واشبنهال) والتي صدرت عام (١٨٥٩)، وقد اتجهت بحوثها وجهة سلالية، ونفسية. وفي فرنسا أصدر (بول بروكا) «مجلة الأنثروبولوجيا» عام (١٨٧٢)، وكانت اهتماماتها الرئيسة تدور حول الأنثروبولوجيا الطبيعية (الفيزيائية). ومن فرنسا أيضاً صدرت في نهاية القرن التاسع عشر وعلى وجه التحديد عام (١٨٩٨)، «حولية علم الاجتماع» التي أصدرها (إميل دوركايم)، والتي تولى رئاسة تحريرها فيما بعد ابن أخته (مارسيل موس). وكانت هذه المجلة بمنزلة منبر ثقافي، ومنتدى علمي للحوار الشيق بين العلماء الفرنسيين، وغيرهم من الدول الأخرى حول القضايا الاجتماعية، والموضوعات الأثنولوجية، ومن إنجلترا نذكر مجلة الإنسان التي أصدرها ولا يزال المعهد الملكي الأثنولوجي (المشار إليه سابقاً). ومن الجدير بالذكر أن الجرائد اليومية، والمجلات الثقافية قد لعبت دوراً هاماً في إحاطة الناس (العاديين) علماً بما يجري من حوار علمي حول قضايا الإنسان، أو عن اكتشافات أثرية لماضيه أو كيانه العضوي؛ الأمر الذي خلق جواً من الرغبة في المزيد من المعرفة عن تلك الموضوعات، ولفت النظر إلى أهمية الدراسات الأثنولوجية، وكسب شعبية لها، ومهد لقبولها كعلم جديد.

ب- الحكومات والجامعات والمتاحف:

لعبت الحكومات دوراً هاماً جداً في التمهيد لبلورة الأنثروبولوجيا كعلم بقصد الاستفادة العلمية من أبحاثه، كما قامت الجامعات والمتاحف بالدور نفسه في إطار التطلعات الأكاديمية لهذا العلم الجديد وفي تعزيز كيانه المستقل، ولعل ما حدث في أمريكا يوضح أكثر من غيره أهمية دور الهيئات الإدارية والأكاديمية، فقد نظر الأنثروبولوجيون الأمريكيون، والأوروبيون على حد سواء إلى جماعات الهنود الحمر على أنها تمثل نماذج حية لمراحل حضارية سابقة يفترض أن يكون المجتمع الأوربي ذاته قد مرّ بها، وبالتالي فهي تقدم لهم حقلاً خصباً وميداناً عملياً للدراسات الحضارية، وما يتصل بها من نواح لغوية أو سلافية أو ثقافية في إطارها المادي أو المعنوي. فإلى جانب الجمعية الأنثولوجية الأمريكية التي أنشئت عام (١٨٤٣) - كما سبق أن أشرنا - تكونت مؤسسة سميسونيان الشهرية عام (١٨٤٦) بتدعيم من الحكومة لتعمل كمركز توثيقي للأبحاث العلمية كافة، ومن بينها الدراسات الأنثروبولوجية، وفي عام (١٨٨٣) مولت مؤسسة سميسونيان دراسة عن الثقافة واللغة بين سكان أمريكا الأصليين، حيث استخدم فيها الاستبيان كوسيلة لجمع المادة التي لم تقتصر على ما يتصل باللغة، وإنما تضمنت أيضاً بيانات عن الإسكان، والفن، والحرب، والطب، والأدب، والأدوات، وكل ما يتصل بالجانبين المادي والمعنوي للثقافة. وقد قام (جورج جيبز) الذي أشرف على الدراسة بإجراء دراسات مقارنة، كما أنه اهتم بتتبع النواحي الوراثية بين القبائل المتعددة، وقد

مولت المؤسسة أبحاثاً أخرى ذات صلة مباشرة بالدراسات اللغوية والثقافية بصفة عامة مثل : أبحاث جون باول في دراسته للغات الهنود الحمر عام (١٨٧٧).

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نجد أن الحكومة الأمريكية في سعيها نحو التعامل مع قبائل الهنود الحمر والعمل على استقرارها فيما أعد لها من مستوطنات قد أنشأت في عام (١٨٧٩) «مكتب الأنثولوجيا الأمريكية» بقصد الاستفادة من نتائج الأبحاث الأنثروبولوجية عن سكان أمريكا الأصليين في رسم السياسات الاستيطانية والإدارية لمجتمعات الهنود الحمر . ومن الجدير بالذكر أيضاً ، أن الأنثروبولوجيين الذين عملوا في هذا المكتب لم يتمكنوا من التوفيق بين تطلعاتهم الأكاديمية والرغبات العملية للإداريين في هذا المكتب الذي يتحتم عليهم تزويد أعضاء مجلس الكونجرس بالتقارير السريعة والبيانات المباشرة التي تساعد على رسم سياسة معينة ، وليس لتدعيم نظرية خاصة أو رفضها .

أما عن دور المتاحف فقد كان لها وظيفة هامة بالنسبة للدراسات الأركيولوجية والأنثروبولوجيا الطبيعية ، وعن دور الجامعات تكتب (ريجنار دارنيل) «أن البرامج الجامعية كانت بطيئة المنشأ ، ولعل أكثر تلك البرامج أهمية كان قد تبلور في جامعة هارفارد بإشراف (فرايدريك بوتنام) الذي ربط برنامجه بإقامة متحف بيبودي للأركيولوجيا والأنثولوجيا بأمريكا . ونجد أيضاً أن (فرانز بواز) ، (وكان أول من عين رئيساً لقسم الأنثروبولوجيا بجامعة كولومبيا عام ١٨٠٠) قد ربط برنامجه الأكاديمي

بالجامعة بمقتنيات متحف التاريخ الطبيعي ، إلا أن هذا لم يدم طويلاً واستقلت معظم البرامج الأكاديمية الجامعية عن المتاحف .

ومن الجدير بالذكر أنه في عام (١٨٨٧) أصبح (دانييل برينتون) أول أستاذ للأنثروبولوجيا في جامعة بنسلفانيا رغم أنه لم يكن أنثروبولوجياً متخصصاً . وينحصر إسهام (برينتون) في تعزيز الاتجاه نحو إنشاء علم متخصص لدراسة الإنسان في إطار شمولي ، كما أنه حافظ على شعبية هذا النوع من الدراسات في الدوائر الأكاديمية المتخصصة ، وبين المثقفين عامة . ومن الأمور التي كرس لها (برينتون) كتاباته التركيز على دراسة اللغة لفهم المراحل التي مرت بها الإنسانية قبل تاريخها المكتوب . وقد رأى أن لغات قبائل الهنود الحمر تمثل الحالة الأولى التي كانت عليها اللغات الأوروبية قبل تطورها . ويقول كذلك : إنه يتعين علينا أن ندرس جميع الشعوب والثقافات قبل أن نشرع في كتابة التاريخ الحضاري للإنسانية .

وإذا انتقلنا إلى أوروبا نجد أنه لم تبدأ قبل العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر بوادر الاستقلالية الأكاديمية للأنثروبولوجية ، وكذلك التخصصية المهنية ، وبخاصة في إطار تدريس الأنثروبولوجيا بالجامعات ، ومنح الألقاب العلمية . فمن بين مجموعة كبيرة من المستشرقين الغربيين ينظر (إيفانز بريتشارد) إلى (وليم روبرتسن سميث) على أنه أحد الشخصيات البارزة بينهم إن لم يكن أكثرهم تخصصاً في الاتجاه الأنثروبولوجي . ففي عام (١٨٨٣) تقلّد منصب أستاذية الدراسات العربية بجامعة كامبردج ، وطبق في تدريسه منظوراً أنثروبولوجياً لدراسة تقاليد الديانات السامية

وشعائرها، إلا أن أول كرسي لأستاذية الأنثروبولوجيا الاجتماعية يرجع إلى عام (١٨٨٤) في جامعة أكسفورد وقد شغله (إدوارد تايلور).

ج- الرحالة والمبشرون والإداريون:

شكلت هذه المجموعة مصدراً هاماً للمعلومات الوصفية عن المجتمعات البدائية خلال القرن التاسع عشر، الأمر الذي استفاد منه المفكرون والباحثون في تكوين نظرياتهم وتدعيمها بالأمثلة والأدلة. فقد استمرت كتابات الرحالة والمبشرين في تقديم وصف للتقاليد والعادات للشعوب والأقطار التي زاروها أو عاشوا بها بعض الوقت، وإن لم تخل تسجيلاتهم من التحيز الثقافي والانطباعات الشخصية. ومع ذلك وكما يذكر (د. أحمد أبو زيد) أنه كان هناك بعض الرحالة «الذين اتصفت بكتاباتهم بالجدية والأحكام الدقيقة، والبعد عن المغالاة، مثلما فعل (أندرو باتل) (مثلاً) عندما وصف سكان الكونجو، أو ما كتبه القسيس اليسوعي البرتغالي (جيروم لوبو) عن الأحباش في كتابه «رحلات بنكرتون» الذي ترجمه (دكتور جونسون) في أوائل القرن التاسع عشر إلى الإنجليزية، ويقول عنه: إنه أفلح بطريقته البسيطة الخالية من التكلف في أن يصف الأشياء كما رآها، وأن يصور الطبيعة من واقع الحياة ذاتها، كما أنه يعتمد على حواسه وليس على مخيلته. بل إن بعض هؤلاء الرحالة والمبشرين كان يعتمد كثيراً على المقارنات بين ثقافات الشعوب البدائية، والثقافات والحضارات القديمة العريقة، مثلما فعل الأب (لافيتو) في

مقارنته بين عقائد وعادات بعض قبائل الهنود الحمر من ناحية ، وأهالي إسبرطة وكريت من الناحية الأخرى . أو مثلما فعل الرحالة الفرنسي (دولاكريكانيير) في محاولته (توضيح) أوجه الشبه بين عادات الهنود والتقاليد اليونانية والرومانية ؛ وذلك بغية الوصول إلى فهم أفضل للأشعار المقدسة والكتاب الكلاسيكيين .

وإلى جانب هذه الجدية والموضوعية - إلى حد ما - في بعض كتابات الرحالة والمبشرين خلال القرن التاسع عشر ، يلفت (جان بواريه) نظرنا إلى أن بعض ما كتبه الرحالة والمبشرون قد تم في إطار اتباعهم إرشادات منهجية معينة حول محتوى المادة وطريقة جمعها . وذكر أن عالم الطبيعة (وليم إدارد) ، مؤسس الجمعية الأثنولوجية (المشار إليها سابقاً) أعد واحداً من أهم الاستبيانات الأثنولوجية وصاغه كمرشد لجمع البيانات ؛ ولذلك حمل اسم (مرشد عام للرحالة) . ويذكر (بواريه) عدة أسماء وأعمال لرحالة يصفهم بأنهم ملاحظون جيدون ورجال بحث صابرون ، وأنهم قدموا دراسات أثنوجرافية تستحق الإعجاب في المنهج والعرض . ويذكر (بواريه) أن من بين هؤلاء ، الألماني (كلاپورت) الذي نشر عام (١٨١٢) وصفه عن «العلاقات بين السلالات القوقازية والجورجية نسبة إلى جورجيا بالاتحاد السوفييتي» ، وكذلك الرحالة السويسري (لويس بوركهارت) الذي كتب عن رحلاته في سورية وفزان والوطن العربي ، والتي استغرقت نحو عشر سنوات من عام ١٨١٩ .

وفي هذا الصدد ، يذكر (بواريه) نقطة أخرى جديرة بالاهتمام وهي :

أن الأثنولوجيا (في القرن التاسع عشر) قد تقدمت عن طريق الارتباط الوثيق بين ما يقدمه الرحالة من معلومات وما يصل إليه المفكرون أو الفلاسفة من نظريات . وكما كانت ملاحظات الرحالة تعد مصدراً قيماً للمعرفة كانت المعلومات الواردة من المبشرين والحكام الإداريين بالمستعمرات لها أهميتها الكبيرة أيضاً . وفي إطار ذلك الارتباط المشار إليه آنفاً بين «المادة الحقلية» و«النظريات» - إذا صح التعبير - يذكر (إيفانز - بريتشارد) النظريات الأنثروبولوجية قد أثرت تأثيراً واضحاً في كتابات الرحالة والمبشرين والإداريين على حد سواء ، وإن اختلف نوع التأثير باختلاف الكاتب . ويقول أيضاً إنه «لم يكن هؤلاء الكتاب من المبشرين والحكام يكتفون بمتابعة المشكلات النظرية التي كان يثيرها العلماء والاطلاع عليها ، وإنما كانوا يتصلون في كثير من الأحيان اتصالات مباشرة بأصحاب هذه النظريات أنفسهم . ولقد أصبح من المؤلف أن يرسل العلماء من أوطانهم قوائم تحوي أسئلة عن المعلومات ليجيبوا عنها ، ولعل أكثر هذه القوائم شمولاً وشهرة هي «مذكرات واستفسارات عن الأنثروبولوجيا» والتي نشرت عام (١٨٧٤) والتي بدأ المعهد الملكي الأنثروبولوجي في عام (١٩٤٩) إصدارها في طبعة جديدة .

هذا ولم يقتصر الأمر على هذا التلاحم بين المادة الحقلية وتكوين النظريات الأثنولوجية ، وإنما نشأ أيضاً اتجاه قوي ، وممارسة فعلية ، لاستخدام المعرفة الأنثروبولوجية لخدمة غايات الإدارة الاستعمارية . وهذا الارتباط بين البحث الاجتماعي عامة والأهداف العملية للسلطة

الاستعمارية، قد عبر عنه بوضوح عدد كبير من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا خلال القرن التاسع عشر، إلى حد أنه نظم في باريس مؤتمر دولي عام (١٩٠٠) لتناول موضوع «علم الاجتماع الاستعماري» وكان من بين أهدافه «دراسة المسائل الأخلاقية والاجتماعية المرتبطة بحركة الاستعمار». وبشأن هذا المؤتمر يكتب (محمد وقيدي) في كتابه القيم «العلوم الإنسانية والأيدلوجيا»: «إن الحركة الاستعمارية كانت عندئذ في حاجة إلى البحث عما يدعم هيمنتها، وإلى معرفة الخطوط العامة للسياسة التي يمكن أن تحافظ على هذه الهيمنة. ويمكننا أن نقول بهذا الصدد: إن العلاقة كانت جدلية بين المعرفة الاجتماعية كنظرية والسياسة الاستعمارية كواقع مجتمعي تاريخي، فالسياسة هنا تدم المعرفة بموضوعها وبالاتجاه الذي ينبغي أن تسير فيه، والمعرفة تدم السياسة بالمعطيات التي تساعده على تنفيذ مشروعها وعلى تبرير مشروعيتها كما تدمها بصيغة للتعبير عن أهدافها. لقد أدركت الهيمنة الاستعمارية أن حكم الأهالي لا يستقيم إلا بمعرفة متعمقة للغاتهم، وعاداتهم وتقاليدهم وأخلاقهم، وتهتم العلوم الاجتماعية الاستعمارية بهذه المعرفة الضرورية للحفاظ على هيمنتها ولضمان استمرار هذه الهيمنة».

هذه الظروف أو الأجواء المشار إليها (أنفاً) ساعدت جميعها على بلورة الأنثروبولوجيا إلى حد دفع بعض المفكرين والمهتمين إلى ترك تخصصاتهم الرئيسة وطرق أبواب هذا الفرع الجديد من المعرفة. فمنذ بداية ستينات القرن التاسع عشر - ولمدة ثلاثة عقود تقريباً - ظهرت تباعاً عدة

مؤلفات أثولوجية لمفكرين من فرنسا وإنجلترا وألمانيا وأمريكا. نذكر مثلاً أنه في عام (١٨٦١) أصدر (هنري مين) كتابه عن «القانون القديم»، ثم في (١٨٦٤) ظهر كتاب الفرنسي (فوستيل دو كولين) (١٨٣٠-١٨٦٩) بعنوان «المدينة القديمة» وبعد سبع سنوات أي في عام (١٨٧١) ظهر كتاب (أدوارد تايلور) الشهير بعنوان «الثقافة البدائية» وتلا ذلك صدور كتاب (لويس مورجان) عن «المجتمع القديم» في عام (١٨٧٧). ومرة أخرى وبعد سبع سنوات أيضاً أي في عام (١٨٨٤) ظهر كتاب (فريدريك إنجلز) (١٨٢٠-١٨٩٥) عن «أصل الأسرة الملكية الخاصة والدولة». أما الجزء الأول من كتاب جيمس فريزر (١٨٥٤-١٩٠١) الشهير «الغصن الذهبي»: دراسة في السحر والدين، فقد ظهر في عام (١٨٩٠).

هذه المؤلفات وغيرها لا تشير إلى مجرد توافق زمني وإنما تعكس اهتماماً مركزاً حول اتجاه فكري معين ساد إبان هذه الفترة ودفع بالأنثروبولوجيا دفعة جديدة من حيث تركيزها على مجال الدراسات الأثولوجية التي تهتم بالدراسة الوصفية والتحليلية المقارنة للثقافات الإنسانية. ورغم أن دارون كان قد قدم نظريته في إطار مبادئ علم الطبيعة والأحياء والتشريح إلا أن غالبية المفكرين الاجتماعيين خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد تراءى لهم إمكان تطبيق فكر دارون عن التطور القائم بين المجتمعات الإنسانية على أساس التقدم والتحضر عند الغربيين. ونشير في هذا الصدد إلى كتابات الفيلسوف الإنجليزي هربرت سبنسر (١٨٢٠-١٩٠٣). ومن الطريف أن نذكر أن الفيلسوف الإنجليزي

كان مهندساً، إلا أنه كان أيضاً عالم نفس واجتماع، كما كان أول دعاة نظرية التطور.

يرى (سبنسر) أن المجتمعات تتطور من مجتمعات قائمة على الحرب إلى مجتمعات قائمة على الصناعة، وأن الظواهر الاجتماعية تتطور من البساطة إلى التعقيد، ومن التجانس إلى التنافر، الأمر الذي يسبب التغير أو التقدم. وقد حال تطبيق قانون الاختيار الطبيعي على المجتمعات البشرية.

غير أن هذه النظرة لقيت الكثير من النقد على أساس أن الحقائق أو الوقائع الاجتماعية لا يجب تفسيرها وتحليلها إلا في إطار المناهج والقوانين الاجتماعية لا البيولوجية، وهو أمر دعا إليه بوضوح وجلاء العالم الفرنسي (إمل دوركايم) في كتابه «قواعد المنهج في علم الاجتماع» الذي نشره عام (١٨٨١). وهكذا اهتم أصحاب النظرية التطورية بدراسة الثقافة الإنسانية من خلال البحث عن الأصول التاريخية للسمات الثقافية، حيث اعتقد هؤلاء العلماء أن الثقافة هي نتيجة تراكم النشاط الإنساني عبر الزمن، وأن التقدم هو الغاية الأساسية من التطور الإنساني. وقد جاء هذا رافضاً للنظرية القائلة باحتمال ارتداد الإنسان أو الشعوب أو انتكاسها من حالة متقدمة إلى وضع أدنى، ويرى التطوريون أن المجتمعات الإنسانية كلها تتغير وفقاً لقانون ثابت للتطور يقوم على التقدم من مرحلة دنيا إلى أخرى أرقى منها، حتى تصل في النهاية إلى قمة الحضارة الإنسانية كما كانت ممثلة حينذاك في المجتمع الأوروبي.

ويمثل التقدم في نظرهم ثمرة التكامل في الأدوات المادية وثمره التعقيد في العلاقات خلال مراحل تطورية ومركبة، وأصبح معيار التقدم عندهم يتمثل جلياً في التطور العلمي التكنولوجي والاقتصادي.

علاوة على فكرة التقدم تقوم نظرية التطور الثقافي على أساس أنه لا يمكن فهم العقل الإنساني إلا بربطه بالتاريخ الذي يمكن من خلاله فقط فهم الحياة الإنسانية، والوصول إلى القوانين التي تحكم مسارها. فتاريخ البشر واحد على أساس وحدة الفكر الإنساني، أما التمايز بين الثقافات فهو وليد ظروف تاريخية معينة، فالمجتمعات قد عدت على الدوام بمنزلة وجود متواصل متجانس مؤلف من طبقات تطورية وأقسام موازية، يسير فيها التطور حتماً في خط مستقيم، ولا بد من جميع المجتمعات أن تمر بها، ويقوم جوهر نظرية التطور على الافتراض بأن تاريخ الجنس البشري قد عرف شكلاً موحداً في نشأته، وفي تجربته، وفي تقدمه، وأن اختلاف درجات هذا الشكل هو في حقيقة الأمر درجات للتطور ذاته، بحيث تكون كل درجة وليدة سابقتها ومساهمة في تشكيل تاريخ ما بعدها (أي المستقبل).

إن هذه التجربة الإنسانية الواحدة تقوم على افتراض وجود وحدة سيكولوجية يشركون فيها جميعاً على اختلاف ثقافتهم.

وفي هذا الإطار نشر (لويس مورجان) كتابه «بحوث في التاريخ المبكر للجنس البشري» عام (١٨٦٥)، وعرض فيه نظريته عن التطور الثقافي للمجتمعات الإنسانية التي تستند إلى فكرة التقدم الاطرادي للشعوب والثقافات، وانتقالها من حالة الهمجية أو البدائية (التي رآها متمثلة في

المجتمعات غير الغربية حينذاك) إلى حالة التحضر والمدنية المماثلة لأوضاع الثقافة والمجتمع الأوروبي في عصره . وقد استخدم (تايلور) مفهوم (الرواسب) المستمد من الدراسات العضوية والأثرية ليكشف بها عن الرواسب الثقافية عند الشعوب ، الأمر الذي يساعده على وضعها في مرحلة معينة من مراحل التقدم . وتقوم فكرة الرواسب على أساس أن بعض سمات المجتمعات المعاصرة تمثل متخلفات أو رواسب للأشكال الأولية والمتابعة التي مرت بها هذا المجتمعات ، وتتضمن هذه الرواسب مثلاً - في نظرية (تايلور) - بعض الألعاب والمأثورات والتعبيرات اللغوية ، فهو يرى أن لعبة الرمي بالقوس والسهم تستخدم كأداة رئيسة للحصول على الطعام وليس للهواية أو الرياضة ، وعلى الرغم من أن مفهوم الرواسب لاقى الكثير من النقد من ناحية استخدامه كأساس لوضع تفصيل دقيق لمسار تقدم المجتمعات الإنسانية وتطورها ، إلا أن فكرة التطور والتقدم الإنساني لاقت قبولاً عاماً في أوروبا .

ونود الإشارة هنا - بجانب (تايلور) و(فريزر) في أوروبا - إلى الأمريكي (لويس مورجان) الذي قدم لنا نظرية لتطور الثقافات الإنسانية من حيث انتقالها من حالة الوحشية (التي قسمها إلى مرحلة دنيا وأخرى متوسطة وثالثة عليا) إلى حالة أرقى نسبياً أطلق عليها لفظ «البربرية» ، والتي رأى أنها تطورت أيضاً خلال ثلاث مراحل مشابهة للشكل الأول للحياة الإنسانية أي (الوحشية) . أما عن المرحلة الثالثة والأخيرة فهي مرحلة الحضارة .

وقد أدخل (مورجان) بعض المقاييس والمعايير المادية التي استطاع على أساسها أن يضع هذا التقسيم أو التصنيف . وبهذا يُعد كل من (تايلور ومورجان) من الرواد الأوائل في بلورة النظرية التطورية . ونرى أنه إذا كان الفضل يرجع إلى (تايلور) في وضع أصول دراسة علم الثقافة عامة فإن (مورجان) قد بدأ دراسات القرابة التي أصبحت منذ ذلك الوقت وحتى الآن من أهم الموضوعات الأنثروبولوجية . ومن الجدير بالذكر أيضاً أنه على الرغم من تركيز (تايلور) على دراسة «الثقافة البدائية» ، إلا أن فهمه للأنثروبولوجيا قد تضمن الدعوة إلى دراسة كل أنواع الثقافات ، بدائية كانت أم متحضرة ، وسواء أشرنا هنا إلى (تايلور) و(مورجان) ، أو إلى غيرهما من رواد النظرية التطورية ، فمن الهام أن نوضح أن الأنثروبولوجيا في مرحلة نشأتها قد قامت على فكرة علماء ذوي تخصصات متباينة ، الأمر الذي أعطى الأنثروبولوجيا مزيجاً هاماً من المنطلقات الفكرية المفيدة في إطار الدراسة الشمولية للإنسان ؛ ولهذا جاءت كتاباتهم موسوعية ، غزيرة المادة ، وأضحت أعمالهم جزءاً من التراث الكلاسيكي للفكر الإنساني .

obeikandi.com

المبحث الثالث

الاتجاهات النظرية لتطور علم دراسة الإنسان

في القرن العشرين^(١)

لقد دفع الاتجاه العلمي الذي نشط في القرن التاسع عشر وتبلور بصورة جذرية وسريعة في عدد من المجالات ، العقل الإنساني إلى نبذ الفكر الفلسفي الميتافيزيقي الذي تحفظ في الغالب على قدرة العقل الإنساني في التوصل إلى الحقيقة المطلقة ؛ ونتيجة لذلك شهدت بدايات القرن العشرين قصور الميتافيزيقا عن حل المشكلات الإنسانية الجديدة إزاء ما قد قدمه العلم في القرن السابق ، وما أحرزه من تقدم في العقدين الأولين من القرن العشرين ، وما نتج عن ذلك من قيم جديدة يشع منها التفاؤل بمستقبل الإنسانية ، والدعوة إلى النظر إلى العقل والمنطق المحسوس كأداة للمعرفة . إلا أنه سرعان ما عصفت أحداث الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨) بهذا التفاؤل ، وبدأ الفلاسفة ينظرون إلى مشكلات القرن العشرين في إطار من التشاؤم إلى حد أن اعتقد بعضهم أن العالم مقبل ولا شك على عصر حالك بخاصة على أثر ظهور الفاشية في إيطاليا والنازية في ألمانيا خلال سنوات ما بعد الحرب ، وأن ذلك يقضي على الآمال التي كانت معقودة على تحرير الإنسان ، وإحراز تقدم حضاري كبير

(١) نكرر الملاحظة التي أشرنا إليها في (الصفحة ١٧) .

من خلال الاستخدامات البناءة للاكتشافات العلمية التي كانت قد برزت في ميادين الفيزياء (علوم الطبيعة) وبخاصة الطب . ولم يجد هؤلاء الفلاسفة التشاؤميون مخرجاً من أزمة الحياة الإنسانية في ذلك (العالم السيئ) إلا أن يعود الإنسان إلى إحياء قيمه الدينية والتمسك بها، كما دعا إلى ذلك (مثلاً) كل من (كارل بارث) السويسري و(راينهو لذيبيوز) الألماني .

لقد بلغ هذا الاتجاه ذروته في إطار ما عرف بالحركة الوجودية والتي شاعت بخاصة في فرنسا نحو عام (١٩٣٨) على يد (جان بول سارتر) (١٩٠٥-١٩٨٠) . إلا أنه إلى جانب الوجودية ظهر اتجاه آخر اتصف بالتفاؤل إلى حد كبير، وكان الفيلسوف الأمريكي (جون ديوي) (١٨٥٩-١٩٥٢) أبرز أعلامه، فقد تبني (ديوي) في كتابه الشهير «إعادة البناء في الفلسفة» اتجاهاً مناهضاً للفلسفة الميتافيزيقية، دعا فيه إلى ضرورة الاهتمام بالبحث عن القوى المعنوية، التي تحرك مناشط الإنسان الذي اعتقد (ديوي) أن لديه الكثير من الإمكانيات والقدرات التي تستطيع أن تخرجه من أزمتة الراهنة، وتساعد على حل مشكلاته المعقدة المتزايدة يوماً بعد يوم، دون الحاجة إلى اللجوء إلى قوى خارج الطبيعة .

إلى جانب تلك التيارات الفلسفية هناك أيضاً الدين الذي كان له - ولا يزال ولو بدرجات متفاوتة - تأثيره في تشكيل ثقافة القرن العشرين (إذا صح هذا التعبير) والتي أثرت بدورها في الفكر الأنثروبولوجي كما سنوضح ذلك بالتفصيل فيما بعد . لقد استمر تأثير الدين في النظم الاجتماعية قوياً كما كان في القرن التاسع عشر، خاصة خلال العقود

الأولى للقرن العشرين . إلا أن تعاليم الكنيسة وشوكتها سرعان ما نالهما الكثير من النقد والتحدي من قبل الحركات المناهضة التي شجعها ما قام من خلافات بين الكنيستين البروتستانتية والكاثوليكية ، وعدم مواكبتها لروح العصر واتجاهاته . لقد كان للتيارات التحررية والإنجازات العلمية والتكنولوجية الهائلة تأثير كبير في الإنسان الذي بدأ يشعر بأهميتها في حياته أكثر مما استطاعت أن تقدمه له الكنيسة من أفكار أو حلول . الأمر الذي جعل (البابا جون الثالث والعشرين) يدعو القساوسة في نهاية الخمسينيات إلى تقبل فكرة الحوار ودعم حرية المناقشة في أمور الدنيا والدين ، وأن يسترشدوا كذلك بطرائق جديد ، تجاه بث روح الإيمان والالتزام بتعاليم الكنيسة ، غير وسائل القمع والتهديد التقليدية .

وقد شهدت الكنيسة الكاثوليكية تحدياً من قبل الشباب والنساء خاصة بسبب المواقف الصلبة والرجعية إزاء بعض المشكلات الإنسانية ، مثل : مشكلة تحديد النسل والحاجة إليها في مواجهة الانفجار السكاني العالمي ، وتأكيد مسائل الحرية الشخصية والإرادة الفردية . نشير (أيضاً) إلى موضوع زواج القساوسة الذي ترتب عليه أن ترك نحو (٤٤) قساً فرنسياً (في عام ١٩٧٠) عملهم احتجاجاً على قيود الكنيسة الخاصة بزواجهم ، وتبعهم في ذلك آخرون بهولندا . هذا علاوة على أن ثورات الشباب التي عمت أجزاء كثيرة من العالم خاصة خلال عقد الستينيات - قد وجهت النقد اللاذع لتأييد الكنيسة لنظم الحكم الجائرة من دول العالم الثالث مثل : أمريكا اللاتينية ، والسكوت على التدخل الأمريكي في فيتنام . ورغم

موقف الكنيسة الصلب لرفض التغير في كثير من الحالات والتشبث بمواقفها التقليدية إلا أنها لم تنجح في صدّ رياح التغير العاصفة خلال النصف الثاني من القرن العشرين، الذي ازدهرت فيه الحركات التحريرية، واكتسبت شعبية كبيرة على النطاق العالمي، حتى بداخل الدول الغربية ذاتها. هذا إلى جانب أن التقدم العلمي والتكنولوجي الهائل والسريع شكل تحدياً صارماً لتعاليم الكنيسة ودورها في توجيه الفكر الإنساني، الأمر الذي فرض عليها تحركات جديدة لمواكبة تغيرات العصر.

يجدر بنا (بصدد هذا التقدم العلمي والتكنولوجي المشار إليه آنفاً) أن ننوه هنا إلى أن (العلم) قد شكل دعامة رئيسة من ثقافة القرن العشرين كما أن له كما سنوضح فيما بعد) صلة وثيقة بالفكر الاجتماعي والقضايا الإنسانية التي أثرت بدورها في تشكيل الدراسات الأنثروبولوجية، من حيث تحديد موضوعاتها ومناهجها وأهدافها. لقد أصبح إنسان القرن العشرين ينظر إلى (العلم) على أنه منقذ البشرية، ولو أن هذا قد أدار ظهره كلية إلى الدين. ولم يسلم العلم على الرغم من الإيمان به والانبهار بإمكاناته من النقد والخوف من نتائجه على الجنس البشري من ناحية تلوث الهواء والماء والبيئة بصفة عامة. وإنه لمن المحزن أن نرى الطفرة التقدمية الهائلة التي أحرزها في مجال علوم الفيزياء (البرت أينشتاين) (١٨٧٩-١٩٥٥). وغيره من العلماء في الثلاثينات، والتي انتهت بإمكان توليد الطاقة عن طريق تحطيم المادة إلى ذرات متناهية الصغر، كان قد نتج عنها إعداد قنابل ذرية دمرت مدينتي يابانيتي في عام (١٩٤٥)، قتلت الآلاف

من البشر، ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد، فقد توالى الاكتشافات العلمية والتكنولوجية بعد ذلك، لتستخدم في إعداد أسلحة أكثر فتكاً وتدميراً مثل القنبلة الهيدروجينية والنيوتروجينية إلى حدّ مد التنافس والصراع إلى غزو الفضاء في السبعينيات، والإعداد (الآن) إلى ما يشار إليه بحرب الكواكب.

وإلى جانب المجال الفيزيائي هناك التقدم العلمي الكبير في مجال العلوم البيولوجية، وذلك في أعقاب الحرب العالمية الأولى. إن اكتشافات الفيروس، والمضادات الحيوية، الأنسولين، والأمصال الواقية على سبيل المثال قد نتج عنها ثورة هائلة في مجالي الصحة والعلاج من الأمراض.

ويقال: إنه في عام (١٩٧٠) كانت شعوب العالم (بصفة عامة) تتمتع بصحة أفضل من أي وقت مضى في التاريخ، إلا أنه كان هناك (ولا يزال) عدد من الشعوب التي ابتليت بالحروب والأزمات الغذائية الطاحنة، وبالفقر المدقع، والصراعات الاجتماعية الداخلية، الأمر الذي جعل أفرادها يعانون من المرض ويفتقدون أية رعاية صحية أو حتى مقومات الحياة الإنسانية الأساسية.

ففي إطار هذه الملامح الأساسية لثقافة القرن العشرين من ناحية الفلسفة والدين والعلم نجد أن الفن والموسيقى والأدب قد تأثرت بتلك الثقافة كما أثرت فيها أيضاً. ففي هذا العصر (الذي سادت فيه الثورة على القديم والرغبة في التحرر من التقليد، والدعوة إلى آفاق جديدة، وأفكار متطورة تخلص الإنسانية من شرور التسلط السياسي والاضطهاد

الاجتماعي، وسباق التسلح المدمر) نجد أن الموسيقيين قد خرجوا في ألحانهم عن المألوف، كما عبر الفنانون في إطار الواقعية، أو التجريد عن مخاوفهم وآمالهم. وفي مجال الأدب عامة تأثر بعضهم بالاتجاه الفلسفي التشاؤمي، وعبروا في قصصهم ومسرحياتهم عن خيبة الأمل في إنقاذ البشرية في إطار الحروب العالمية المتتالية والصراعات السياسية المستمرة، والآثار المدمرة للاكتشافات العلمية بدلاً من توجيهها أساساً للاستخدامات الإنسانية. إن الإنسان يظهر في القصص الغربية وحيداً تائهاً وحائراً إزاء ما يحدث حوله في هذا «العالم المجنون» الذي تجري فيه الأمور بطريقة غير منطقية أو عقلانية أو حتى إنسانية، والإنسان الأوروبي الذي كان يمثل (في القرن التاسع عشر) ذروة التقدم الحضاري أصبح في القرن العشرين كائناً بائساً يستلهم العون ويبحث عنه من أي مصدر كان. ففي أعقاب الحرب العالمية الأولى، اتجهت الأعمال الأدبية بصفة عامة نحو التعبير عن حالة التوتر التي يعيشها عالم القرن العشرين في عقوده الأولى، وعن حالة القنوط والاستخفاف بقيمة الحياة ذاتها التي تسود بين الأفراد كما صورها (مثلاً) (أرنست هيمنجواي) (١٨٩٩-١٩٦١) في قصته «وداعاً للسلح» وأيضاً في أشعار اليوت (١٨٨٨-١٩٦٥) بعنوان «الأرض الخراب».

نجد بعد ذلك أن الكساد الاقتصادي الذي عم الغرب في الثلاثينيات إلى جانب قيام النظم الفاشية في إيطاليا والنازية في ألمانيا، وما أعقب ذلك من حرب عالمية ثانية (١٩٣٩-١٩٤٥) قد جعل الكتاب يتجهون إلى

الدعوة إلى الخلاص من تلك الشرور بإقامة مجتمعات عادلة، والاعتقاد بأن الكفاح ضد الظلم والاستبداد هو أهم أساسيات الحياة، وهو الذي يعطي الفرد حريته وكيانه وللإنسانية كرامتها، وقد برز مثلاً هذا الاتجاه واضحاً في أحداث قصص الروائي الفرنسي (أندريه مارلو) (١٩٠١-١٩٧٦) وكذلك في قصة همنجواي الشهيرة «لن تقرر الأجراس» التي صدرت عام (١٩٤٠). وظل هذا الاتجاه سائداً لفترة طويلة، حتى فيما بعد الخمسينيات والستينيات بسبب استمرارية روح العصر المتمثلة في التغير السريع، ومناهضة القديم الجامد، والرسمية المقاومة للخلق والابتكار، والدعوة إلى الحرية الشخصية، ومناهضة المغلوبين من الأفراد أو الشعوب. ففي مجال الدعوة إلى حرية الفرد في حياته الخاصة ومناهضة النظم الاستبدادية تبرز لنا قصة دكتور (زيفاجو) الشهيرة التي صدرت في عام (١٩٥٣) للكاتب الروسي (بوريس باسترناك) كمثال جيد لهذا الاتجاه. كذلك نجد في قصص الكاتبين الأمريكيين الأسودين (جيمس بالدوين ولورين هانزيرج) مثلاً للعودة إلى تحرير السود في إطار المجتمع الأمريكي الذي يغلب عليه العنصر الأبيض.

ونتساءل الآن كيف أثرت هذه الاتجاهات جميعها في مسار الأنثروبولوجيا إبان القرن العشرين؟ وللإجابة عن هذا السؤال ربما يكون من الملائم أن نقسم هذا المسار إلى فرقتين رئيسيتين على أساس أن أحداث الحرب العالمية الثانية وما نتج عنها يشكل (في حقيقة الأمر) فاصلاً هاماً ومميزاً.

رغم أن كثيراً من الاتجاهات الأنثروبولوجية قد تتداخل فيما بين تلك الفواصل الزمنية، ولغرض التبسيط في العرض وإبراز محتوى الاتجاهات الأنثروبولوجية وأهدافها مع ربط كل منها (كلما تيسر ذلك) بالجو الفكري والثقافي العام، وما يجري أيضاً من تحول في مجال العلوم الاجتماعية الأخرى - وبخاصة علمي النفس والاجتماع - يتناول الجزء التالي أهم الاتجاهات الأنثروبولوجية التي تبلورت وسادت خلال الفترة من بداية القرن العشرين حتى منتصف الأربعينات، أي حتى نهاية الحرب العالمية الثانية.

لقد أشرنا سابقاً إلى أن الوصول إلى الأسباب التي يقوم على أساسها التباين بين الثقافات والاختلاف في المستويات الحضارية قد مثل قضية فكرية أساسية عبر العصور، كما كانت مجال كثير من الجدل والمناقشات التي تبلورت في نهاية الأمر فيما قدمه مفكرو القرن الماضي من نظريات أو تفسيرات تقوم على أساس فكرة التقدم الإنساني، وتطور الثقافات وفقاً لمراحل محددة، فالثقافات تتباين وتختلف لأنها تشكل أوضاعاً مختلفة في مراحل التقدم الإنساني، وقد سادت هذه الأفكار التطورية إبان النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كما استمرت خلال العقدين الأولين من القرن العشرين، إلا أنها تلقت الكثير من النقد على أساس أنها استندت إلى الحدس والتخمين والاعتماد على مادة يشوبها التحيز وعدم الدقة، إلى جانب الالتجاء إلى التعميم المطلق لكل الثقافات في الزمان والمكان دون تقديم الدلائل والقرائن التي تثبت صحة فروض النظرية التطورية ومقولاتها.

ونتيجة لهذا النقد قلّت أهمية النظرية التطورية تدريجياً وحل محلها محاولات جديدة للنظر إلى الثقافات الإنسانية وتفسير التباين بينها .
فخلال العقدين الثالث والرابع من القرن العشرين تبلورت ثلاثة اتجاهات رئيسة تفاعلت مع بعضها كما ارتبطت بمقتضيات العصر وما تناوله العلوم الاجتماعية بصفة عامة من قضايا نظرية وعملية تتعلق بالفرد والمجتمع وأحوال العالم .

هذه الاتجاهات الثلاثة هي:

- ١- الاتجاه التاريخي - التجزيئي .
- ٢- الاتجاه البنائي - الوظيفي .
- ٣- الاتجاه التاريخي - النفسي .

وربما يجدر التنويه بأن استخدامنا هنا لكلمة اتجاه يشير إلى منطلق عام أو توجه فكري مميز ، وعادة ما يندرج تحته أكثر من نظرية أو منهج في معالجة المشكلة نفسها . إن استخدامنا لكلمة مدرسة يعني الإشارة إلى مجموعة من الأفراد والأعمال التي تتبنى فكراً نظرياً مشتركاً ، أو أولئك الذين يستخدمون منهجاً محدداً في جمع المادة وتحليلها ؛ لهذا فمن المؤلف أن يحتوي اتجاه معين على عدة من المدارس ، وقد يحدث أيضاً أن تتباين وجهات النظر بين أصحاب المدرسة الواحدة الأنثروبولوجية ، وكثيراً ما تستخدم كلمة النظرية في لغتنا اليومية للإشارة إلى فرض واعتقاد لم يثبت صدقهما ، أو لم يقدم بعد الدليل أو البرهان على صحتها . هذا ينطبق على استعمال كلمة نظرية في المجال العلمي أيضاً ، إذ إن النظرية العلمية

تتضمن عنصرين أساسيين وهما: «السؤال» الذي تطرحه و«الإجابة» التي تقدمها، ولكي تثبت صحة هذه الإجابة لابد من وجود البرهان أو الدليل على صحتها، وهذه الأدلة والبراهين لا تستقيم دون حقائق ملموسة وأساس منطقي أو فروض تخضع للمشاهدة والتجربة. فالنظرية إذن هي «إطار فكري يفسر فرضاً معيناً أو مجموعة من الفروض ويضعها في نسق علمي مترابط».

ولا تنشأ النظرية من فراغ؛ ذلك أن النظريات العلمية والإنسانية ترتبط بالضرورة بالزمان والمكان ونوعية الحياة ومتطلباتها. ونظراً لأن هدف النظريات هو تكوين إجابات أو تفسيرات لأسئلة معينة فقد تتفق أو تتعارض النظريات مع بعضها ولكنها تقوم في النهاية بتكوين وحدة فكرية متصلة ومترابطة، كما تمثل نمواً مضطرباً للفكر الإنساني وللتقدم العلمي. ويلاحظ أيضاً أن كل نظرية تكون مجموعة معينة من المفاهيم التي تستخدمها في طرح السؤال وتقديم الإجابة عنه، وفي هذا الصدد تختلف النظريات من حيث إطار المفاهيم المستخدمة والمفهوم ما هو إلا كلمة أو عبارة عادية تشبه في كثير من الأحيان ما نستخدمه في أحاديثنا اليومية، إلا أن العلماء يعطونها - عادة - معنى بين العلماء. ويلجأ العلماء أيضاً إلى التجريد والتعميم عند تكوين مفاهيمهم وذلك بغرض استخدام هذه المفاهيم كأدوات تحليلية لوصف المادة موضع البحث ودراستها.

نقدم فيما يلي نبذة موجزة وبمبسطة للغاية عن كل اتجاه من الاتجاهات المشار إليها سابقاً ونود إحاطة القارئ علماً بأنه من اليسير الحصول على

معلومات إضافية وتفصيلية عن كل اتجاه بمراجعة الكتب والمراجع في مجال الدراسات الأنثروبولوجية والمشار إلى بعضها في قائمة المراجع .

إنّ هدفنا في هذا العرض هو أن نطلع القارئ على طبيعة تلك الاتجاهات ومكانها في تطور الفكر الأنثروبولوجي في إطار السياق الفكري العام للمجتمع ، وطبيعة اهتمامات العصر .

أولاً: الاتجاه التاريخي - التجزيئي؛

لقد سبق أن ذكرنا في المبحث السابق أن النصف الثاني من القرن التاسع عشر شهد سيطرة كبيرة للفكر التطوري في إطار الدراسة النظرية للتاريخ الحضاري للإنسانية ، ومع ذلك فقد برز الاتجاه الانتشاري كمحاولة أخرى مناهضة للتطور لتفسير عمليات التغير الحضاري لتاريخ الإنسان ، سواء أكان الفكر تطورياً أم انتشارياً فقد استمر الاهتمام باستخدام التاريخ لتفسير ظاهرة التباين الثقافي (الحضاري) للمجتمعات الإنسانية ، وافترض المناهضون للتطور أن الاتصال بين الشعوب المختلفة قد نتج عنه احتكاك ثقافي ، وعملية انتشار لبعض السمات الحضارية أو كلها ، الأمر الذي يمكن أن يفسر في ضوءه التباين الحضاري للشعوب وليس في إطار عملية تطورية . وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذا الاتجاه قد تبني منهجاً تاريخياً جغرافياً بتأثير كبير من المدرسة الجغرافية الألمانية ، ورائدها (فردريك راتزال) ، الذي ركز على أهمية الاتصالات والعلاقات الحضارية بين الشعوب ودورها في النمو الحضاري .

وقد غنى تلاميذه هذا الاتجاه وبخاصة (هوينريخ شورترز) الذي أبرز فكرة وجود علاقات حضارية بين العالم القديم (أندونيسيا وماليزيا) والعالم الجديد (أمريكا) وكذلك (ليوفروينوس) صاحب نظرية الانتشار الحضاري بين أندونيسيا وأفريقيا .

وانطلاقاً من هذا المنظور افترض بعضهم أن عملية الانتشار هذه ربما تكون قد بدأت من مركز حضاري محدد، ثم انتقلت عبر الزمان إلى أجزاء العالم المختلفة من خلال الاتصال بين الشعوب .

وقد ظهرت في أوروبا نظريتان مختلفتان بصدد هذا التفسير الانتشاري لعناصر الثقافة ؛ ففي إنجلترا ظهرت المدرسة الانتشارية التي أرجعت نشأة الحضارة الإنسانية كلها إلى مصدر أو مركز واحد، وعن طريق الاحتكاك الثقافي بين الشعوب سواء عن طريق التجارة أو الغزوات أو الهجرة انتشرت عناصر تلك الحضارة المركزية أو الرئيسة واتسعت دائرة وجودها .

ترعّم هذه المدرسة عالم التشريح البريطاني (اليوت سميث) ١٨٧١ - ١٩٣٧) وكان مهتماً بالآثار والهياكل البشرية ومعه أيضاً تلميذه (وليم بيرى) (١٨٨٨ - ١٩٤٩) اللذان رأيا أن الحضارة الإنسانية نشأت وازدهرت على ضفاف نهر النيل في مصر القديمة منذ نحو خمسة آلاف سنة قبل الميلاد تقريباً ، وذلك بعد فترة طويلة عاشتها الإنسانية على الصيد وعندما توافرت الظروف وبدأت الاتصالات بين الجماعات والشعوب انتقلت بعض مظاهر تلك الحضارة المصرية القديمة إلى بقية العالم التي عجزت شعوبها عن الابتكار أو الاختراع فعوضت ذلك بالاستعارة والتقليد . إلا أن فريقاً من

الألمان والنمساويين وعلى رأسهم (فريتز جرابنور) (١٨٧٧-١٩٣٤) (ولهم شميدت) (١٨٦٨-١٩٥٩) رفضوا فكرة المنشأ الواحد للحضارة الإنسانية الأقرب إلى الخيال أكثر من كونها علمية الأساس (على حد تعبير جان بواريه) وافترضوا وجود عدة مراكز حضارية أساسية في جهات متفرقة من العالم، وأنه نشأ عن التقاء الحضارات مع بعضها نوع من الدوائر الثقافية، وحدثت بعض عمليات الانصهار والتشكيلات المختلفة، الأمر الذي يفسر أوجه الاختلاف عن تلك الثقافات المركزية أو الأساسية. إلا أن أصحاب هذا الرأي لم يقدموا الدلائل على وجود تلك المراكز، أو تتبع حركات الاتصال بينها، ودراسة النتائج المترتبة على ذلك بطريقة منهجية سليمة. ورغم هذا الاختلاف في وجهة النظر بين المدرستين البريطانية والألمانية النمساوية إلا أنهما اتفقتا في رفض حتمية تطور المجتمعات كلها وفقاً لقانون ثابت، وأنه من غير المعقول أن يتشابه التكوين العقلي عند جميع البشر. وليس من الممكن أيضاً أن تتمتع جميع الشعوب بقدر متماثل من الخلق والابتكار، ولكنها تستطيع بسهولة أن تستعير من غيرها ما تعجز عن ابتكارها بنفسها.

ولم يقتصر التفسير الانتشاري على أوروبا وحدها، بل ظهرت في أمريكا حركة مماثلة في نقدها للتفسير التطوري للثقافة، والاتفاق من ناحية المبدأ مع كل من (اليوت سميث) و(ولهم شميدت) على فكرة انتشار السمات الثقافية والاستعارة بوصفها أساساً لتفسير التباين الثقافي بين الشعوب. وبصدد فكرة المراكز الحضارية أو الدوائر الثقافية التي يقدمها

الانتشاريون الأوروبيون ترى المدرسة الأمريكية أن الملامح المميزة لثقافة ما قد وجدت أولاً قبل كل شيء في مركز ثقافي جغرافي محدد، ثم انتقل إلى مناطق أخرى. وبذلك رفض الانتشاريون الأمريكيون ما ذهب إليه الأوروبيون من الزعم بعدم إمكان التطور المستقل، وأن الناس بطبيعتهم غير مبتكرين، ويعد (فرانز بواز) الرائد الأول لهذا الاتجاه التاريخي التجزيئي في أمريكا، حيث عارض الفكرة القائلة بوجود طبيعة واحدة وثابتة للتطور الثقافي، ورأى أن أية ثقافة من الثقافات ليست إلا حصيلة نمو تاريخي معين. ونتيجة لذلك فالباحث الأثنولوجي الذي يدرس الثقافات يجب أن يوجه اهتمامه نحو دراسة تاريخ الجزئيات المختلفة والعناصر المكونة لثقافة ما كل على حدة، وذلك قبل الوصول إلى تعميمات بشأن المجتمع الإنساني وثقافته ككل.

ورغم ما أثير في بعض الأحيان من أن هذا المنهج التاريخي التجزيئي يستلزم وقتاً طويلاً قد يؤدي إلى نتائج ضئيلة، إلا أن (بواز) أصر على أنه لكي تصبح الأثنوبولوجيا علماً فلا بد أن تعتمد في تكوين نظرياتها على الحقائق الملموسة والمشاهدات، لا على التخمينات أو الفروض الحدسية.

لقد أشار (بواز) (الذي كان متخصصاً في الجيولوجيا والجغرافيا) قبل أن يشتغل بالأنثروبولوجيا، إلى أنه من خلال دراسة الشكل والتوزيع الجغرافي لمصدر السمات الثقافية وهجرتها واستعارتها عن طريق الاتصال بين الشعوب، يمكن للباحث أن يستدل على كيفية نشأة الثقافة وتطورها، وبالتالي يمكن الوصول في النهاية إلى نظرية تتوافر فيها عناصر الصدق

والبرهان لتفسير تغير المجتمعات الإنسانية وتطور النظم الاجتماعية أو السمات الثقافية وفي إطار هذا المنطلق النظري استخدم (فرانز بواز) مصطلح المناطق الثقافية، ليشير إلى مجموعات من المناطق الجغرافية التي تتصف كل منها بنمط ثقافي، معين بغض النظر عن احتواء كل من هذه المناطق على عدة من شعوب أو جماعات. وفي تطبيق هذا المفهوم على ثقافات قبائل الهنود الحمر بأمريكا أمكنه حصر سبع مناطق ثقافية رئيسة أو تمييزها، يندرج تحتها هذا العدد الهائل من قبائل الهنود الحمر الذي كان يزيد على خمسمائة قبيلة في الوقت الذي نرح فيه الأوروبيون لاستعارة القارة الأمريكية، وبهذا يشير مفهوم المنطقة الثقافية إلى طرائق السلوك الشائعة بين عدد من المجتمعات التي تتميز باشتراكها في عدد من مظاهر الثقافة نتيجة لدرجة معينة من الاتصال والتفاعل.

ولقد لاحظ (بواز) أن منطقة السهول في أمريكا الشمالية يوجد فيها عدة جماعات هندية، لكل منها ثقافتها المميزة، ولكل منها اسمها القبلي ولغتها واستقلالها، إلا أنه اكتشف أن هناك - مع ذلك - عدداً من السمات الثقافية المشتركة بينها جميعاً. فقد كانوا مثلاً يصطادون الجاموس للغذاء، وبينون المساكن على أعمدة مع تغطيتها بالجلود التي يستخدمونها أيضاً في صنع الملابس. وكان رجال هذه القبائل ينقسمون إلى مجموعات من المدافعين يسكنون في معسكرات على شكل دائري، ويمارسون في عباداتهم طقوساً مماثلة. وهكذا جاء مفهوم المنطقة الثقافية أو اصطلاحها بمنزلة تصنيف وصفي وتحليلي للثقافات، الأمر الذي يسهل المقارنة بين

الثقافات ، والوصول إلى تعميمات بشأن الثقافة الإنسانية كلها . وأصبح من الممكن (مثلاً) أن تعقد المقارنات بين ثقافتين ، مثل : ثقافة هنود السهول بأمريكا (التي تتميز بوجود الجاموس الوحشي الذي يعتمد عليه السكان في منطقة السهول العظمى اعتماداً كبيراً) ، والثقافة النيلية الحامية التي تنتشر بين عدد كبير من قبائل شرق أفريقيا .

وفي هذا الإطار النظري والتحليلي أصبح هدف المدرسة الأمريكية بزعامه (بواز) هو الدراسة التاريخية الدقيقة للعناصر المختلفة لثقافة معينة (الهنود الحمر مثلاً) وتحليل كل جزء أو عنصر من حيث مصدر نشأته وتطوره واستخدامه ، وتتبع عمليات هجرته أو استعارته بين الشعوب المختلفة . ونتج عن هذا الاتجاه الانتشاري بصفة عامة أن بدأ الأنثروبولوجيون ينظرون إلى الثقافات الإنسانية على أن لها كيانات مستقلة من حيث المنشأ والتطور والملاح الرئيسة التي تميزها عن غيرها ، وذلك على عكس التطوريين الذين رأوا أن الثقافات متشابهة ، وأن الاختلاف الوحيد بينها يكمن فقط في درجة تطورها التكنولوجي والاقتصادي . وبهذا يرجع الفضل إلى المدرسة الانتشارية في طرح فكرة تعدد الثقافات وتنوعها والنسبية الثقافية التي أصبحت منذ ذلك الحين من أهم المفاهيم الرئيسة في الفكر الأنثروبولوجي وتطوره ، سواء في الولايات المتحدة الأمريكية أو خارجها .

وقد لاقى هذا المصطلح رواجاً وقبولاً خاصة في عصر كانت فكرة

النسبية عند أينشتاين في العلوم الطبيعية قد حازت الاهتمام النظري والاستخدام العملي .

إن الشعوب - عادة ومنذ القديم - تميل إلى الاعتقاد بأن تراثها الفكري وأسلوب حياتها يمثلان (في نظرها) الأفضل دائماً، المتميز عن غيره من معتقدات وثقافات الآخرين ، ولكن هذا التحيز الثقافي أو الاعتداد بالجنس - كما يشار إليه في بعض الكتابات العربية - يجب أن لا يشكل أساساً للنظر إلى الثقافات الأخرى ، والتعامل أو الاتصال بين الشعوب . فكل ثقافة لها معنى وقيمة يتناسبان مع المكان والزمان والخبرة الإنسانية في مواءمتها مع البيئة ، وفي إطار ظروفهما التاريخية . فالثقافة ظاهرة نسبية ، بمعنى يجب عند نظرنا إلى ثقافات الشعوب في هذا الإطار أن لا نحكم عليها بالخطأ أو الصواب ، أو بالقبول أو بالرفض .

وقد اتصفت كتابات المشاهدين والرواة والمؤرخين الأوروبيين في العصور الوسطى عن الثقافات الأخرى بالتحيز الثقافي ؛ وذلك لأنهم نظروا إلى الوقائع المشاهدة من منطلقاتهم الفكرية والثقافية ، وتصوراتهم عن الحياة والأفراد ، وحكموا على ما شاهدوه بالبداية أو الهمجية ، أما النسبية الثقافية فتمثل مدخلاً ، مفهوماً رئيساً للاتجاه الموضوعي النسبي في الدراسات الأنثروبولوجية . فالأنثروبولوجيون - نظرياً على الأقل - لا يفضلون ثقافة على أخرى ، وإنما يجدون في كل الثقافات مظهراً أو وسيلة عملية لحل مشكلات الإنسان في بيئة معينة وزمن محدد .

فمن وجهة النظر الأنثربولوجية يمثل مفهوم «النسبية الثقافية» في حقيقة الأمر دعوة إلى الأخذ بضرورة تنوع الشعوب واحترامها، ومحاولة دراستها وتفهمها والوصول إلى أوجه التشابه والاختلاف بين الثقافات، الأمر الذي يساعد على فهم أفضل للطبيعة الإنسانية وتفسير سلوك الأفراد كافة، والتعرف على أنماط الحياة الاجتماعية في الحاضر والمستقبل. هذا ويجب أن ننوه في هذا المجال إلى أن الدعوة إلى النظر إلى سلوك الأفراد أو الجماعات في الثقافات المختلفة في السياق العام للقيم والقواعد التي تحكم هذا السلوك لا يعني أن كل أشكال السلوك الإنساني مقبولة، فهناك الكثير من الاتجاهات والمعتقدات والممارسات التي قد تخالف أو تناقض ما توصلت إليه الحضارة الإنسانية المعاصرة من قيم عليا وحقوق إنسانية، نذكر من بين تلك الممارسات: الحروب الاستعمارية، والإرهاب والقتل الفردي أو الجماعي، وبعض العادات والتقاليد التي قد لا تتواءم مع متطلبات الحياة العصرية، وتتنافى مع رغبة الشعوب في التقدم وتحسين نوعية الحياة. فالنسبية الثقافية لا تدعو إلى قبول الأمور على علاتها، وإنما للعمليات الثقافية، الأمر الذي يساعدنا على تطور فهمنا لسلوك الشعوب الأخرى وعلى فاعلية التعامل معها في إطار من الفهم المشترك والاحترام المتبادل.

ثانياً - المدرسة البنائية - الوظيفية:

نشأ الاتجاه البنائي - الوظيفي لدراسة الثقافات الإنسانية في الوقت

الذي ظهرت فيه نظريات الانتشار الثقافي في كل من أمريكا وأوروبا كرد فعل عنيف إزاء النزعة التطورية . واتصف الاتجاه البنائي الوظيفي بأنه لا تطوري ، وبالتالي لا تاريخي ، إذكرز على دراسة الثقافات كلاً على حدة في واقعها وزمنها الحالي . فالوظيفة إذن ليست على دراسة مترامنة وإنما آنية ؛ ولذلك اختلفت كلفةً عن الدراسات التاريخية التي اعتمد عليها كل من التطوريين والانتشاريين على حد سواء .

إن رفض الوظيفيين للمنهج التاريخي يضمن - في نظرهم - الطريقة العلمية لدراسة الثقافات الإنسانية ، زد أن العلم لا يهتم بتاريخ الظاهرة التي يبحثها قدر تركيزه على الكشف عن العلاقات القائمة بالفعل بين عناصر تلك الظاهرة كلها وعلاقتها بغيرها من الظواهر الأخرى ويؤدي هذا - في النهاية - إلى الوصول إلى القوانين التي تحكم الظاهرة (موضع الدراسة) من ناحية تكوينها وأدائها لوظيفتها .

تبلور الاتجاه البنائي - الوظيفي في مجال الأنثروبولوجيا عن طريق الأفكار والكتابات اللتين طرحهما كلٌّ من العالمين البريطانيين (برونسلو مالفينسكي) (١٨٨٤-١٩٤٢) و(راد كليف براون) (١٨٨١-١٩٥٥) ، وتجدد الإشارة إلى أن كليهما مدين بكثير من أفكاره واتجاهاته النظرية إلى المفاهيم التي قدمها العالم الفرنسي (إيميل دوركايم) ، الذي يعد في حقيقة الأمر حلقة ربط وهمزة وصل بين الفكر الذي كان سائداً في القرن التاسع عشر والاتجاهات الجديدة للفكر الاجتماعي التي ظهرت في بداية القرن العشرين . فقد اهتم (دوركايم) بدراسة الطريقة التي تعمل بها المجتمعات

الإنسانية ووظائف نظمها الاجتماعية، وبذلك اختلف كثيراً عما كان سائداً في القرن التاسع عشر من ناحية الدراسة التاريخية لتطور المجتمعات الإنسانية والسمات الثقافية. ومما هو جدير بالذكر أن الاتجاه البنائي الوظيفي يعبر في جملته عن منهج دراسي تم اشتقاقه عند استخدام المماثلة بين المجتمعات الإنسانية والكائنات البشرية، وأنه لم يعد قاصراً على الأنثروبولوجيين، وإنما تناوله علماء الاجتماع بالفحص والتطبيق والتعديل على يد (تلкот بارسونز وجورج ميرتون)، كما أنه ارتبط بالعلم الطبيعي، وبخاصة علوم الحياة والكيمياء والميكانيكا.

ويرى (مالينوفسكي) أن ثقافة أي مجتمع تنشأ وتتطور في إطار إشباع الاحتياجات البيولوجية للأفراد، والتي حصرها في التغذية والإنجاب والراحة البدنية، والأمان والاسترخاء، والحركة والنمو. وتنشأ النظم الاجتماعية عادة لتحقيق تلك الرغبات، فنجد مثلاً أن الزواج والأسرة يشبعان الحاجة الجنسية ويؤديان وظيفة الإنجاب والتربية، كما أن المسكن والملبس يكتنان الجسم من الحصول على القدر اللازم من الراحة والتوافق البدني والنفسي. ولكي تستمر الثقافة في أداء وظيفتها من ناحية إشباع تلك الحاجات الإنسانية الضرورية فمن الضروري إذن في رأي (مالينوفسكي) أن تتوافر اللوازم المادية كأدوات الصيد والحرب (مثلاً) ولابد من وضع قواعد ونظم واجبة الاحترام والطاعة والتطبيق لإحكام الضبط الاجتماعي، علاوة على ضرورة وجود تقسيم للعمل على أساس الجنس والسن، وتحديد الأدوار والمكانات بين الأفراد مما يؤدي إلى نشوء تنظيم اجتماعي متماسك له صفتا الاستقرار والاستمرار.

أما عن الفنون والرقص والشعائر الدينية، فتلك تمثل الجانب الروحي والرمزي الذي تستمد منه النظم الأخرى تكوينها وفاعليتها، وفي إطار هذا التنظيم المادي والروحي يذكر (مالينوفسكي): أنه يمكن للأفراد أن ينشئوا لأنفسهم ثقافة خاصة أو أسلوباً معيناً للحياة، ويضمن لهم إشباع حاجاتهم البيولوجية الأساسية.

ربط (مالينوفسكي) الثقافة بكل جوانبها المادية والروحية بالاحتياجات الإنسانية، فالثقافة في رأيه كيان كلي وظيفي متكامل يماثل الكائن الحي، بحيث إنه لا يمكن فهم دور أو وظيفة أي عضو من أعضائه إلا في ضوء علاقته بباقي أعضاء الجسم، ومن خلال هذا التشابه بين الثقافة والكيان العضوي للإنسان فإن دراسة الدور أو الوظيفة التي يؤديهما كل عنصر ثقافي تمكن الباحث الأنثولوجي من اكتشاف ماهيته وضرورته. فالعنصر الثقافي لا يمكن فهمه - في نظر مالينوفسكي - عن طريق إعادة تكوين تاريخ نشأته أو انتشاره كما دعا إلى ذلك (بواز)، وإنما من خلال دراسة وظيفته الفعلية، وفي إطار علاقته مع العناصر الأخرى يترتب على ذلك ضرورة دراسة ثقافات الشعوب كل على حدة في إطار وضعها الحالي لا كما كانت عليه أو كيف تغيرت.

وبصفة عامة يمكن القول: إن (مالينوفسكي) قد قدم مفهوم الوظيفة بوصفها أداة منهجية لتمكن الباحث الأنثروبولوجي من إجراء ملاحظاته بطريقة مركزة ومتكاملة أثناء وصفه للثقافة البدائية. فمفهوم الوظيفة في نظر (مالينوفسكي) يعني الدور أو الإسهام الذي يقوم به كل نظام اجتماعي في حياة المجتمع كله؛ ولذلك لا يمكن لنا فهم وظيفة أي نظام اجتماعي في

مجتمع ما ، بسيطاً كان أو مركباً ، إلا في ضوء علاقة وظيفة (أو وظائف) هذا النظام مع وظيفة (أو وظائف) النظم في تحليل الثقافة البدائية إلى عناصر جزئية تسهل معها الدراسة الوظيفية وفهم الطريقة التي تسير بها الأمور في المجتمع ، والتي تعمل على تماسكه واستمراره . فالنظام الاجتماعي في نظر (مالينوفسكي) هو نسق منظم ، وهادف لجهد وإنجاز إنساني .

وإذا انتقلنا إلى (راد كليف براون) مؤسس المدرسة البنائية وجدنا أنه قد قام بدور رئيس في بلورة الفكر البنائي وتدعيمه في الدراسات الأثنولوجية منذ بداية القرن العشرين وفي توجيه الأثنولوجيا نحو الدراسات المتزامنة ، والابتعاد عن الفكر التطوري بافتراضاته التاريخية ، إلا أنه يختلف مع (مالينوفسكي) في تفسيره للثقافة في إطار بيولوجي . فقد اتجه (راد كليف براون) نحو دراسة المجتمع وتفسير الظواهر الاجتماعية تفسيراً اجتماعياً بنائياً وظيفياً متأثراً في ذلك بكتابات (أميل دور كايم) ، الذي طرح فكرة : أن الوظيفة التي تطبق على المجتمعات الإنسانية تقوم على المماثلة بين الحياة الاجتماعية والحياة العضوية . وانطلاقاً من هذا المفهوم تصوّر (راد كليف براون) أنه كما أن للجسم الإنساني بناءً ، أو تركيباً متكاملاً ، فإن المجتمع (أيضاً) نه تركيب أو بناء اجتماعي يتكون من «الأفراد الذين يرتبط بعضهم ببعض ، وكل واحد منهم متماسك مع الآخر عن طريق علاقات اجتماعية مقررّة .

هذا ويرتبط استمرار هذا البناء بعملية الحياة الاجتماعية ذاتها ، بمعنى أن الحياة الاجتماعية ذاتها في أي مجتمع معين هي التي تكون ذلك البناء

وتحافظ على كيانه .

ففي مقالة عن «البناء الاجتماعي» يوضح (راد كليف براون) أنه يندرج تحت المفهوم كل العلاقات الاجتماعية التي تقوم بين شخص وآخر، كما يدخل أيضاً التمايز القائم بين الأفراد والطبقات بحسب أدوارهم الاجتماعية . ويستطرد (راد كليف براون) القول موضحاً: «إن الحقيقة العينية التي نهتم بها في دراستنا للبناء الاجتماعي هي تلك الفئة من العلاقات القائمة بالفعل في لحظة معينة بالذات من الزمان، والتي تربط بين جماعة معينة من الناس، فملاحظتنا المباشرة تنصب في الواقع على مثل هذه الحقائق، ولو أنها ليست الشيء الذي نحاول أن نصفه في كل تفاصيله ودقائقه . فالعلم - من حيث هو متميز عن التاريخ أو تراجم حياة الأفراد - لا يهتم بالجزئي أو بالشيء الفريد وإنما يهتم فقط بالعام، أي بالأنواع، وبالأحداث التي يتكرر وقوعها . فالعلاقات القائمة بين: أ، ب، ج مثلاً وكذلك السلوك هي كلها أمور قد ندونها في مذكراتنا أثناء الدراسة الحقلية . ثم نستخدمها كأمثلة للوصف العام، ولكن الذي نحتاج إليه للأغراض العملية دراسة صورة البناء، فإذا لاحظت (مثلاً) في إحدى القبائل الأسترالية عدة حالات لنوع السلوك القائم بين الخال وابن الأخت فإنني أفعل هذا لكي أسجل بكل دقة الصورة العامة أو السوية لهذه العلاقة مجردةً من كل تغيرات الأمثلة الجزئية رغم وضع هذه الاختلافات في الحسبان .

وهذا التمييز بين البناء من حيث هو حقيقة عينية موجودة بالفعل يمكن ملاحظتها مباشرة، والصورة البنائية - بالشكل الذي يصفه لنا الباحث الحقلّي - يمكن توضيحها إذا نظرنا إلى استمرار البناء الاجتماعي خلال الزمن، فاستمرار هذا البناء ليس استمراراً استاتيكيّاً كاستمرار مبنى من المباني، وإنما هو استمرار ديناميكي يشبه استمرار البناء العضوي للجسم الحي، فالكائن العضوي يتجدد بناؤه باستمرار طوال حياته، وكذلك الحياة الاجتماعية تتجدد باستمرار البناء الاجتماعي.

وفي معرض المقارنة بين (مالينوفسكي) و(راد كليف براون) ربما يمكن القول: إنه إذا كان السؤال الرئيس عند (مالينوفسكي) - والذي حاول الإجابة عنه في سلسلة من الكتابات عن أهالي جزر التروبرياندي شرق غينيا الجديدة - وهو كيف تعمل مجموعة من العادات والتقاليد والنظم الاجتماعية، لتفي بالاحتياجات الجسمية والنفسية للأفراد فإن (راد كليف براون) قد وجه بحوثه في جزر الأندمان نحو مسألة تماسك النظام الاجتماعي، أي: كيف يمكن الحفاظ على التضامن والترابط بين مكونات الكيان أو البناء الخاص بمجتمع معين؟ وبالتالي فقد رفض كلاهما فكرة تجزئة عناصر الثقافة، أو مكونات البناء الاجتماعي إلى وحدات صغيرة يعمل الباحث على تقصي تاريخ منشئها وانتشارها، أو تطورها عبر الزمان أو المكان، كما دعا إلى ذلك التطوريون أو الانتشاريون وقد تطلب هذا المنطلق النظري الاتصال المباشر بالثقافات - موضع الدراسة - من خلال منهج الدراسة الحقلية لوصفها في حالتها الراهنة، أو الآنية، والذي كان

(المالينوفسكي) الفضل ، وربما أكثر من (راد كليف براون) في طرحه وتدعيمه . وفي أعقاب نشر كل من (مالينوفسكي) و(راد كليف براون) لأعمالهما وجد اتجاهاهما البنائي الوظيفي في دراسة الثقافات الإنسانية قبولاً واسعاً وبخاصة في وقت بدأت المدرسة التطورية تفقد اتباعها ومؤيديها ، وكذلك عجزت المدارس الانتشارية عن أن تجد الكثير من التأييد في غيبة البرهان على صدق فروضها وبسبب الرغبة وخاصة من قبل الإدارات الحكومية الممولة للبحوث ، والجمعيات المدرسية أيضاً في أولوية الحاجة لدراسة ثقافات الشعوب المستعمرة أعطى ذلك الاتجاه البنائي الوظيفي دفعة قوية ، وانتشاراً سريعاً في أوروبا وأمريكا على حد سواء ، بخاصة بعد أن أثر مالينوفسكي في عقول طلاب جامعة بيل خلال خمس سنوات (١٩٣٩-١٩٤٤) بمحاضراته عن قواعد المنهج الحقلي ، كما كان (لراد كليف براون) تأثير في الأمريكيين خلال فترة تدريسه بجامعة شيكاغو من عام (١٩٣١-١٩٣٧) .

وبصفة عامة - كنتيجة من نتائج الاتجاه البنائي الوظيفي الهامة - نجد حركة واسعة بين الأنثروبولوجيين للخروج من أوروبا في الثلاثينيات والأربعينيات لإجراء دراسات حقلية في أماكن متعددة من المستعمرات لجمع مادة أولية لوصف الثقافات وتحليلها في سياقها الواقعي . وقد نتج عن ذلك الكثير من الكتابات الوصفية والتحليلية للقبائل والمجتمعات المحلية الصغيرة بالمستعمرات الأوروبية في آسيا وأفريقيا ، الأمر الذي أثرى الأثنولوجيا بمادة أولية جمعت بطريقة منهجية تفوق - ولا شك - تلك

المعلومات التي كان قد جمعها الرحالة والمستكشفون في القرون السابقة . ولعل من بين الإسهامات التي أتت بها المدرسة البنائية الوظيفية هو تأكيد خاصية نسبية الثقافة الإنسانية ، الأمر الذي ساعد على تقويض دعائم فكرتي العنصرية والتعالي الغربيتين ، حيث أوضح التحليل البنائي الوظيفي للمجتمعات البدائية أن الثقافة أسلوب حياة له مقوماته العقلانية ، كما يعكس مواءمة مقبولة بين الناس والبيئة والاحتياجات الفردية .

وبصدد دراسة استخدام مصطلح «المجتمعات البدائية» ربما تجدر الإشارة هنا إلى ما ذكره الأنثروبولوجي البريطاني الشهير ، (إيفانز بريشارد) من أن كلمة بدائي هي في حقيقة الأمر اختيار غير موفق لوصف المجتمعات المنعزلة غير الأوروبية ، والواقعة تحت طائلة الاستعمار الغربي ، إلا أنها أصبحت اصطلاحاً واسع الانتشار إلى حد لا يمكن تجنبه . وعلى أية حال يستخدم الأنثروبولوجيون هذا الاصطلاح ليشيروا إلى المجتمعات الصغيرة سواء من ناحية عدد السكان أو المساحة أو شعب العلاقات الاجتماعية . وتتصف المجتمعات البدائية (عادة) ببساطة الفنون والأدوات ، والنظم الاقتصادية وقلة التخصص في الوظائف الاجتماعية إذا قورنت بالمجتمعات الأوروبية إلى جانب ذلك يضيف بعض الأنثروبولوجيين بعض المقاييس والمعايير الأخرى مثل عدم وجود تراث مكتوب ، وبالتالي عدم وجود أي فن متقدم أو علم لاهوتي (ديني) منهجي منظم .

لقد سبق أن أوضحنا في المبحثين السابقين كيف أن فكرة دراسة المجتمعات البدائية قد جذبت انتباه المشتغلين دراسة النظم الاجتماعية منذ

القرن الثامن عشر ، فقد نظر إليها الفلاسفة على أنها تمثل الحالة الطبيعية التي ظنوا أن الإنسان كان يعيشها قبل أن يظهر نظام الحكومة المدنية . اهتم بها بعد ذلك علماء الأنثروبولوجيا في القرن التاسع عشر ؛ لاعتقادهم أنها تقدم لهم الدلائل والشواهد التي تساعد في البحث عن أصول النظم الاجتماعية ، وتتبع مراحل تطورها ، أما الأنثروبولوجيون في القرن العشرين - وبخاصة الوظيفيون - فقد وجدوا في المجتمعات البدائية أنسب أشكال الحياة الاجتماعية التي تساعد على دراسة النظم الاجتماعية كأجزاء مترابطة في النسق الاجتماعي . كذلك يسهل في هذه المجتمعات القيام بالملاحظة المباشرة لوقائع الحياة اليومية ، والوقوف على ترابط النظم الاجتماعية بعضها مع بعض في صورة متكاملة . ولعل من الأسباب التي جعلت أنثروبولوجيا الربع الأول من القرن العشرين تركز أيضاً على هذا النوع من المجتمعات دون غيره هو تعرضها للتغير واحتمال الاندثار السريع لملامح الثقافة البدائية ، نتيجة تعرض هذه المجتمعات إلى الاحتكاك الثقافي بالعالم الغربي .

رغم التبريرات والأسباب التي قدمها (إيفانز بريتشارد) لاختيار المجتمعات والثقافات البدائية كمجال دراسي وحقل عملي للأنثولوجيا فقد ربط الكثيرون بين هذا الاختيار وأيدولوجية الأهداف الاستعمارية لدول أوروبا الغربية ، وأوضحوا أن الصلة بين الأنثولوجيا والاستعمار التي بدأت منذ نشأتها إبان القرن التاسع عشر لم تنته ؛ وذلك لارتباطها الوثيق بسياسة الإدارة غير المباشرة للمستعمرات البريطانية بصفة خاصة ، فقد قامت هذه

السياسة على أساس دعم فكرة التطور التدريجي أو البطيء للمجتمعات الواقعة تحت الاستعمار، الأمر الذي يدعو إلى بقاء الأنظمة السياسية التقليدية في تلك المجتمعات على الحال التي هي عليه وبالقدر الذي يسمح لسلطات الاحتلال بمباشرة إدارة هذه المستعمرات واستغلال مواردها دون عناء.

ويؤخذ على الوظيفيين الإنجليز تأييدهم هذه السياسة؛ لأنها تتضمن - من وجهة نظرهم - استمرار الحياة التقليدية لشعوب المستعمرات والتي كانوا قد تعاطفوا معها ووجدوا فيها مجالاً طيباً للدراسة الأثروبولوجية الحقلية التي شجعتها ومولتها الحكومة البريطانية. وعلى المستويين النظري والمنهجي فقد رأى بعضهم قصوراً كبيراً في المدرسة البنائية الوظيفية يتمثل في أن الدراسات المتزامنة قد أغفلت - أو على الأقل - قللت من أهمية دراسة ظاهرة التغير وتحليلها التي توجد في كل المجتمعات ولو بدرجات متفاوتة وأشكال مختلفة؛ لهذا رأى كثير من الباحثين أن أعمال الوظيفيين تضمن وصفاً للمجتمعات البدائية، وكأنها في حالة ثبات واستقرار دائمين، وهذا أمر يتنافى مع طبائع الأشياء وأمور الحياة. ويذكر الذين يدافعون عن اتجاهات الوظيفيين أنهم لم يهتموا في حقيقة الأمر دراسات التغير في حد ذاتها، وإنما وجدوا أن دراسة تاريخ النظم الاجتماعية أو السمات الثقافية لن يساعد الباحث على فهم الوظائف الفعلية لتلك النظم أو الترابط القائم بين بعضها.

فقد ذكر (مالينوفسكي) في كتابه «ديناميكيات التغير الثقافي» الذي نشر بعد وفاته أن دراسة التغير الثقافي لا تستلزم التأويل التاريخي ؛ لأنها - في الحقيقة - تتضمن مقارنة بين ثقافتين تسودان مجتمعين مختلفين ، وفي فترتين زمنيتين مختلفتين ، الأمر الذي يدعو إلى عدم تتبع الأحداث والظواهر الثقافية عبر الزمن . فالاتجاه الوظيفي لدراسة التغير الثقافي أو الاجتماعي في رأي (مالينوفسكي) يقوم على افتراض وقت محدد أو فترة معينة لتكون بمثابة نقطة صفر و فاصل زمني بين فترتين مختلفتين لكل منهما ثقافة خاصة ، وبهذا تتم المقارنة بين الأوضاع التي كانت سائدة قبل الخط الفاصل أو نقطة الصفر والأوضاع القائمة بعدها . وبهذه الطريقة يتسنى للباحث الأنثولوجي دراسة كل ثقافة في إطارها التكاملي وكيانها المستقل وفترتها الزمنية الخاصة بها .

وفي مجال منهج الدراسات الأنثروبولوجية الحقلية للمجتمعات البدائية نود الإشارة أولاً إلى أنه سبق أن ذكرنا أن الأنثولوجيا كانت قد اعتمدت في نشأتها النظرية واستقلالها الأكاديمي على معلومات ومادة مستقتاتين من مصادر ثانوية ، بمعنى : أن الباحثين الأنثروبولوجيين لم يقوموا - بأنفسهم - بإجراء الملاحظة أو المشاهدة لما وصفوه من سلوك . وربما كان الاستثناء الوحيد لذلك هو (لويس مورجان) الذي كان بحكم طبيعة عمله كرجل قانون بين قبائل الأيروكوا الهندية قد تهيأت له الفرصة للملاحظة ، والتحدث مع أفراد القبيلة . وعلى عكس التطورين فإن اهتمام الوظيفيين البالغ بإظهار الترابط بين الأشياء كلها بداخل ثقافة معينة

قد تطلب ضرورة الملاحظة المباشرة عن طريق الدراسات الحقلية التي سبق أن بدأت أهميتها تتضح في عام (١٨٩٨) م عندما قامت بعثة جامعة كمبريدج البريطانية بدراسة منطقة مضائق توريس في المحيط الهادي كما ذكرنا في المبحث السابق . هذا وقد ساعد (مالينوفسكي) على تطوير الدراسة الحقلية ووضع أسسها المنهجية في ضوء دراساته العميقة في جزر التروبريانند التي ذهب إليها قبل الحرب العالمية الأولى ، ومكث هناك حتى نهايتها نحو (أربع سنوات) ، وبذلك ضرب (مالينوفسكي) الرقم القياسي للفترة الزمنية المتواصلة التي يمكن أن يقضيها الباحث الأنثروبولوجي في المجتمع موضع الدراسة .

تعلم (مالينوفسكي) لغة سكان هذه الجزر وعاش نمط معيشتهم نفسه مما ساعده على التعمق في فهم ثقافتهم وتحليل مكوناتها والربط بينها ، قضى (مالينوفسكي) معظم أوقاته يؤلف ويكتب المقالات عن تجربته الحقلية ونتائج دراسته التي تضمنت وصفاً وتحليلاً للأحوال الاقتصادية وأشكال الضبط الاجتماعي ونظم الزواج وعلاقات القرابة عند سكان جزر التروبريانند إلى جانب السحر والدين والطقوس عندهم .

نشر (مالينوفسكي) في عام (١٩٢٢) كتابه المشهور «بحارة غرب المحيط الهادي الجسورون» ووضع فيه أسس الدراسة الحقلية وقواعدها ومتطلباتها . إن القارئ لمقدمة هذا الكتاب ليستمتع حقاً بوصف (مالينوفسكي) للظروف التي أحاطت بإجراء الدراسة ، شارحاً بأسلوب واضح وممتع وقائع خبرته ، ومستخلصاً مسائل منهجية ، وأساسية للدراسة

الحقلية . إن قيمة الدراسة الحقلية - في رأيه - تكمن في أن يتفهم الباحث الأنثوجرافي بعمق كيف ينظر الأهالي إلى العالم المحيط بهم وكيف يتعاملون معه . ويمكن أن نقدم فيما يلي بعض أساسيات منهج الدراسة الحقلية وذلك على النحو التالي :

أ- يؤكد (مالينوفسكي) أنه لا يمكن الوصول إلى فهم عميق ودراسة مركزة وشاملة لثقافة جماعة ما ما لم يقم الباحث بالاتصال المباشر والمعايشة اليومية لسكان المجتمع موضع الدراسة . ولا يكفي أن يذهب الباحث إلى منطقة الدراسة كزائر ثم يعاود زيارته إلى القبيلة أو الأفراد الذين يصف حياتهم ، بل يجب على الباحث أن يندمج مع الجماعة التي يدرسها اندماجاً كلياً ، ويعيش حياتهم قدر الإمكان بحيث يستطيع ملاحظة مظاهر نشاطهم اليومي ، ويتابع حياة الجماعة من داخل الجماعة وليس من خارجها . ويقترح (مالينوفسكي) أنه لابد من أن يقضي الباحث عاماً كاملاً على الأقل في مجتمع الدراسة حتى يتسنى له ملاحظة أوجه نشاط الجماعة وتحليلها في الفصول المختلفة وعلى مدار السنة .

ب- يوصي (مالينوفسكي) بتعليم الباحث الأنثروبولوجي لغة المجتمع موضع الدراسة ؛ لأن الاستعانة بالترجمين لا تساعد الباحث كثيراً على تكوين علاقات شخصية مع أفراد الجماعة في المجتمع موضع الدراسة ، كما أنه قد يغيب عن الباحث فهم الكثير نتيجة للصلة بين اللغة والثقافة ، الأمر الذي لا يستطيع الحصول عليه عن طريق الترجمة ، بخاصة أن معرفة المترجمين للغات الأجنبية تكون - غالباً - محدودة .

ج- يؤكد (مالينوفسكي) أن إقامة الباحث الأنثروبولوجي بمجتمع الدراسة، وتعلم لغة سكان المجتمع أمران ضروريان، لأنهما يساعدان على ما أسماه «الملاحظة بالمشاركة» وهي طريقة جمع المادة عن طريق الاشتراك في الأنشطة اليومية لسكان المجتمع موضع الدراسة، بمعنى أن الباحث لا يقف موقف المشاهد عن بعد، وإنما يلجأ إلى المشاركة الفعلية فيما يقوم به الأفراد في المناسبات المتعددة والمجالات المختلفة التي تشكل أساساً جوهرياً في فهم الثقافة، فالباحث في رأي (مالينوفسكي) لا يمكنه الوصول إلى حقيقة المعاني الرمزية أو الضمنية لسلوك معين في مناسبة خاصة دون أن يكون له فرصة الجمع بين الملاحظة والمشاركة في الوقت نفسه.

وبعد هذا العرض الموجز لجوهر الاتجاه البنائي الوظيفي وبعض قواعد منهج الدراسة الحقلية، يمكن القول: إن عشرينيات القرن العشرين ثلاثينياته قد نقلت الأنثولوجيا من إطارها التقليدي القديم إلى منطلقها التجريبي الحديث، فالممارسة الميدانية التي ركز عليها الوظيفيون قد أعطت مفهوماً جديداً لدراسة المجتمعات البدائية، إذ هدفت إلى فهم حياة هذه المجتمعات كما هي من الداخل، وليس بقصد تصوير الأشكال الأولية للنظم الاجتماعية أو إعادة تركيبها، كما جاء في فكر المنهج التاريخي في دراسة الثقافات الإنسانية؛ وبذلك انتزع الوظيفيون الأنثولوجيا من منهج إعادة تركيب التاريخ الذي يقوم على أساس من الحدس والتأويل الظني، وأدخلوها في إطار الوصف والتحليل للحاضر والواقع الذي يستند إلى الملاحظة والمقارنة. فالباحث - على عكس الوضع في القرن التاسع عشر -

أصبح جامعاً للمادة ومحللاً ومنظراً لها في الوقت نفسه . وبهذا أحدثت المدرسة الوظيفية تطوراً كبيراً في المنهج والنظرة التحليلية لثقافات المجتمعات البدائية .

لقد ساد هذا الاتجاه إلى الدراسة الميدانية في إنجلترا آنذاك ، وكان لكتابات (مالينوفسكي) - في الحقيقة - أثرها الكبير في جذب عدد كبير من الدارسين - من مختلف التخصصات - إلى مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية التي اتخذها (مالينوفسكي) مركزاً له خلال الفترة من (١٩٢٤) إلى (١٩٣٨) . كما نتج عن ذلك أن خرج عدد لا بأس به من هؤلاء الدارسين للعمل الحقل في جزر نائية عن أوروبا وبخاصة في المحيط الأطلسي نتيجة جهودهم الميدانية بدراسات قيمة ، نذكر من بينها دراسة (رايموند فيرث) الشهيرة «نحن أهل تيكوبيا» (١٩٣٦) . واستمر الاهتمام بالدراسات الحقلية للمجتمعات البدائية وفقاً لتعاليم (مالينوفسكي) قائماً حتى خلال سنوات الحرب العالمية الثانية ، إلى أن استطاع (راد كليف براون) أن يسيطر على الفكر الأنثروبولوجي الإنجليزي ، وأن يوجهه بعيداً عن العمل الأثنوجرافي الميداني إلى الفكر النظري في إطار التحليل البنائي للعلاقات الاجتماعية داخل مجتمع الدراسة . وهكذا انتقل التوجيه الأنثروبولوجي بإنجلترا من لندن إلى أكسفورد حيث تركز أصحاب المدرسة البنائية مثل : (إيفانز بريتشارد) و(ماير فورترس) وعلى رأسهم (راد كليف براون) الذي تولى منصب الأستاذية بجامعة أكسفورد في عام (١٩٣٧) .

ونتيجة لذلك ، فقد بدأ الأنثروبولوجيون الاجتماعيون يهتمون بمسائل جديدة مثل : دراسات القرابة وبخاصة النظم السياسية ، وفي نقل العمل الحقلية من المحيط الهادي إلى أفريقيا . ومن الجدير بالذكر هنا أنه ظهرت في عام (١٩٤٠) ثلاثة أعمال لها أهميتها في توجيه الفكر والدراسة الأنثروبولوجية في إنجلترا خلال فترة ما بعد الحرب . أولها كتاب «الأنساق السياسية الإفريقية» الذي ألفه (مايرونويتس) (وإيفانز - بريشارد) ، وقدم له (رادكليف براون) ، وثانيهما وثالثهما كتابا (إيفانز - بريشارد) عن «النوير» والنسق السياسي عند الأنوك . وترجع أهمية تلك الأعمال إلى أنها تناولت موضوعات جديدة مثل : دراسة الأنساق السياسية لمجتمعات ليس لديها حكومة مركزية ، كما كشفت تلك الأعمال أوجهاً جديدة للأنساق السياسية الانقسامية والتي حللت العلاقات القرابية بتلك المجتمعات وذلك على مستوى العلاقات الشخصية . إن هذه الدراسات - في مجملها - قد وضعت أساسيات الدراسات الحقلية للأنثروبولوجيين الإنجليز بمجتمعات أفريقيا خلال عقد الخمسينيات .

ثالثاً: الاتجاه التاريخي - النفسي:

ازدهر الاتجاه البنائي - الوظيفي في أوروبا وبخاصة بريطانيا ، كما وجد أتباعاً له في بعض الجامعات الأمريكية كما رأينا . أما الاتجاه التاريخي التجزيئي الذي دعا إليه (بواز) ونشأت في إطاره الأثنولوجيا الأمريكية فقد بدأ يتعدل ويتجه في مسارات جديدة وذلك على يد عدد من تلاميذ (بواز) ،

فهناك من طرح فكرة توسيع مفهوم التاريخ، وهناك من تأثر بما يجري في ميدان علم النفس وبخاصة على أيدي (سيجموند فرويد) (١٨٥٦-١٩٣٩) وتلاميذه، ورأوا إمكان فهم الثقافة عن طريق التاريخ إلى جانب الاستعانة ببعض مفاهيم علم النفس وطرقه التحليلية، وبرز أثر ذلك الاتجاه نحو الكشف عن التشكيلات أو الأنماط الثقافية عند الشعوب أو الجماعات الإنسانية.

فمن ناحية النظرة المعدلة لاستخدام التاريخ في الدراسات الأثنولوجية نجد أن الأمريكي (الفريد كروبر) (١٨٧٦-١٩٦٠) قد رأى أن التاريخ لا يعني فقط دراسة تتابع الظواهر والأحداث في الزمن كما فهمه الوظيفيون، وإنما يهدف في النهاية إلى إعطاء وصف متكامل لموضوع الدراسة، وبهذا يمكن استخدام التاريخ في دراسة الوقائع والأحداث الجارية في مجتمع معين، وعلى أساس هذا التوسع في مفهوم التاريخ عند (كروبر) تكون منهج يأخذ في الحسبان الزمان والمكان، تصبح الأثنولوجيا دراسة تاريخية في المقام الأول، ويكون هدفها التمييز بين النماذج أو الأنماط الثقافية التي يمكن استخلاصها من الدراسة المقارنة للشعوب.

وعلى الرغم من محاولة (كروبر) توسيع مضمون المنهج التاريخي إلا أن بعض تلاميذ (بواز) الآخرين وفي مقدمتهم (روث بنديكت) (١٨٨٧-١٩٤٨) قد وجدوا أن التاريخ وحده لا يكفي لتفسير الثقافة، وذلك أنها - في تصورهم - مسألة معقدة تجمع بين التجربة التي اكتسبت عبر الزمن

وخلال التاريخ ، والتجربة السيكلولوجية ، وأن أية سمة من السمات الثقافية تضم بذلك مزيجاً من النشاط السيكلوجي والثقافي بالنسبة لبيئة معينة ، وكان من نتيجة ذلك أنهم لجؤوا إلى الاستعانة بمفاهيم علم النفس . وقد كانت دراسة (بنديكت) المشهورة «أنماط الثقافة» (١٩٣٢) بداية لبلورة هذا الاتجاه التاريخي النفسي لدراسة الثقافات . فقد أوضحت في هذا الكتاب ضرورة النظر إلى الثقافات في صورتها أو تشكيلها الإجمالي . فكل ثقافة في نظر الباحثة (روث بنديكت) تركز حول مبدأ أساسي أو محور رئيس يعطيها نمطاً أو تشكيلاً خاصاً بها ويميزاً لها عن غيرها من الثقافات . وقد قامت (بنديكت) بإجراء دراسة مقارنة لعدة من ثقافات بدائية حيث أوضحت العلاقات القائمة بين «الصيغة الثقافية العامة ومظاهر الشخصية ، كما تنعكس لدى الأفراد في تلك المجتمعات . وربما تجدر الإشارة هنا إلى أنه بينما بدأ (مالينوفسكي) نظرتة للثقافة من الفرد ، وعدّ الظواهر الثقافية مشتقات من الحاجات الفردية ، بدأت (روث بنديكت) من «الصيغ الثقافية» وعدّت السلوك الفردي مجرد اتفاق وتواءم مع التعاليم والمثل القيم والاتجاهات الثقافية الموجودة بالفعل» .

إن محاولة الاستعانة بمفاهيم علم النفس في مجال الدراسات الأثنولوجية ليست بالأمر الجديد في حقيقة الأمر ، إذ إنها كانت قد طرحت إبان القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، عندما لجأ بعضهم إلى الاستيطان للتعرف على أصل السمات الثقافية ونشأتها وبخاصة في مجال دراسات الظواهر الدينية والسحر والأساطير .

إلا أن هذا الاتجاه لم يزدهر خاصة تحت تأثير المدرسة الاجتماعية الفرنسية التي رأت أن الظواهر الاجتماعية لا بد أن تفسر في حدود علم الاجتماع ، لا علم النفس كما جاء في كتابات (دوركاييم) وبخاصة في كتابه الشهير عن قواعد المنهج في علم الاجتماع . ورغم استمرار الاعتراض لدى كثير من الأنثولوجيين في أمريكا والأنثروبولوجيين الاجتماعيين في إنجلترا على استخدام علم النفس لتفسير الثقافة أو الظواهر الاجتماعية فقد وجد هذا الاتجاه التاريخي النفسي في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين فرصة طيبة للازدهار بسبب انتشار نظريات التحليل النفسي ، وبخاصة دراسات الشخصية ، وقد استعان بعض الأنثروبولوجيين بالمفاهيم النفسية التي قدمتها مدرسة (سيجموند فرويد) بصدد تحليل العلاقات القائمة بين الثقافة والفرد وتأثير كل واحد منهما بالآخر .

وربما كان من أهم الموضوعات التي ركز عليها الأنثولوجيون النفسيون دراسة التمييز بين الجماعات والثقافات تبعاً للخصائص النفسية السائدة فيها . وظهر نتيجة لذلك عدد من الدراسات التي عالجت موضوع الطابع القومي للشخصية والذي يهدف إلى تحليل المقومات النفسية الرئيسة وتفسيرها ، والتي يتميز بها شعب دون آخر أو ثقافة دون أخرى . وقد ازدهرت هذه الدراسات لارتباطها بالدعاية وأحداث الحرب العالمية الثانية ، وظهرت عدة من المؤلفات عن الشعوب المشتركة في الحرب ، وبخاصة اليابان . ولم يقتصر الأمر عند حد الدراسة النظرية ، وإنما شمل (أيضاً) إمكان توظيف المادة الأنثروبولوجية لأغراض عملية .

ولعل من أهم الممارسات التطبيقية في هذا المجال دراسة (روث بنيدكت) بعنوان «زهرة الكريزتم والسيف» (١٩٤٦) وهي تمثل دراسة الثقافة والشخصية اليابانية . وقد كان لهذه الدراسة قيمة كبيرة في بلورة السياسة الأمريكية نحو استسلام المحاربين اليابانيين في المحيط الهادي . فبناء على ما أوضحت هذه الدراسة عن أهمية الإمبراطور كرمز مقدس في العقلية اليابانية ، واحترام الجنود الشديد للسلطة الحاكمة في شخص الإمبراطور ، ومدى ولائهم له أبقت الحكومة الأمريكية على مركز الإمبراطور وأيقنت أنه من الحكمة أن يصدر الإمبراطور الياباني تعليمات الاستسلام لجنوده الذين كانوا يحاربون في جنوب شرق آسيا ، وبهذا تم تفادي حقن كثير من الدماء التي كان من الممكن أن تسيل فيما لو طلبت القوات الأمريكية الغازية من الجنود اليابانيين الاستسلام . أوضحت الدراسة أن الجنود اليابانيين كانوا سيرفضون قطعاً الاستسلام ويستمرون في القتال حتى الموت ، ولكن تحت تأثير مبادئ الطاعة والولاء التقليدي للإمبراطور وخضوع هؤلاء الجنود لتعليماته .

كذلك نجد بعض كتابات الأنثروبولوجيا خلال الثلاثينيات والأربعينيات قد تناولت العنصرية ونقدها ، وذلك في مواجهة محاولات (رادولف هتلر) (١٨٨٩-١٩٤٥) عدّ العنصر الألماني من العناصر الدخيلة ، وخلق نوع من البشر يتميز عن السلالات الأخرى في القدرات العقلية والجسمية ونتيجة لذلك أخذت مسألة السلالات والعناصر البشرية مكاناً مميزاً في الدراسات الأنثولوجية في ذلك الوقت بسبب الأحداث السياسية التي كانت واقعة حينذاك .

وفي الوقت نفسه ظهرت مدرسة ثقافية نفسية قوية في الولايات المتحدة الأمريكية، وكان من روادها (كلايد كلوكهون) (١٩٠٥-١٩٦٠) و(مرجريت ميد) كما اشترك بعض علماء النفس مع الانثروبولوجيين في إجراء دراسات وتحليلات مشتركة. نذكر منها مثلاً: العالم النفسي (إبرام كاردنر) الذي اشترك مع الباحث الأمريكي (رالف لينتون) (١٨٩٣-١٩٥٣) وغيره خلال الثلاثينيات من القرن العشرين في طرح مفهوم بناء الشخصية الأساسي الذي يشير إلى مجموعة الخصائص السيكولوجية والسلوكية التي يبدو أنها تتطابق مع كل النظم والعناصر والسمات التي تؤلف أية ثقافة. ركز (كاردنر) على ما أسماه المنظمات أو النظم الأولية التي ترتبط بتربية الأطفال في سنواتهم الأولى والتي تختلف من ثقافة إلى أخرى، ويفترض (كاردنر) أنه نتيجة لاشتراك مجموعة من الناس في نوع معين من النشأة والتربية خلال مرحلة طفولتهم، تسود سمات شخصية مشتركة بينهم عندما يكبرون، وترتبط هذه الصفات بالتشكيل النهائي للثقافة السائدة بين هؤلاء الأفراد. ومع أن النمط أو التشكيل الثقافي السائد لا يمكن أن يزيد أو يقلل من وجود الفوارق الفردية في نطاق الثقافة الواحدة، إلا أن العلاقة بين الأنماط الثقافية والشخصية الفردية والتأثيرات المتبادلة بينهما أمر يجب ألا يهمل في حالة دراسة الثقافات الإنسانية.

وكما كان الحال بصدد الترابط والحوار اللذين كانا قائمين بين الاتجاه البنائي الوظيفي في الأنثروبولوجيا والاتجاه الوظيفي في علم الاجتماع، نجد أن حواراً وترابطاً آخر قد شمل الأنثروبولوجيا وعلم النفس. نذكر

مثلاً أن (مالينوفسكي) اهتم بكتابات (فرويد)، وفحص نظريته عن المحرمات الجنسية في إطار المادة الحقلية التي كان قد جمعها من جزيرة التروبرياندا. وفي هذا الصدد خالف (مالينوفسكي) تفسير فرويد لعلاقة الابن بالأم وغيرته من الأب في إطار ما أسماه بعقدة (أوديب)، وقدم بدلاً عنها تفسيراً وظيفياً. فالمحرمات الجنسية التي توجد في كل المجتمعات الإنسانية تمثل وسيلة يستطيع من خلالها تنظيم العلاقات الجنسية بين الرجال والنساء من الأقارب في العائلة الواحدة، ومن هذه العائلة والأقارب الآخرين على اختلاف درجات القرابة. إن تحريم العلاقات الجنسية بين الأفراد المكونين للعائلة النووية (الأم والأبناء، والإخوة والأخوات) يمنع في نظر (مالينوفسكي) ما قد ينشأ من صراعات داخلية بسبب الغيرة والتنافس، الأمر الذي يفكك أو اصر الأسرة ويهدم كيانها، وبالتالي يضعف المجتمع كله ويهدد تماسكه.

لقد عرضنا في هذا المبحث ثلاثة اتجاهات رئيسة، تبلورت وسادت خلال العقود الأربعة الأولى من القرن العشرين، وذلك كرد فعل على نواقص النظرية التطورية، وبتأثير المناخ الفكري العام والأوضاع السياسية والاجتماعية السائدة (خاصة) في الغرب.

وكذلك التطورات التي حدثت في موضوعات ومناهج العلوم بصفة عامة، والعلوم الاجتماعية بصفة خاصة.

ومما هو جدير بالذكر أن تلك الاتجاهات المشار إليها لم ينشأ الواحد بعد

الآخر على النحو الذي عرضناه أو أن هناك تواريخ معينة، تحدد قيام أي اتجاه؛ وذلك لأن تلك الاتجاهات جميعها قد نشأت وتطورت وتبلورت خلال فترة الثلاثين أو الأربعين عاماً الأولى من القرن العشرين، وحتى انتهاء الحرب العالمية الثانية على وجه التقريب.

* * *

obeikandi.com

المبحث الرابع

«علاقة علم الإنسان بالعلوم الأخرى»^(١)

استناداً إلى تطور نظرية المعرفة وإلى الموقع المحدد للأنثروبولوجيا في هذه النظرية فإنها (الأنثروبولوجيا) تحتل مكانها المرتبط بعملية التطور المذكورة، وانطلاقاً من هنا تحدد علاقتها بالعلوم الأخرى.

ونقصد بالعلوم الأخرى :

أ- العلوم الاجتماعية : التي تنتمي الأنثروبولوجيا إليها مباشرة .

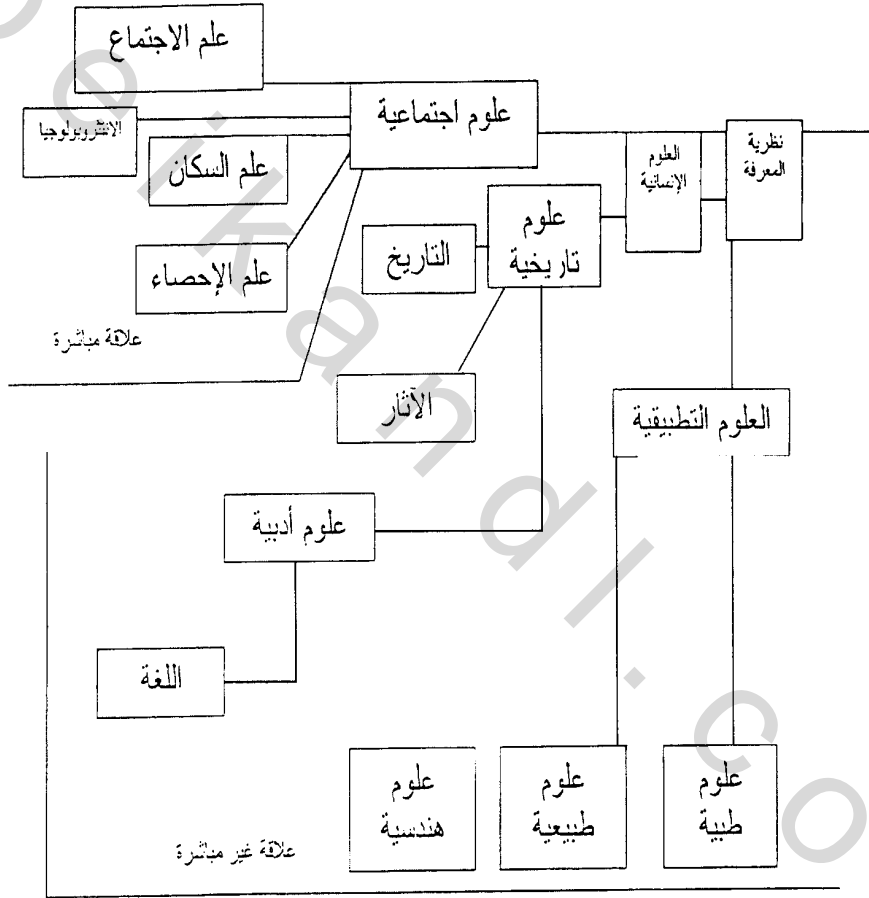
ب- العلوم الأخرى غير العلوم الاجتماعية : (أي بقية العلوم مثل : العلوم التاريخية والأدبية، والطبية والطبيعية . . إلخ).

ونعتقد أن معايير تحديد علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم الأخرى تستند إلى نوع العلاقة هل هي علاقة مباشرة أم غير مباشرة؟ والمباشرة نقصد بها : علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم الاجتماعية لأنها من طبيعتها أو من عائلتها المعرفية، أما العلاقة غير المباشرة فهي : علاقة الأنثروبولوجيا بباقي العلوم مهما كان نوع هذه العلوم، هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن تحديد علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم الأخرى يقف عند مضمون كل من الأنثروبولوجيا من جهة ومضمون العلم الآخر المراد تحديد علاقة الأنثروبولوجيا به (أي أن تحديد علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم الأخرى

(١) للمزيد من الاطلاع والتفصيل : انظر كتاب علم دراسة الإنسان «الأنثروبولوجيا» د. عدنان

مسلم . منشورات جامعة دمشق ١٩٩٢-١٩٩٣ م.

يشمل أولاً: نوعية العلاقة هل هي مباشرة أم غير مباشرة؟ ثانياً: مضمون هذه العلاقة وماذا يتضمن كل علم معرفياً. وكل ذلك استناداً إلى الشكل التوضيحي الذي يحدد موقع ومكانة الأنثروبولوجيا في نظرية المعرفة



شكل توضيحي يبين علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم الأخرى
استناداً إلى موقعها في نظرية المعرفة

أ- نماذج من العلاقة المباشرة:

١ - علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الاجتماع:

استناداً إلى الفهم الذي يجسد أن الأنثروبولوجيا هي دراسة الشعوب البدائية البسيطة والمنعزلة، وعلم الاجتماع هو دراسة الحضارة الأوربية الغربية، فإن الفارق بين العلمين كان واسعاً، وقد اتسع ذلك إلى مسألة المنهج المستخدم في كلا العلمين، فالأنثروبولوجي الذي يدرس جماعة صغيرة الحجم نادراً ما يحتاج إلى أن يشغل نفسه بمشكلات العينة على سبيل المثال، كذلك نرى أن استخدام أداة جمع البيانات (الاستمارة) في علم الاجتماع لم تستخدم على نطاق واسع في الدراسات الأنثروبولوجية ناهيك عن أن الأنثروبولوجيا في منهجية العمل تعتمد على الوصف والتوثيق أكثر من اعتمادها على التحليل وكشف العوامل المؤدية إلى وجود المشكلة . . . إلخ .

غير أن المسألة لم تقف عند هذا الحد، فمع النظرة التطورية لميدان الأنثروبولوجيا على أنها ليست العلم المعرفي الذي يدرس الشعوب البدائية وإنما هي الميدان المعرفي الذي يدرس الإنسان في مجتمعه المتطور فقد تشابه علم الاجتماع مع الأنثروبولوجيا في مجالات الدراسة وموضوعاتها المختلفة، وحتى في الطرق المنهجية والأدوات القياسية (نقصد بالطرق المنهجية: طريقة دراسة الحالة، التاريخية، التجريبية، تحليل المضمون . . . إلخ) والأدوات القياسية مثل: الاستمارة، المقابلة الشخصية،

الملاحظة . . . إلخ) فباتت المشكلات الأساسية في كل من العلمين تصل إلى درجة من التشابه تجعلهما يصلان إلى نظرية مقاربة، هذا إن لم تكن نظرية واحدة بالنسبة لكليهما، فمثلاً: أضحى مفهوم الثقافة يستخدم على نطاق واسع عند علماء الاجتماع (علم الاجتماع الثقافي)، وقد أثبت في هذا الصدد أنه أداة بحث هامة ومفيدة ويحرص كل علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا بدرجة متزايدة على أن يستفيدوا في وضع نظرياتهم بالمادة التي يقدمها كل منهم، وبات الأنثروبولوجي يرى أن وظيفته الأساسية هي خلق قدر من التكامل بين العلوم المختلفة التي تدرس الإنسان .

إذاً . . . الأنثروبولوجيا تدرس الإنسان في المجتمع المتطور ضمن النسق الاجتماعي، والبناء الاجتماعي، والإنسان كعادات وتقاليد وأمثال شعبية صادرة عنه، وسلوك اجتماعي محدد . . . إلخ .

وعلم الاجتماع يدرس الإنسان في المجتمع المتطور على أنه سلوك اجتماعي وعلاقات اجتماعية وبنية اجتماعية وطبقية . . . إلخ . ولعل الاشتراك في الموضوع بات واضحاً، إضافة إلى الاشتراك في استخدام الطرائق المنهجية التي أشرنا إليها (سابقاً) وكذا الأدوات القياسية .

٢- علاقة الأنثروبولوجيا بعلم النفس:

يدرس علم النفس الإنسان في إطار مشكلات السلوك، وقد ظل هذا الميدان المعرفي لفترة طويلة يهتم بالسلوك الفردي فقط، في حين كانت

الأنثروبولوجيا تميل إلى وضع تعميمات جماعية على أسس ثقافية، وصحيح أن الدراسات المقارنة التي أجراها علماء الأنثروبولوجيا قد ساعدت على تفويض نظريات الغرائز التي كانت شائعة قديماً في علم النفس إلا أن العلاقات الوثيقة بين كل من الأنثروبولوجيا وعلم النفس لم تكن تتكون وتنمو إلا بعد أن وجه علماء الأنثروبولوجيا اهتمامهم إلى موضوع العلاقة بين الثقافة والفرد.

وقد ظهر الاهتمام بمشكلات الأفراد في الأنثروبولوجيا في الوقت الذي كان علماء النفس يركزون فيه على مشكلات السلوك الحيواني؛ ونتيجة لهذا أخذ الأنثروبولوجيون يوجهون اهتمامهم إلى المتخصصين في التحليل النفسي والطب النفسي؛ يستمدون منهم مفاهيمهم النفسية، وما زال هذا الاتجاه واضحاً في الدراسات الأنثروبولوجية، وكذلك بالنسبة لموضوع الثقافة، ولعل التأكيد على أن كل ثقافة تمثل كياناً كلياً متكاملأ هي من الإسهامات الأساسية التي قدمتها الأنثروبولوجيا للعلوم الاجتماعية بشكل عام.

٣- علاقة الأنثروبولوجيا بعلم السكان؛

يدرس علم السكان التركيب النوعي للسكان، والتركيب العمري (فئات الأعمار)، والتركيب الحركي (الهجرة والولادات والوفيات) وما إلى هنالك من موضوعات تتعلق بالجوانب السكانية (الهرم السكاني). ولعل الباحث الأنثروبولوجي عند دراسته لمجتمع محلي أو غيره يحاول

الاستفادة من علم السكان ؛ لأنه يحتاج إلى معرفة البنية السكانية للمجتمع المدروس ، وكذلك تركيبه العمري والنوعي ، ومن هنا تتحد العلاقة بين كل من الأنثروبولوجيا وعلم السكان .

هذه نماذج من أمثلة عن العلاقة بين الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية ، وهي من ضمن العلاقات المباشرة كما أشرنا سابقاً . والحال نفسه الحال إذا أردنا تحديد علاقة الأنثروبولوجيا مع أي علم آخر من العلوم الاجتماعية كعلم الإحصاء أو الاقتصاد . . إلخ .

ب- نماذج من العلاقة غير المباشرة؛

أشرنا - فيما سبق - إلى أن العلاقة غير المباشرة هي علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم غير الاجتماعية على اعتبار أن العلاقة المباشرة هي علاقة الأنثروبولوجيا بالعلوم الاجتماعية . واستناداً إلى ذلك نعرض بعض النماذج .

١- علاقة الأنثروبولوجيا بعلم التاريخ؛

يدرس علم التاريخ الإنسان من خلال أحداث تاريخية مرتبطة ومراحل زمنية تعبر عن حضارته وثقافته وعاداته وتقاليده . . . إلخ ويلتقي في ذلك مع الأنثروبولوجي الذي يدرس ذات الموضوعات معتمداً على الوصف والتحليل لهذه الأحداث ومعبراً عن هذه المراحل الزمنية بتحليل الحضارة الإنسانية .

ولعل موضوعات الثقافة والتكامل الثقافي أصبحت تراثاً مشتركاً لدى كل من علمي التاريخ والأنثروبولوجيا؛ لأن ثقافة الشعوب البدائية كانت ولا زالت موضوع بحث كل من هذين العلمين واستناداً إلى ذلك كله يمكن تحديد العلاقة التي تربط الأنثروبولوجيا بعلم التاريخ.

٢- علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الآثار:

ترتبط الأنثروبولوجيا بعلم الآثار ارتباطاً وثيقاً، فمن الواضح أنه (علم الآثار) يعتمد على الدراسات التتبعية (يتتبع)، حيث يركز في الأساس على المجتمعات والثقافات القديمة، وكذلك على المراحل الغابرة من الحضارات الحديثة، وهو يحاول إعادة رسم صورة الأشكال الثقافية الماضية، وتتبع نموها وتطورها عبر الزمان؛ لذلك يتحتم على عالم الآثار - على الرغم من أنه يستخدم السجلات المكتوبة كلما وجد إليها سبيلاً - أن يعيد رسم صور ثقافات العصور الغابرة بالاستعانة بمخلفاتها المادية وحدها في أغلب الأحيان، فقد يعثر على بعض الملاجئ التي كان يعيش فيها الإنسان القديم كالكهوف مثلاً، وكذلك على بعض الأدوات والأسلحة التي صنعها ذلك الإنسان واستخدمها، وعلى الأواني وغيرها من الأدوات المدفونة في باطن الأرض سواء مع صاحبها الذي كان يستخدمها أو في أكوام مكدسة في مكان إنتاجها، كذلك قد يعثر عالم الآثار على بعض الرسوم والنقوش الحجرية والأشكال المصنوعة من الطين المحروق (الفخار) وعلى أطلال المعابد القديمة والبيوت وأسوار المدن القديمة... إلخ.

وجميع هذه المواد تساعد الأنثروبولوجيا بوصف جانب من الثقافة القديمة وربطها بالبيئة الطبيعية التي عاشت فيها ، إضافة إلى معرفة حضارة الإنسان الكلية عبر هذه المواد التي يجدها عالم الآثار .

ومن هنا فالدراسات التي يقدمها عالم الآثار واكتشافاته الأثرية هي مادة علمية للوصف والتحليل من قبل الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) .

٣- علاقة الأنثروبولوجيا بعلم اللغويات؛

اللغة هي التعبير ، وهي الرمز ، والإشارة والدلالة على الأشياء ، فيعبر الإنسان عن سلوكه الاجتماعي باللغة ، ويرمز لعناصر حضارته باللغة وهكذا .

وعلوم اللغويات - بشكل عام - تختص بدراسة جميع لغات البشر بما في ذلك اللغات المستخدمة اليوم ، واللغات القديمة المرتبطة بالشعوب البدائية وشبه البدائية ، ولعل اهتمام دارس اللغويات يتركز على اللغة ذاتها ، فيهتم بأصولها وتطورها وبنائها . . . إلخ . ودارس فقه اللغة أيضاً يلجأ إلى فهم اللغة كوسيلة لفهم التراث الأدبي لشعب من الشعوب ، وهكذا لتحقيق عملية الربط بين الأنثروبولوجيا وعلوم اللغة من خلال اهتمام الأنثروبولوجيا باللغة كوسيلة تعبير للشعوب في مجتمعاتها تعبر من خلالها عن العادات والتقاليد والثقافة . . . إلخ ، إضافة إلى ربط لغة مجتمع معين بمكانة هذا المجتمع ، وكيف أن الرموز اللغوية المستخدمة في الشعائر والمناسبات الدينية تجسد ثقافة هذا المجتمع وخلفيته الحضارية .

وهنا لابد من الإشارة إلى مسألة هامة ، وهي أن الأنثروبولوجيا كما كانت عند البعض هي علم دراسة لغة ورموز وعادات المجتمع البدائي بقبائله المختلفة . على أن لغة ورموز التعبير التي كانت سائدة في هذا المجتمع هي التي كانت تشكل مادة الأنثروبولوجيا .

إذن من كل ما سبق نستطيع القول : إن هناك علاقة بين الأنثروبولوجيا وعلوم اللغة أو اللغويات ، فكل من هذين العلمين يحاول أن يفهم دور اللغة في المجتمعات البشرية والمهمة التي جسدتها في رسم الصورة العامة للحضارات الإنسانية المتطورة .

فلا نستطيع التعرف (مثلاً) على ثقافة مجتمع وعاداته وتقاليده ما لم نعرف لغته بعناصرها وبنيتها الكلية والجزئية .

٤- علاقة الأنثروبولوجيا بعلوم التشريح والأعضاء والوراثة:

من خلال ما تقدمه هذه العلوم من موضوعات ودراسات عن الإنسان من الناحية البيولوجية أو العضوية - ولعل في ذلك ارتباطاً واضحاً بين هذه العلوم والأنثروبولوجيا - فقد كانت دراسات علوم التشريح والوظائف والأعضاء والوراثة مصدراً هاماً من مصادر تكوين الأنثروبولوجيا وبخاصة الجانب البيولوجي فيها ، حيث استدلّت الأنثروبولوجية على الأصول الأولى للإنسان وخصائصه العضوية وشكله وما إلى ذلك من خلال هذه العلوم .

٥- علاقة الأنثروبولوجيا بعلم الجيولوجية:

أشرنا في مجال سابق إلى أن الدراسات الجيولوجية شكلت مصدراً من مصادر تكون المادة الأنثروبولوجية على اعتبار أن الحفريات القديمة تفيد في تحديد عمر البقايا العظمية لإنسان ما قبل التاريخ، وتحديد حضارته وثقافته بشكل عام التي هي مادة علمية لعلم الإنسان أو الأنثروبولوجيا، ونعتقد أنه من هنا تتحدد علاقة هذا العلم (الأنثروبولوجيا) بعلم الجيولوجيا أو الحفريات .

وهكذا نستطيع أن نعرض لنماذج عدة من العلاقات غير المباشرة بين الأنثروبولوجيا والعلوم الأخرى . ولعل العديد من العلوم تفيد الأنثروبولوجيا وتتحدد علاقتها بها من خلال استخدام تقنيات أو نتائج هذه العلوم في حل مشكلات معينة، فعلى سبيل المثال لا يمكن للأنثروبولوجي أن يفهم نظام التقويم الحسابي الزمني عند الشعوب البدائية إلا من خلال الإفادة من معلومات وبيانات ودراسات علم الفلك، وهكذا تستخدم مبادئ علوم الكيمياء والفيزياء في التعرف على دراسة المصنوعات الخزفية التي ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ، ونشير هنا - كما تزعم الدراسات - إلى أن اكتشاف إنسان ما قبل التاريخ والمزعوم بإنسان بكين قد جاء نتيجة العثور على قطعة من حجر الكوارتز في ذات المنطقة (بكين).

وهكذا تتحدد علاقة الأنثروبولوجيا بأي ميدان معرفي من خلال تحديد نوعية العلاقة أولاً، ثم الإجابة عن السؤال : ماذا يدرس هذا العلم الذي نريد أن نحدد علاقته بالأنثروبولوجيا؟ ومن خلال المقارنة نستطيع تحديد أوجه التشابه والاختلاف بينهما وإمكانية عملية الربط بين القضايا والموضوعات المشتركة .

٦- علاقة علم الإنسان بعلم التربية:

يتضمن علم التربية - بشكل عام - عملية التنشئة الاجتماعية والنمو المتكامل للشخصية الفردية .

فيدرس مراحل نمو الفرد في المجتمع والمشكلات التربوية التي تواجه كل مرحلة من هذه المراحل ، كما يدرس كيف يتكيف الفرد مع المجتمع عبر عملية التنشئة الاجتماعية وقد كانت هذه الموضوعات مجالات بحث علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) في المجتمعات البدائية، فقد كانت الأسرة والعشيرة والقبيلة هي المؤسسة الاجتماعية التي تضطلع بشؤون تنشئة وتربية الطفل، وقد كانت هذه المسائل من أهم دراسات علم الإنسان، ولعل دراسة العلامة الأنثروبولوجية (مارجريت ميد) بعنوان النمو في (غينيا الجديدة) والبلوغ أو المراهقة في (ساموا) هي من الدراسات التي عالجت مشكلات المراهقة في المجتمع البدائي . ولا نغالي إن قلنا: أصبحت موضوعات التربية محوراً في الدراسات الأنثروبولوجية التربوية، ناهيك عن أن التربية تعالج من الوجهة الأنثروبولوجية على أنها نسق اجتماعي له صفة الإلزام على أساس أن لكل مجتمع في أي زمان ومكان أطره الخاصة في تربية النشء .

٧- علاقة علم الإنسان بعلم طب المجتمع:

يبحث علم طب المجتمع في علاقة الصحة العامة بالوعي الاجتماعي لدى الأفراد في المجتمع ، ومدى الأثر المتبادل بينهما من جهة ، ومدى تأثير الصحة العامة بالمستوى التكنولوجي والقيم والعادات والأعراف كمؤشرات هامة في الحياة الصحية من جهة أخرى .

فعندما يدرس طب المجتمع موضوع الوعي الصحي في المجتمع وارتباطه بعادات وتقاليده ذلك المجتمع ويحدد الأمراض المنتشرة فيه وعلاقتها بالمستوى الاجتماعي والاقتصادي والعادات والقيم المنتشرة ، وعندما يدرس علاقة العلاج الشعبي (الطب الشعبي) بالمعتقدات القادمة لدى الأفراد في المجتمع وارتباط ذلك بالفكر الخرافي والشعوذة وأشكال السحر وغير ذلك فإن هذه الموضوعات تشترك فيها الأنثروبولوجيا مع علم طب المجتمع ، وقد شكلت هذه الدراسات محاور هامة في علم الإنسان في المجتمعات شبه البدائية القديمة حيث كانت هذه المجتمعات بعاداتها وتقاليدها مناخاً خصباً لذلك .

ولا شك أن هذه الموضوعات المشتركة بين العلمين خضعت لعملية التطور المعرفي ، وباتت الدراسات الحديثة المتعلقة بعلم طب المجتمع هي - أيضاً - دراسات مشتركة مع التوجهات المعاصرة للأنثروبولوجية .

ولعل اهتمام الشعوب والدول (على اختلاف مستوياتها حالياً) بالأثر الاجتماعي للأمراض البائية والقيام بالإجراءات الصحية والوقائية

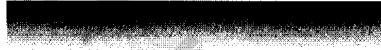
المتعددة عند ظهور أعراض أمراض وبائية مثل : الكوليرا وغيرها ، لعل ذلك يعد من الموضوعات المشتركة بين الإحصائي الأنثروبولوجي وإحصائي الرعاية الصحية في المجتمع ، ونعتقد أن تطور هذه الدراسات منذ المجتمعات البدائية حتى الآن شكل بدوره مجالا لظهور ميدان معرفي من ميادين الأنثروبولوجيا هو ميدان (الأنثروبولوجيا الطبية) .



obeikandi.com

الفصل الثالث

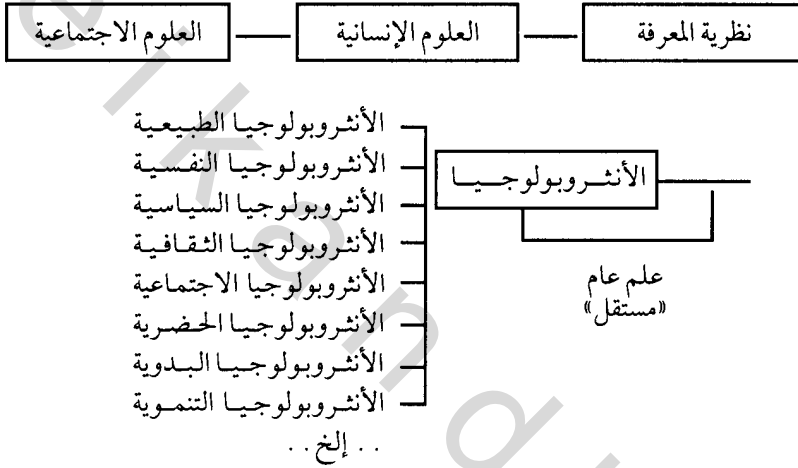
ميادين علم الإنسان
« الأنثروبولوجيا »



obeikandi.com

ماذا نقصد بميادين الأنثروبولوجيا؟

أشرنا - فيما سبق - إلى أن الأنثروبولوجيا بعد أن أصبحت علماً مستقلاً (عاماً) خضعت بدورها إلى التطور المعرفي، والانقسام إلى فروع، حسب الموضوعات التي باتت تدرسها، كما يوضح الشكل التالي :



إذا تعدد ميادين الأنثروبولوجيا وفقاً للتطورات والتغيرات التي تتضمنها وتشملها في دراستها للإنسان وتطوره من الجوانب الطبيعية، والثقافية، والنفسية، والاجتماعية، والفلسفية، والسياسية. . وغيرها. وسيشمل هذا القسم بعضاً من الميادين الأساسية للأنثروبولوجيا وهي:

- الأنثروبولوجيا الطبيعية.
- الأنثروبولوجيا الثقافية.
- الأنثروبولوجيا النفسية.
- الأنثروبولوجيا السياسية.
- الأنثروبولوجيا الحضرية.
- الأنثروبولوجيا التنموية (أنثروبولوجيا التنمية).
- الأنثروبولوجيا البدوية.

ونشير إلى أن عرضنا لهذه الميادين يشمل الموضوعات التي تدرسها بشكل مختصر، ولا نقف عند تاريخ نشوء كل ميدان وكيفية تطوره وقد اكتفينا بنموذج لذلك هو الأنثروبولوجيا الاجتماعية.

أولاً: الأنثروبولوجيا البيولوجية:

وتسمى الأنثروبولوجيا الطبيعية أو الفيزيائية - أيضاً -، وهي الميدان المعرفي الذي يدرس البنية العضوية للإنسان استناداً إلى ما يكتشف من

هياكل عظمية بشرية وما تقدمه الدراسات التشريحية (علم التشريح) المقارنة، وما يقدمه - أيضاً - علم الحفريات البشرية وعلم الوراثة لتحديد الأنواع البشرية والسلالات التي ينتمي إليها الإنسان ومقارنة ذلك بالعالم الحيواني، وفي إطار تطور هذا الميدان باتت الأنثروبولوجيا البيولوجية تدرس العلاقات بين بعض العوامل مثل: المناخ والارتفاع وتوزيع الموارد وتوزيع السكان وكثافتهم، وتأثير العوامل المرتبطة بتكيف الإنسان، والموروثات المرتبطة بها التي تتداخل بدورها مع الظواهر الثقافية والاجتماعية. وتنقسم الدراسات العديدة والمتنوعة في الأنثروبولوجيا البيولوجية إلى مجالات عدة مثل: دراسة الإنسان كنتائج لعملية التطور، ودراسة وتحليل الجماعات البشرية (دراسة التنوع البشري).

ولا شك أن ما يطلب من الأنثروبولوجيا البيولوجية الآن يشكل البعد المعاصر لهذا الميدان، كأن يطلب منها مثلاً: دراسة ماذا يحدث عندما تتزاوج جماعات مختلفة بعضها عن بعض؟ هل تتميز بعض أنواع البشر بأنها أرقى فطرياً من الأنواع الأخرى؟ وهل هناك علاقة بين النمط البيولوجي للإنسان ومزاجه؟ أو ذكائه (قدراته العقلية)؟ أو اتجاهاته الخاصة؟ أو سلوكه الاجتماعي بشكل عام؟ وهكذا.

إذاً تتعدد موضوعات الدراسة في الأنثروبولوجيا البيولوجية باعتبارها فرعاً من فروع الأنثروبولوجيا الذي يدرس التركيب العضوي للإنسان وخصائص هذا التركيب ومقارنته بالكائنات الأخرى مثل: القرود (على

سبيل المثال) وما هي الخصائص البيولوجية والوظيفية المشتركة؟ أو ما هي نقاط الاختلاف؟ وكيف يعيش هذا الكائن العضوي المتطور تاريخياً في البيئة الاجتماعية (التكيف الاجتماعي)؟

ومن هنا بذلت الجهود لوصف وتحديد موقعه في المملكة الحيوانية، وتحديد أنواعه أو سلالاته المختلفة وبيان تاريخ تطوره، وقد بينت الدراسات في هذا الميدان: أن الأجناس البشرية - بشكل عام - تتمحور في أربع مجموعات هي: الأوروبيون البيض، والآسيويون الصفر، والأمريكيون الأحمر، والأفريقيون السود، ويستند هذا التصنيف إلى عامل الموقع الذي يسكنه أبناء كل جنس إلى لون البشرة.

ثانياً: الأنثروبولوجيا الثقافية:

وتعد ميداناً من ميادين الأنثروبولوجيا - أيضاً - وتدرس بالوصف والتحليل موضوع الثقافة الإنسانية للمجتمعات القديمة (البداية) والمجتمعات المحلية (الريفية) ومجتمعات المدينة (أي ثقافة الشعوب) فتبين معناها وخصائصها وعناصرها وكيف تنتشر (تؤثر وتتأثر) وما دورها في بناء الشخصية الأساسية للإنسان، كما تدرس الفروق التي يتميز بها الإنسان استناداً إلى إنتاجه الثقافي الذي يختلف به عن الحيوان؛ لأن جميع الخصائص العضوية والانفعالية مشتركة بين الإنسان والحيوان، والذي يميزهما عن بعضهما البعض هي الثقافة كإنتاج حضاري يقدمه الإنسان فقط.

لقد نشأ مصطلح الثقافة عن الحاجة إلى وجود مصطلح ملائم لوصف الجوانب المشتركة لبعض أنواع السلوك التي بلغت مبلغاً عالياً من التطور عن الإنسان، وإن تكن موجودة بدرجة أو بأخرى عند بعض الأنواع الأخرى.

فعلى حين تتميز غالبية الحيوانات بما فيها القردة العليا بأن النوع الواحد منها يتبع أساساً أنماط السلوك نفسها، فإن الإنسان يختلف عن ذلك، بل نجد على العكس من ذلك أن نوع الإنسان العاقل يتميز بتنوع ملحوظ فعلاً في أنماط السلوك على الرغم من أن أفراده يتشابهون عضوياً إلى حد بعيد ويتمتعون بأبنية جسمية متشابهة في جوهرها وبآليات النفسية نفسها ولعلنا نستطيع أن ندلل على تنوع السلوك الإنساني في كل نشاط تقريباً من ألوان النشاط التي يؤديها الإنسان، فعادات الطعام - على سبيل المثال - تتباين بشكل لا نهائي، فنجد أن جماعات (الإسكيمو) التي تعيش في القارة القطبية تكاد تقتصر في غذائها على اللحوم والأسماك وحدها، على خلاف كثير من الشعوب الهندية والمكسيكية التي قوام غذائها في معظمه على الحبوب والخضروات، كذلك تتنوع عادات اللبس والزينة بالشكل نفسه، فهناك بعض الشعوب مثل سكان أستراليا الأصليين يسرون شبه عراة، على حين يغطي أبناء شعوب أخرى أجسامهم بالملابس من الرقبة حتى القدمين . . إلخ^(٢).

(١) انظر: د. محمد الجوهري: الأنثروبولوجيا (أسس نظرية وتطبيقات عملية) الطبعة الأولى،

القاهرة، ١٩٨٠.

(٢) ورد في المصدر ذاته، ص ٦٧.

ومن المفيد هنا أن نشير إلى تعريف الثقافة كأحد موضوعات الأنثروبولوجيا وموضوع رئيس للأنثروبولوجيا الثقافية استناداً إلى التعريف الذي حدده (كلايد كلاهون) وهو أحد الباحثين الأنثروبولوجيين في هذا الميدان .

(الثقافة : هي جميع مخططات الحياة التي تكونت على مدى التاريخ بما في ذلك المخططات الضمنية والصريحة والعقلية واللاعقلية (غير العقلية) وهي موجهة في أي وقت كموجهات لسلوك الناس عند الحاجة) .

ولعل الثقافة في مفهومها الشامل تعد تلك الإنتاج البشري المادي والمعنوي المتكون تاريخاً حتى اللحظة والذي سيتكون فيما بعد . ونقصد بالمادي : الاختراعات والاكتشافات الملموسة ، والمعنوي : كل ما يتعلق بالإنتاج الفكري غير الملموس ، مثل ما يتعلق بثقافة البشر الروحية والأدبية والفلسفية وغير ذلك . ولابد من الإشارة - أيضاً - إلى أن ميدان الأنثروبولوجيا الثقافية يدرس (بالوصف والتحليل) الثقافة الرئيسة للإنسان كثقافة المجتمع بشكل عام ، والثقافات الفرعية أيضاً كثقافة سكان الجبال أو ثقافة سكان السهول أو السواحل أو غير ذلك وعلاقة الثقافة بالسلوك ، وأنماط الثقافة المثالية والواقعية ، والخصائص العامة للثقافة مثل : كون الثقافة إنسانية ، وعامة ، ومكتسبة ومتطورة وأداة للتكيف . . إلخ .

وبشكل عام تدرس الأنثروبولوجيا الثقافية مفهوم الثقافة كشبكة مركبة من الأنماط والموضوعات الأساسية التي تمثل بصفة عامة مجموع ما تعلمته

البشرية، وبفضل قدرة الإنسان على استخدام الرمز، وبالتالي قدرته على نقل الثقافة، فإن مجموع الخبرات البشرية هذا لا يتضمن ما هو معروف حالياً فقط، وإنما يتضمن كذلك معظم ما اكتشفه أبناء العصور الغابرة، وعلى هذا فإن مضمون الثقافة عند الأنثروبولوجيا يتضمن ما يسمى بالتكنولوجيا التي تضم أساليب السلوك التي بوساطتها يستغل البشر الموارد الطبيعية للحصول على الطعام ولتصنيع الأدوات والملابس والمساكن والأواني وبقية المصنوعات الأخرى اللازمة لاستمرار حياتهم، وكذلك الاقتصاد الذي يشمل أنماط السلوك وتنظيم المجتمع فيما يتعلق بإنتاج وتوزيع واستهلاك السلع والخدمات والتنظيم الاجتماعي الذي يشمل أسلوب السلوك والتنظيم الاجتماعي فيما يتعلق بالحفاظ على العلاقات المنظمة بين الأفراد والجماعات داخل المجتمع أو بين المجتمع وأحد أقسامه الرئيسة أو بين المجتمع ومجتمعات أخرى. وأيضاً الدين المتضمن أنماط السلوك المتعلقة بعلاقات الإنسان بالقوى العليا وأنساق المعتقدات والطقوس المرتبطة بتقديس كل الإشارة الرمزية التي تتعلق باكتساب المعرفة وتنظيمها ونقلها إلى الآخرين، ومن الواضح أن اللغة تُعد أهم الرموز على الإطلاق وإن كانت هناك رموز أخرى مثل: الدراما والتصوير والأدب... إلخ.

إذاً تدرس الأنثروبولوجيا الثقافية موضوع «الثقافة»، والمعنى المبسط لذلك المفهوم هو طريقة معيشة مجتمع ما، سواء أكان ذلك المجتمع بدائياً أم متخلفاً أم نامياً أو متقدماً. والثقافة من صنع الإنسان وهي ظاهرة طبيعية تخضع لقوانين الطبيعة مثل قانون التطور وقانون البقاء للأصلح؛ ولذلك

يدرسها هذا الميدان بمنهج علمي لا يختلف عن المنهج المستخدم في العلوم الطبيعية لدراسة ظواهر الطبيعة الأخرى . إن قدرة الإنسان على إنتاج الثقافة هي أهم خاصية تميز الإنسان عن باقي الثدييات والحيوانات جميعاً ، ومن أهم عناصر الثقافة اللغة ، فعن طريقها تجمع وتسجل الثقافة وتنقل من جيل لآخر فيمكن نموها وتقدمها ، كما أن الثقافة تزود اللغة بمعظم مضموناتها ، فهي التي تعطي الإنسان الموضوعات التي يتكلم عنها ، وتشمل الثقافة كذلك كل ما يصنع الإنسان من عناصر المادة مثل : الملابس والمباني والآلات والأدوات التي تزداد كثافة كلما تقدم الإنسان .

ومن أهم عناصر الثقافة العلاقات الاجتماعية التي تربط بين الإنسان وأخيه الإنسان ، أي النظم الاجتماعية التي يخترعها الإنسان بصورة جماعية لينظم تلك العلاقات الاجتماعية ، ويجب التفرقة بين العلاقات الاجتماعية الإنسانية التي تدخل في نطاق الثقافة والعلاقات الاجتماعية التي تظهر بصورة غريزية فطرية عند بعض الحشرات والحيوانات ، لا بل إن بعض تلك العلاقات الاجتماعية الغريزية أكثر تنظيماً من بعض العلاقات الإنسانية .

وخلاصة القول : إن السلوك الاجتماعي أكثر قدماً من الثقافة إذ تمتد ظاهرة «المجتمع» إلى أزمنة عظيمة في القدم في تاريخ الحياة على ظهر الأرض ، أما «الثقافة» فهي ترتبط بظهور الإنسان على وجه الأرض ، وكان لاكتشاف مفهوم «الثقافة» على يد العلامة (تيلور) أكبر الأثر في تنظيم موضوعات هذا العلم في إطار واحد ، فهو المركز الذي تنظم حوله معظم الظواهر التي ترتبط عن قريب أو بعيد بالإنسان . ولإعطاء فكرة عن

الموضوعات الكثيرة والمختلفة التي تدخل في نطاق الثقافة أشير إلى التعريف المبسط للثقافة بأنها : الكل المتكامل لأنماط السلوك المكتسبة التي يأخذ بها معظم أفراد مجتمع معين .

يجمع هذا التعريف كل أنماط السلوك التي يكتسبها الفرد في المجتمع والتي تأخذ الصفة الاجتماعية أي يعترف بها معظم أعضاء المجتمع الذي ينتمي إليه الفرد، وهكذا يدخل في الثقافة كل أنماط السلوك التي تمثل علاقة الإنسان بالمادة، مثل : أسلوبه في بناء مسكنه ، وفي ملبسه وفي الأدوات والآلات والأسلحة التي يستخدمها ، فإن كل عنصر مادي من صنع الإنسان ويطبق بصورة جماعية يعد جزءاً من الثقافة . وتشمل الثقافة كذلك جميع أنماط السلوك التي تمثل علاقة الإنسان بأخيه الإنسان ، أي النظم الاجتماعية مثل : نظم اللغة والاقتصاد والعائلة والسياسة والدين والأخلاق ونظم القرابة والعادات والتقاليد والآداب العامة والفنون . كما أن الثقافة تجمع كل أنماط السلوك التي تمثل علاقة الإنسان بعالم الأفكار ، مثل : المبادئ والمثل العليا التي يؤمن بها مجتمع معين ، وكذلك القوانين العلمية التي يصل إليها . إن هذه المجموعات الثلاثة للعناصر الثقافية لا توجد في الواقع الاجتماعي بصورة مستقلة عن بعضها وإنما في حالة تداخل وتشابك ؛ بحيث لا يمكن التمييز بين ما هو مادي وما هو فكري أو اجتماعي .

تبين لنا فيما سبق أن موضوع دراسة الأنثروبولوجيا الثقافية هو الثقافة ؛ ولذلك ارتبطت نشأة هذا الفرع للأنثروبولوجيا بظهور أول مفهوم واضح لاصطلاح الثقافة ، وقد تم ذلك لأول مرة على يد العلامة الإنجليزي «تيلور» في عام ١٨٧١ حين قال :

«الثقافة: هي ذلك الكل المركب الذي يشتمل على المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والقانون والعادات، وأي قدرات وعادات أخرى يكتسبها الإنسان بصفته عضواً في المجتمع» وقد ساد هذا التعريف عند كل رواد هذا الفرع في القرن التاسع عشر، بل إن العلامة الأمريكي «لوي» (الذي يعد مؤسس الأنثروبولوجيا الثقافية في أمريكا) قد بدأ كتابه الشهير «المجتمع البدائي عام ١٩٢٠» بنقل تعريف تايلور للثقافة ووصفه «بالتعريف الشهير»، ومن الرواد الآخرين لهذا الفرع في أمريكا كل من (مورجان) و(باندليير) و(كاشينج) و(دورسي) و(فليتشر)، أما في إنجلترا فبالإضافة إلى العلامة تايلور نجد العلماء (مين) و(ماكلينان) و(بت ريفز) و(لبوك) و(روبرتسون سميث) و(فريزر)، ومن العلماء الألمان العلامة (باخوفين)، ومن العلماء الفرنسيين (فوستيل دي كولوني).

تنتمي نظريات هؤلاء الرواد وآراؤهم إلى (المدرسة التطورية)، وهي المدرسة التي تهتم بالبحث عن نشأة المجتمع الإنساني والثقافة، ومحاولة رسم صورة عامة لتطور الثقافة منذ القدم. وقد انتشر الاتجاه التطوري في معظم العلوم الاجتماعية في ذلك الوقت بسبب تأثير نظرية (دارون) في التطور العضوي، وأذكر على سبيل المثال نظرية العلامة الأمريكي مورجان (١٨٨١-١٨١٨) الخاصة بتطور المجتمع الإنساني من حالة المجتمع البدائي القديم إلى حالة المجتمع المدني الحديث ويفرق بين المجتمعين على أساس الخواص الآتية:

١- مركز الفرد ودوره يتحددان عن طريق العلاقات الشخصية .	١- مركز الفرد ودوره يتحددان عن طريق العلاقات الشخصية .
٢- توجد طبقات اجتماعية .	٢- كل فرد يعتقد أنه مرتبط بجميع أفراد المجتمع ، والمساواة تامة بين الجميع .
٣- نظم العمل والأجر والنقود والملكية الفردية هي أساس العلاقات الاجتماعية .	٣- القرابة هي أساس العلاقات الاجتماعية .
٤- انتشار نظام الدولة .	٤- انتشار نظامي العشيرة والقبيلة .

وكان لظهور العلامة الأمريكي «فرانز بواز» (١٨٥٨-١٩٤٢) أكبر الأثر في توجيه الأنثروبولوجيا إلى وجهة جديدة تختلف عن المدرسة التطورية سابقة الذكر ، ويرجع إليه الفضل في نشر الأنثروبولوجيا الثقافية في أمريكا بحيث أصبح معظم المتخصصين في هذا الفرع من الأمريكيين . ومن الممكن تسمية الاتجاه الجديد «المدرسة التاريخية» ويتمثل في موضوعين .

الأول : الاهتمام بالدراسات التفصيلية لثقافات فردية صغيرة مثل ثقافات العشائر والقبائل ، وتتم داسة العشيرة أو القبيلة في إطار منطقتها الإقليمية الثقافية ، وترمي تلك الدراسة إلى إعادة بناء ثقافة تلك العشيرة أو القبيلة في الماضي وتصور تاريخها .

الثاني : المقارنة بين تواريخ مجموعة القبائل التي درست لتحقيق الغرض النهائي للأنثروبولوجيا الثقافية (كما يحدد العلامة بواز) وهو الوصول إلى قوانين عامة لنمو الثقافات ، وكانت القوانين التي توصل إليها العلامة «بواز» عن طريق منهجه هذا ذات طابع نفسي .

كان ينظر «بواز» إلى الموضوع الثاني على أنه أكثر أهمية من الموضوع الأول ؛ لأنه الغرض النهائي للأنثروبولوجيا الثقافية بل هو الغرض النهائي لكل العلوم . ومنهج المقارنة الذي اعتمد عليه «بواز» للوصول إلى القوانين لم يكن قاصراً في تطبيقاته على نتائج التطور الثقافي وإنما كان يطبقه كذلك على عمليات التطور ذاتها ، ورغم الأهمية الكبرى التي أعطاها «بواز» للقوانين الثقافية ، فإن تلاميذه قد أهملوا ذلك الهدف^(١) .

وفي الختام لابد من الإشارة إلى أن الأنثروبولوجيا الثقافية المعاصرة باتت تدرس بالوصف والتحليل موضوعات اكتساب الفرد للثقافة ومشكلات التغير الثقافي وإمكانية الانتفاع العلمي بمعلوماتنا الثقافية على صعيد المجتمع .

ثالثاً - الأنثروبولوجيا النفسية:

يتلخص موضوع الأنثروبولوجيا النفسية^(٢) في الدراسة العلمية للعلاقة بين الثقافة والشخصية ؛ لذلك يعدها بعضهم فرعاً من فروع

(١) لمزيد من الاطلاع : انظر : د . عاطف وصفي : الأنثروبولوجيا الثقافية .

(٢) لمزيد من الاطلاع : انظر د . عاطف وصفي ، الثقافة والشخصية ، دار المعارف بمصر ، الطبعة

الأولى (١٩٧٥م) .

الأنثروبولوجيا الثقافية (الذي يجمع بين مفاهيم الأنثروبولوجيا عن الثقافة ومفاهيم علم النفس عن الشخصية) ولذلك يتطلب هذا الفرع من المعرفة تعاوناً وثيقاً بين المتخصصين في الأنثروبولوجيا الثقافية وعلم نفس الشخصية. وعرفت الأنثروبولوجيا النفسية عالمياً بعنوان «الثقافة والشخصية»، وأخذ ينتشر هذا الاصطلاح ويزداد الاهتمام ببحث موضوعاته بصورة سريعة للغاية بالنسبة لحدثة نشأة هذا الفرع.

تهتم الأنثروبولوجيا الثقافية بدراسة ثقافات الإنسان في المناطق المختلفة في العالم دون الاهتمام بتأثير الثقافة في شخصيات حاملها، ويقوم علماء النفس - وبخاصة الأطباء النفسيون - بتحليل شخصيات الأفراد المرضى ويركزون اهتمامهم على مظاهر الاختلاف والتفرد في شخصيات البشر، ولا تثير الثقافة انتباههم، وإنه في الفترة الأخيرة ظهر الاهتمام عند بعض الأنثروبولوجيين بدراسة العلاقة بين الثقافة والشخصية، ووجد هذا الاهتمام تعاوناً وتجاوباً من بعض علماء النفس وبخاصة الأطباء والمحللين النفسيين، واعترف هؤلاء بالثقافة عاملاً محدداً للشخصية لا يمكن إغفاله عند دراسة الشخصية السوية وغير السوية.

لقد انتشر اصطلاح «الثقافة والشخصية» بصورة سريعة للدلالة على هذا الفرع من المعرفة، ولكن صاحب هذا الانتشار دحض الاعتراضات التي تنادي بتغييره، فمثلاً يرى العالمان «كلاكوهن» و«موراي» أن اصطلاح «الثقافة الشخصية» قد يفهم تناقض وثنائية مثل الذي يوجد في

اصطلاح «الروح والمادة»، لذلك يفضلون استخدام اصطلاح «الثقافة في الشخصية أو الشخصية في الثقافة».

ويتعاون الأنثروبولوجيون مع علماء النفس في هذا الميدان بصورة واضحة، ومن أمثلة ذلك اعتماد الأنثروبولوجيين على المحللين النفسيين في إجراء اختبارات الشخصية وتحليلها وفي تفسير الأحلام، في حين يستعين الأطباء النفسيون بالتقارير الأثنوجرافية للأنثروبولوجيين عند دراستهم للشخصيات السوية والمرضية.

وبضوء ما سبق أخذ الاهتمام بموضوع الثقافة والشخصية يتزايد في الوقت الحاضر بعد تركيز الأنثروبولوجيين على دراسة عمليات التغير الثقافي في المجتمعات البدائية والنامية، وقد أظهرت دراسة عمليات التغير الثقافي أن الفرد في المجتمع ليس مجرد حامل سلبي لثقافة المجتمع، وإنما هو مخترع لعناصر ثقافية جديدة، ولديه القدرة على رفض أي تجديد في ثقافته أو قبوله، وهكذا وجد الباحثون أن الفهم الدقيق لظاهرة التكامل الثقافي، ولعمليات التغير الثقافي يتطلب الرجوع إلى حقائق علم النفس وبخاصة علم نفس الشخصية، فقد لاحظوا أن حالات رفض أو قبول تغيرات ثقافية في مجتمع ما ترتبط بصورة ما بمدى توافق العنصر المكون الثقافي الجديد مع الشخصية العامة لأعضاء المجتمع، هذا إضافة إلى ملاحظة أن شخصيات أعضاء المجتمع تتفق في سمات معينة، ويرجع ذلك الاتفاق إلى معيشتهم في ثقافة واحدة.

وبرغم حداثة الأنثروبولوجيا النفسية فإنه يوجد عدد كاف من الأبحاث يسمح باكتشاف بعض الترابطات بين الأنماط المختلفة في تربية الأطفال والأشكال الرئيسة لشخصيات الكبار . فمثلاً لوحظ أنه في المجتمعات التي يسود فيها نمط ثقافي يحتم الطاعة المطلقة من الطفل لوالديه كشرط مسبق للحصول على مكافأة ما ، تتسم شخصيات البالغين الأسوياء بالخضوع والتبعية وعدم الخلق ، هذا على الرغم أن هؤلاء الأفراد قد نسوا تماماً خبرات الطفولة التي أدت إلى تكوين تلك الاتجاهات العامة ، وفي تلك المجتمعات ذات السلطة المطلقة للآباء يكون رد فعل الشخص البالغ في أي موقف جديد هو البحث عن شخص له سلطان أو نفوذ ليطلب منه الدعم والتوجيه . ومن الأمور الجديرة بالملاحظة حول هذا الموضوع أن في بعض تلك المجتمعات ذات السلطة المطلقة للوالدين يوجد برامج لتدريب عدد قليل من الأفراد على القيادة ، وذلك لعدم إمكانية ظهور قادة من خلال الأنماط الثقافية العامة ، ففي قبيلة تانالا بمدغشقر يعامل أكبر الأبناء سناً معاملة خاصة منذ المولد ، وتهدف تلك المعاملة الخاصة إلى تنمية الإرادة والمبادرة وتحمل المسؤولية ، في حين يخضع باقي الأطفال للأنماط الثقافية العامة القائمة على الصرامة والكبت .

وفيما يتعلق بالترابط بين الأنماط الثقافية وسمات الشخصية عند الكبار تشير الأبحاث التي أجريت على الأسر الصغيرة جداً في المجتمعات الغربية إلى أن الأشخاص الأسوياء في تلك المجتمعات يميلون إلى تركيز عواطفهم وتوقعاتهم للمكافأة أو العقاب على عدد قليل من الأفراد ، ويرجع هذا

التركيز بصورة لا شعورية لمواقف معينة في مرحلة الطفولة ، وهي المواقف التي يستقي منها الأطفال كل الإشباع والإحباطات من والديهم فقط . أما في المجتمعات غير الغربية ذات الأسر الممتدة فإن الطفل يتصل بعدد كبير من البالغين ، وبالتالي لا يركز عواطفه واتصالاته عند الكبر بعدد قليل من الأفراد ، وتتضمن كل علاقاتهم الشخصية اتجاهات لا شعورية تمثل في عبارة «حسناً هناك آخرون للتعامل معهم» ؛ ولذلك لا تنتشر في تلك المجتمعات غير الغربية مفاهيم الحب الرومانتيكي التي تركز عاطفة الحب على فرد معين بالذات ودون الاقتران به تصبح الحياة دون معنى ، ولكن توجد هذه المفاهيم في الثقافة الغربية .

يتضح لنا من المثالين السابقين أن ثقافة أي مجتمع تحدد المستويات العميقة لشخصيات أعضائها عن طريق الأنماط الثقافية الخاصة بتربية الأطفال ، ولا ينتهي أثر الثقافة في الشخصية عند ذلك الحد ، وإنما يستمر هذا في تشكيل الكثير من العناصر الباقية في شخصيات أفراد المجتمع وذلك عن طريق تزويدهم بنماذج يقلدونها في استجاباتهم التخصصية أيضاً ، وتستمر تلك العملية طوال حياة الفرد ولا تقتصر على مرحلة الطفولة ، ويختلف هذا التأثير الثقافي في الشخصية عن التأثير السابق في عدة جوانب ، فبينما يستمر تزويد الفرد بالنماذج طوال فترة الحياة فإن تطبيق أنماط تربية الأطفال خاص بمرحلة الطفولة فقط ، وبينما تختص أنماط تربية الأطفال بتكوين المستويات العميقة للشخصية والتي تتمثل في القيم والاتجاهات العامة جداً يختص تزويد الفرد بالنماذج والمستويات السطحية

للشخصية والتي تتمثل في الاستجابات الظاهرية التخصصية ، وهذا يؤيد القول المأثور : «العلم في الصغر كالنقش على الحجر» .

وخلاصة القول : إن الثقافة هي المسؤولية عن الشكل الرئيس للشخصية في أي مجتمع ، وباختلاف الثقافات تختلف أشكال الشخصية ، ويقصد بشكل الشخصية مجموعة السمات الأكثر تكراراً بين أفراد المجتمع الواحد ، وقد ميز «لينتون» بين شكلين ، الشكل الرئيس للشخصية وهو يميز معظم شخصيات أفراد المجتمع ، ويتمثل هذا الشكل الرئيس في مجموعة من القيم والاتجاهات العامة التي تتمركز في المستويات العميقة من شخصية الفرد ، وتؤسس تلك القيم والاتجاهات في الشخصية أثناء مرحلة الطفولة عن طريق اتصالات الطفل المستمرة والقوية بأعضاء أسرته ، وإلى جانب الشكل الرئيس للشخصية يوجد في المجتمع الواحد عدة أشكال أخرى للشخصية وهي شخصيات المركز ؛ وذلك لأن الأفراد الذين يشغلون مركزاً اجتماعياً واحداً في المجتمع يقومون بأداء عدة أدوار متشابهة ، ويطلع هذا الأداء شخصياتهم بسمات مشتركة ، فمثلاً في أي مجتمع يوجد اختلاف بين شخصيات النساء وشخصيات الرجال ، وبين شخصيات الأطفال والبالغين والشيوخ ، وفي المجتمعات المتقدمة نلاحظ تشابهاً بين شخصيات الأطباء ، ويختلف الأطباء عن شخصيات الموظفين الكتابيين ، وما إلى ذلك من المهن .

رابعاً: الأنثروبولوجيا السياسية^(١)

تبدو الأنثروبولوجيا السياسية مشروعاً قديماً جداً، ولكنه جديد (أيضاً) وفي الوقت ذاته كاختصاص في البحث الأنثروبولوجي يظهر بتركيب متأخر. وهي بشكلها الأول تضمن تخطي التجارب والعقائد السياسية الخاصة، وهكذا تسعى لتأسيس علم الموضوع السياسي، عادةً الإنسان بشكله المسيس الوحيد، وباحثة الخصائص المشتركة ككل التنظيمات السياسية المعترف بها في تنوعها التاريخي والجغرافي. وبهذا المعنى فإنها موجودة سلفاً في «السياسة» لأرسطو، الذي يعد الكائن البشري كائناً سياسياً بشكل طبيعي يسعى لاكتشاف القوانين أكثر من سعيه للتعريف بأفضل دستور قابل للتحقيق من أجل دولة ممكنة. وفي شكلها الثاني فإن الأنثروبولوجيا السياسية تحدد حقل دراستها في كنف الأنثروبولوجيا الاجتماعية أو الأنثروبولوجيا. إنها تتعلق بالوصف والتحليل للنظم السياسية (بنيات، سيرورة، وأشكال)، الخاصة بالمجتمعات المعترف بها؛ بدائية أو سلفية. وبهذا المعنى فإنها نظام مميز منذ فترة وجيزة أسهم في تكوينها (لوي) أسفاً على عدم الكفاية للأعمال الأنثروبولوجية في الموضوع السياسي.

(١) لمزيد من الاطلاع انظر كتاب جورج بالنديه: «الأنثروبولوجيا السياسية» - المنشورات الجامعية في فرنسا، باريس. الطبعة الأولى، ١٩٦٧، وهو بحث قام بترجمته غسان زيادة ونشر في مجلة الفكر العربي.

وهناك حدث ذو دلالة : أن الأسس المأخوذ بها في الولايات المتحدة في (١٩٥٢) لم تعر الموضوع أبداً أي اهتمام . وفي تواريخ أقرب (أيضاً) فإن الأنثروبولوجيين استمروا في إقامة محضر للنقص : إن أكثريتهم يعترفون «بأنهم أهملوا الدراسة المقارنة للتنظيم السياسي للمجتمعات البدائية» . ومن هنا أتى سوء الفهم والأخطاء والتأكيدات المخادعة التي قادت إلى استبعاد الاختصاص والفكر السياسيين لعدد كبير من المجتمعات .

ومنذ عشرين سنة تقريباً بدأ الاتجاه ينعكس ، فالدراسات على الأرضية تتضاعف ، وبشكل خاص في أفريقيا السوداء حيث بحثت أكثر من مئة حالة ، ويمكن لها أن تكون خاضعة لعلاج علمي . والإعدادات النظرية بدأت تعبر عن النتائج المحصلة بفضل هذه البحوث الجديدة ، إن هذا التقدم الفجائي يفسر بالحاجة الأخذ بعين الاعتبار المجتمعات المتغيرة المتحدرة من الاستقلال عن الاستعمار وبالقدر نفسه بالصيرورة الداخلية للعلم الأنثروبولوجي . إن علماء السياسة يعترفون - من الآن وصاعداً - بضرورة وجود أنثروبولوجيا سياسية ، ف(الموند) يجعل من ذلك شرطاً لكل علم سياسة مقارن ويستنتج (ر . آرون) بأن المجتمعات المسماة نامية هي بصدد سحر علماء السياسة الراغبين بتجنب الأقليمية الغربية أو الصناعية . أما (باركنسن) فيعتقد بأن دراسة النظريات السياسية كان ينبغي أن يسلمَ أمرها إلى الأنثروبولوجيين الاجتماعيين .

هذا النجاح المتأخر لا يمضي دون جدال أو غموض ، وبالنسبة لبعض الفلاسفة وبخاصة (ر . ريكور) فإن الفلسفة السياسية هي وحدها المبررة

قياساً إلى أن الموضوع السياسي هو (بشكل رئيس) الموضوع نفسه من مجتمع لآخر؛ حيث السياسة هي «منحى» وهدفها طبيعة المدينة. وهذا رد كامل على علوم الظاهرة السياسية؛ وهذا الرد لا يمكن أن يكون منقوضاً بدوره إلا بتفحص متعمق لهذه الظاهرة. إن الشكوك المعبر عنها (مطولاً) من قبل هذه النظم، بالنسبة لميادينها أو مناهجها أو أهدافها المعتبرة ليست (أبداً) مناسبة لمثل هذا المشروع. وينبغي محاولة اختصارها.

لقد تعددت التيارات الفكرية في الأنثروبولوجيا السياسية، ونذكر منها:

(أ) المنحى التوليدي أو المدرسة التوليدية:

إنها - في الوقت ذاته - الأولى في تاريخ النظام والأكثر طموحاً، إنها تطرح على ذاتها مسائل «الأصول» و«التطور»، بنفس طويل: الأصل السحري أو الديني للحكم الملكي، مختصر لتركيب الدولة البدائية، انتقال المجتمعات المبنية على «القراية» إلى مجتمعات سياسية... إلخ. إنها موضحة بسلسلة مؤلفات منذ مؤلفات الرواد حتى الدراسة التاريخية لماكلود (أصل وتاريخ السياسة)، وهي تجد (بطريقة ما) نتيجة لها في الأبحاث الآتية (تلك الأبحاث المستوحاة من الماركسية) وتضم إليها مفهوماً جديلاً لتاريخ المجتمعات.

(ب) المدرسة الوظيفية:

إنها تحدد هوية المؤسسات السياسية في المجتمعات المسماة بدائية انطلاقاً من الوظائف المعمول بها. وحسب تعبير (رادكليف - براون)،

فإنها تقود لدراسة «التنظيم السياسي» كمظهر لـ «التنظيم الكامل للمجتمع». وفي الواقع، فإن التحليل يستحضر مؤسسات سياسية متعددة وهكذا جهاز (الحكم الملكي) ومؤسسات متعددة الوظائف مستعملة في بعض المناسبات لغايات سياسية، وهكذا التحالفات (المشادة بين العشائر أو الأنساب).

هذا النوع من المنحى يسمح بتعريف العلاقات السياسية، والتنظيمات والمذاهب التي تكونها، ولكنه أسهم قليلاً بإيضاح طبيعة الظاهرة السياسية. إن هذه الأخيرة مميزة بوجه عام بمجموعتين من الوظائف: الوظائف التي تقيم أو تساند النظام الاجتماعي مرتبة التعاون الداخلي (رادكليف - براون) والوظائف التي تشكل ضماناً للأمن بتأمينها الدفاع عن الوحدة السياسية.

ج- المدرسة النموذجية:

إنها استمرار للمدرسة السابقة، إنها تسعى لتحديد نماذج النظم السياسية ولتصنيف أشكال تنظيم الحياة السياسية. إن وجود الدولة البدائية أو عدم وجودها يبدو أنه يمنح معياراً أولياً للتمييز، إنه ذلك الذي يغلب في (النظم الأفريقية السياسية). إن هذا التفسير ثنائي التفرع هو الآن قيد المناقشة. وفي الواقع، فمن الممكن بناء سلسلة نماذج تمتد من النظم ذات حكم الحد الأدنى، إلى نظم الدولة واضحة التكوين؛ وبالتقدم من نموذج إلى نماذج أخرى، فإن السلطة السياسية تتغير بشكل أفضل، وتنظم بطريقة أكثر تعقيداً وتصبح مركزية. إن المعارضة بين المجتمعات الجزئية

ومجتمعات الدولة الممركزة (المركزية) تبدو قابلة للنقاش أكثر فأكثر، حتى إن الباحث الأفريقي (سوتال) أوضح ضرورة إدخال فئة ثالثة، على الأقل : (تلك المتعلقة بالمجتمعات الجزئية). وعلاوة على هذا النقد، فإن المنهج - بحد ذاته - موضوع موضع الشك، إلى درجة أن النموذجية هي أحياناً مشبهة بتكرار لفظي غير مجد، وكان من الملائم على الأقل عدم خلط وجمع النماذج «القابلة للوصف» والنماذج «القابلة للاستنتاج» (استون)، وكان من المهم عدم حذف الصعوبة الكبرى وهي أن: النماذج المعرف بها هي «متختر»؛ وحسب التعبير الحماسي لـ (ليخ)، «لا يمكننا أن نرضى لوقت طويل بالمحاولات التي تقيم نموذجية لنظم ثابتة».

(د) مدرسة المصطلحات:

إن تأشيراً أولياً للظواهر والنظم السياسية، ينطلق بالضرورة من محاولة تأسيس للفئات الأساسية. إنها مهمة صعبة تتطلب مسبقاً حصراً دقيقاً للحقل السياسي. إنها تبقى غير مكتملة أبداً، إن الباحث السياسي (أستون) في دراسة له حول أنثروبولوجيا السياسية يؤكد بأن موضوع هذا العلم يبقى معرّفاً بشكل سيئ؛ لأن مشاكل عدة في المفهوم لم تجد لها حلاً. وإحدى المبادرات الأكثر اندفاعاً هي مبادرة (سميث)، إنها تحاول بحماس إقامة المفاهيم الأساسية: العمل السياسي، التنافس، السلطة، الهيمنة، الإدارة، الواجب... إلخ، وهي إضافة إلى ذلك مفيدة (بنتائجها)، عندما تعرض «العمل السياسي» بطريقة تحليلية، بهدف وضع إشارة

للجانِب المشترك لكل النظم . ويبقى مع ذلك من الأسهل وضع معجم المفاهيم الأساسية مع منح هذا المعجم مضموناً .

إن تأسيس هذه المفاهيم يجب أن يكمل دراسة منتظمة للفئات والنظريات السياسية الأصلية ، وسواء كانت هذه الأخيرة واضحة أو ضمنية ، ومهما تكن الصعوبات المعترضة لترجمتها .

إن علم الألسن هو بذلك أحد الأدوات الضرورية للأنتروبوجيا وعلم الاجتماع السياسيين . ولم يكن سيعرف تجاهل حقيقة : أن المجتمعات المتأتية من أول هذين الأمرين (الفئات) ، تفرض توضيح النظريات التي تفسرها ، والأيدولوجيات التي تبررها ، لقد اقترح (سوتال وبياتي وبالنديه) الوسائل الي يجب استعمالها بغية بناء هذه النظم المظهرة للفكر السياسي الأصيل .

هـ) المدرسة البنيوية؛

إنها تستبدل الدراسة التوليدية أو الوظائفية بدراسة للموضوع السياسي موضوعاً انطلاقاً من الأنماط البنيوية .

إن ما هو سياسي يرى بمظهر العلاقات الشكلية التي تأخذ بالحسبان علاقات السلطة القائمة فعلياً بين الأفراد والجماعات ؛ وإذا كنا نريد اللجوء إلى التفسير الأكثر بساطة فإن البنيات السياسية مثل كل بنية اجتماعية هي النظم المظهرة للمبادئ التي توحد العناصر المكونة للمجتمعات السياسية الملموسة . وفي مقال محفز مكرس لـ «بنية السلطة عند الحاجراي» وهي

مجموعة من الجماعات السكانية التشادية فإن (بويون) يدقق ويوضح واحدة من إمكانيات المنهج البنيوي المطبق في ميدان الأنثروبولوجيا السياسية. إن التطبيق يتطرق إلى مجموعة من المجتمعات المصغرة تظهر في الوقت ذاته قرابات (الاسم العام - الحاجري - يوحى بها)، وتظهر تنوعات ذات دلالة، وخاصة في معالجة «موضوع السلطة». إن شرطاً مزدوجاً وهو أنه يسمح بدرجتين ببناء نظم عائدة لمجموع صيغ التنظيم الاجتماعي السياسي، ونظام للنظم - ذلك النظام المعتبر معروفاً لسلطة الحاجري.

ومن هنا، لحظنا الدراسة، في الوقت الأول، تأثير «العلاقات البنيوية الداخلية لكل تنظيم معتبر كنظام»؛ وفي الوقت الثاني تفسير لمجموع التنظيمات المدروسة «وكأنها نتاج مزيج». وفي الحالة المدروسة فإن المنهج يؤكد خاصة على الاختلاطات المختلفة (المعادلة، التمييز الجزئي، التوكيد المتغير) للسلطتين الدينية والسياسية، وعلى لعبة المنطق التي تتحقق تحت أشكال مختلفة داخل البنية الشمولية نفسها. والتنوعات تستطيع بذلك إظهار «الحالات» للبنية نفسها.

إن المنحى البنيوي المطبق على دراسة النظم السياسية يثير صعوبات خاصة به وعلى مستوى أعم، وخاصة تلك الصعوبات التي يأخذها (ليخ) بعين الاعتبار، وهو البنيوي المعتدل، في دراسته للمجتمع السياسي للكاشيين، إنه ينطلق من الواقعة الحتمية، وهي أن البنيات المعدة من قبل الأنثروبولوجي هي أنماط موجودة فقط بوصفها «تركيبات منطقية»، وهذا

ما يقود إلى سؤال أول: كيف نمتلك اليقين بأن النمط الشكلي هو الأكثر كمالاً؟ ومن جهة أخرى فإن (ليخ) يدرس صعوبة أكثر جوهرية، وهي أن النظم البنيوية (كما يصفها الأنثروبولوجيون) هي دائماً نظم ساكنة؛ إنها أنماط للواقع الاجتماعي تظهر حالة انسجام وتوازن مشدد عليه، بينما هذا الواقع ليس له ميزة الكل المنسجم؛ إنه يخفي تناقضات ويظهر تنوعات وتغييرات للبنيات.

وفي الحالة الخاصة للتنظيم السياسي للكاشيين فإن (ليخ) يشير إلى ظاهرة التذبذب بين قطبين - النموذج «الديمقراطي» والنموذج «الأرستقراطي» - أي عدم ثبات النظام، والأحكام المتغيرة للثقافة، وللبنية الاجتماعية - السياسية وللوسط البيئي.

إن دقة العديد من التحليلات البنيوية هي ظاهرة وخادعة، إنها تفسر بشرط ضروري، ولكنه أحياناً مقنع: «الوصف لبعض النماذج غير الواقعية للوضع، آخذين بالعلم بنية نظم التوازنات». (ليخ).

ج) المدرسة الديناميكية:

إنها تكمل - بجزء ما - المدرسة السابقة بتصحيحها في بعض النقاط، إنها ترغب بفهم ديناميكية البنيات بقدر فهم النظام للعلاقات التي تكون هذه البنيات (أي الأخذ بعين الاعتبار عدم التلاؤم، والتناقضات، والضغط والحركة الملازمة لكل مجتمع). إنها تفرض ذاتها بقدر أكبر من أنثروبولوجيا السياسية؛ لأن الميدان السياسي هو ذلك الميدان حيث

الضغوط تفهم بأحسن شكل ، وحيث التاريخ يطبع علامته بأوضح شكل .
إن (ليخ) قد أسهم مباشرة في تشييد هذه المدرسة بعد أن بحث أسباب ظهورها المتأخر . إنه يتساءل حول التأثير السائد (لدور كهيم) على حساب تأثير (باريتو) أو (ماكس فيبر) هذا التأثير الذي كان سيسمح بمفهوم يشدد على التوازنات البنيوية ، وعلى التماثلات الثقافية ، وعلى أشكال التضامن ؛ علماً بأن المجتمعات الحاملة لنزاعات ظاهرة والمنفتحة على التغيرات كانت ستصبح «متهمة بالفوضوية» . إنه ينقض «الأحكام المسبقة الأكاديمية» المركزية اللاتينية للأنثروبولوجيين الذين عملوا لإبعاد بعض معطيات الواقع ، لكي لا يعالجوا إلا مجتمعات ثابتة ، غير مهددة بالتناقضات الداخلية ومعزولة داخل حدودها . وباختصار فإن (ليخ) يدعو للأخذ بعين الاعتبار لما هو متناقض ، لما هو صراعي ، لما هو مقارب ، ولما هو متعلق بالخارج ، وهذا التوجيه يظهر ضرورياً لتقدم الأنثروبولوجيا السياسية لأن ما هو سياسي يعرف ذاته أولاً بالتماس الفوائد بالتزامن .

إن أنثروبولوجيي مدرسة مانشستر تحت تأثير (غلو كمان) ، يوجهون أبحاثهم نحو تفسير ديناميكي للمجتمعات . لقد درس (غلو كمان) طبيعة العلاقات القائمة بين «التقليد» و«الصراع» (التقليد والصراع في أفريقيا ١٩٥٥) بين «النظام» و«التمرد» (النظام والتمرد في أفريقيا القبلية ١٩٦٣) . إن إسهامه يتعلق - في الوقت ذاته - بالنظرية العامة للمجتمعات التقليدية والسلفية ، وبمنهج الأنثروبولوجيا السياسية . إن هذه الأخيرة تجد اقتراحات في نظريته عن التمرد ، وفي دراساته المكرسة لبعض الدول الأفريقية .

إن التمرد يرى كصيرورة دائمة وتظهر (بطريقة ثابتة) العلاقات السياسية بين ما هو طقسي مطروح بجزء منه كأداة تعبير عن النزاعات وكأداة لتعطيلها، مؤكداً على وحدة المجتمع.

إن الدولة الأفريقية التقليدية تبدو غير ثابتة وحاملة لجدل منظم (محول إلى طقوس) يسهم أكثر في مساندة النظام من تغييره، وللإثبات النسبي والتمرد المراقب، كان يمكن أن يكونا، بذلك المظاهر الطبيعية للسيرورات السياسية الخاصة لهذا الشكل من الدولة. ونحن نرى ذلك، إن الجديد النظري هو فعلي، ولكنه ليس مقادراً حتى أقصاه.

إن (غلو كمان) يعترف جيداً بالديناميكية الداخلية كعامل مركب لكل مجتمع، ولكنه يقلل من محمله التغييري، وهذه الديناميكية مأخوذة بالحسبان مثل التأثيرات الناتجة عن «الشروط الخارجية» - ولكن الديناميكية الداخلية تندرج ضمن مفهوم للتاريخ يربط المجتمعات المتأتية من الأنثروبولوجيا بتاريخ معتبر تكرريراً.

إن هذا التفسير يثير جدلاً، لا يمكن تجنبه، وتظهر أهميته في الواقع من خلال الفائدة المتصاعدة المعطاة لأبحاث الأنثروبولوجية ذات الفكر التاريخي، ومن خلال تضاعف الدراسات النظرية التي تقوم هذه الفائدة. وبعد فترة طويلة من الرصانة والتي تجد تفسيراً لها في الطموحات الكبيرة للمدرسة التطورية وببلاغات المدرسة الانتشارية وفي الموقف السلبي المتخذ للمدرسة الوظيفية فإن هذه الأسئلة تجد مكاناً أولاً لها في حقل البحث الأنثروبولوجي. إن مؤلفاً صغيراً لـ (إيفانز - بريثارد) «الأنثروبولوجيا

والتاريخ» يسهم في إعادة تأهيل التاريخ . إن هذا الجدل لن يجد نفعاً له إلا إذا بدأنا بتمييز دون مخاطر الخلط لوسائل المعرفة التاريخية وللتعبيرات الأيديولوجية التي تغطي التاريخ الحقيقي .

وبالنسبة للأنثروبولوجيا السياسية فإن توضيح العلاقات القائمة بين هذه الحقول الثلاثة هو شرط ضروري .

وفي ميدان عُدَّ مطولاً ، خارجاً عن التاريخ - ميدان المجتمعات والحضارات الأفريقية السوداء - فإن الأعمال حديثة العهد بدأت بإثبات خطأ التفسيرات السكونية جداً . إن حقيقة التاريخ الأفريقي الظاهرة من خلال تلاقي حياة المجتمعات السياسية والحضارات السوداء ومن خلال موتها لم يعد من الممكن تجاهلها .

وإن الأبحاث التي تأخذ بالحسبان هذه الأبعاد تظهر بأن الوعي التاريخي لم يظهر عرضاً تبعاً لتجارب الاستعمار وللتغيرات الحديثة ؛ إن هذه الدراسات تثبت - بتشويه وجهة نظر (جان بول سارتر) - بأن الموضوع لا يتعلق فقط بتاريخ أجنبي «حول إلى تاريخ داخلي» ، إن (نادل) في دراسته عن النوب (نيجيريا) يميز بين مستويين للتعبير عن التاريخ (مستوى التاريخ الأيديولوجي ومستوى التاريخ الموضوعي) ، ويستنتج بأن النوب لديهم وعي تاريخي . وهذا الوعي يعمل على كل من المستويين .

إن أبحاثاً جديدة أثبتت هذا النزاع للتعبير التاريخي وللمعرفة التي تدير هذا التعبير : تاريخ عام (مثبت في خطوطه العامة ومتعلق بكيان أثني

كامل) وهو يتعايش مع تاريخ خاص (معرف به في التفاصيل ، وخاضع لاعوجاجات ، ومرجعة جماعات خاصة باهتماماتها النوعية) إن دراسة لـ (إيان كينيزون) التي وصلت إلى شعب اللايولا في أفريقيا الوسطى تحمل توضيحاً ملموساً . إنها تعرف بالوضع المعبر لهذين النمطين للتاريخ الأفريقي : على مستوى التاريخ المسمى لا شخصي ، فإن الزمن والوضع هما مجموعان وعلى مستوى التاريخ المسمى شخصي ، فإن الزمن ملغي والمتغيرات معتبرة وكأنها لا شيء - إن الأوضاع والاهتمامات للجماعات مجمدة بشكل ما .

إن هذا التحليل يظهر من جهة أخرى إلى أية درجة كان لدى (اللايولا) وعيٌ لدور الحدث في صيرورة مجتمعهم ، وقد حصلوا على معنى السببية التاريخية ، وبالنسبة لهم ، فإن هذه السببية لا تنأتى من النظام فوق الطبيعي ؛ لأن الأحداث خاضعة مبدئياً لإرادة الناس .

إن العلاقة بين التاريخ والسياسة بادية للعيان ، حتى في حالة المجتمعات المتروكة للمذاهب الأنثروبولوجية ، ومنذ اللحظة التي لا تود بها المجتمعات ترى كنظم متخذة فإن القرابة الجوهرية لديناميكياتها الاجتماعية ولتاريخها لا يعود بالإمكان تجاهلها .

وهناك سبب آخر يفترض ذاته بقوة أكبر أيضاً وهو أن : درجات الوعي التاريخي متصلة بأشكال تركز السلطة السياسية ودرجته . وفي المجتمعات الجزئية فإن حراس المعرفة المتعلقة بالماضي هم الماسكون بزمام السلطة على

العموم . وفي مجتمعات الدولة فإن الوعي التاريخي يبدو أكثر حيوية وأكثر شمولاً . وفي الواقع فإنه في كنف هذه الأخيرة يتم الفهم - بشكل واضح - لاستعمال التاريخ الأيديولوجي بغية أهداف الاستراتيجية السياسية، وقد أوضح (فانسينا) ذلك بشكل جيد بصدور رواندا القديمة . ويبقى التذكير بأن سير الدول المستعمرة (بفتح الميم) نحو الاستقلال قد وضع في خدمة القوميات تاريخاً حقيقياً محارباً .

وهكذا إذاً فمن خلال لعبة الضرورة أصبحت ظاهرة الملامح، فإن النظرية الديناميكية للمجتمعات، وأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع السياسيين والتاريخ، قد تم تسييرها نحو توحيد جهودها . وهذا اللقاء يعطي حماسة جديدة لتلك الرؤية المسبقة (لدور كهاريم): «نحن مقتنعون . . . بأن يوماً سيأتي، وفيه لن يختلف الفكر التاريخي والفكر الاجتماعي (السوسيولوجي) عن بعضهما إلا ببعض الاقتباسات» .

خامساً: الأنثروبولوجيا الحضرية:

تعد الأنثروبولوجيا الحضرية ميداناً من ميادين علم الإنسان (الأنثروبولوجيا)، وتهتم بالدراسة والتحليل بالمجتمعات المحلية الحضرية، فتدرس ثقافاتهما والهجرة من الريف إلى الحضر وعمليات التكيف مع الحياة الحضرية وموضوعات الصحة والتعليم والفقر . . . إلخ، في المجتمعات الحضرية . فالمشكلة الحضرية هي جوهر الدراسة التي تقوم بها الأنثروبولوجيا الحضرية والنظرة الكلية إلى المدينة بوصفها وحدة كلية

متكاملة هي البعد المعرفي المحدد لهذا الميدان من ميادين الأنثروبولوجيا .

وهناك نماذج لدراسات عدة توضح الأبعاد المعرفية لميدان الأنثروبولوجيا الحضارية مثل : الدراسات الأنثروبولوجية الخاصة بالمقارنة بين الحياة الريفية والحياة الحضرية معتمدة في ذلك على أن المهاجرين هم قرويون أو ريفيون زرعوا زرعاً في المدينة ، وكذلك عمليات التحول بين المهاجرين من الريف إلى المدينة .

ومن الدراسات التي تناولتها بالبحث الأنثروبولوجيا الحضرية والخصائص المشتركة بين مدن العواصم الصناعية . هل ترجع تلك الخصائص المشتركة إلى تشابه تاريخ تلك المدن؟ أم إنها ترجع إلى تشابه الوظيفة التي تؤديها ، وفي تلك الحالة يمكن معرفة الخصائص نفسها ولو بشكل جزئي في العواصم التقليدية القديمة ، وإذا كانت هناك فروق بين المدن التي تؤدي الوظيفة ذاتها ، فهل تعود هذه الفروق إلى الفروق بين الثقافات التي تنتمي إليها تلك المدن؟ وهل هناك أوجه شبه ترجع إلى الحضرية أو ما يسمى (أسلوب الحياة في المدينة) وكذلك دراسات التعليم والصحة الحضرية استناداً إلى آثار الفروق بين الثقافات الفرعية وأساليب تربية الأطفال على مدى تقبل المادة التعليمية وعلى التحصيل الدراسي ، وكذا الأمر بالنسبة للصحة والأمراض والاعتقادات المرتبطة بها .

سادساً: الأنثروبولوجيا التنموية (أنثروبولوجيا) التنمية؛

يُعد هذا الميدان المعرفي من ميادين الأنثروبولوجيا المعاصرة، فقد ظهر اهتمام الأنثروبولوجيا الواسع النطاق بالتنمية في فترة حديثة نسبياً وتؤكد أنثروبولوجيا التنمية - كما يدل اسمها - : أهمية التغير الاجتماعي - الثقافي والمشكلات التي تثار حوله في تفاعل حركي مع القوى التي تدعم الاستقرار، ولعل أنثروبولوجيا التنمية تذهب إلى أبعد من ذلك حيث لا تهتم فقط بعمليات التغير ومصادره، بل تهتم أيضاً بالأساليب التي يمكن من خلالها تحريك هذه العمليات والمصادر وتوجيهاتها والتحكم فيها .

إذاً يدرس أنثروبولوجيا التنمية موضوعات التغير الاجتماعي الثقافي في البلدان النامية وعملية الانتقال في هذه المجتمعات من الحالة التقليدية إلى الحالة المتقدمة وما ينجم عن ذلك من مشكلات تتعلق بالمجتمع (أفراد ومؤسسات) إضافة إلى الآثار التي تتركها عملية التغير هذه في موضوعه (التكيف واستقرار الجديد) ويشكل المجتمع الجديد في البلدان النامية موضوعاً هاماً للدراسة الأنثروبولوجية التنموية، ولعل ذلك عرف باسم (تنمية المجتمع المحلي) ولقد شاع استخدام هذا الاتجاه في جميع برامج المساعدات الأجنبية والدولية، كما استعانت به الحكومات الوطنية، إذ تستند معظم برامج تنمية المجتمع المحلي إلى اعتقاد مؤداه : أن أغلب مجتمعات الفلاحين لديها فائض من قوة العمل ومن النقود في بعض الأحيان لا تستخدمه الآن، وعلى ذلك يمكن تنظيم هذا الفائض وتوجيهه نحو زيادة إنتاج المنتجات الزراعية، أو صناعة المساكن الصغيرة؛ فضلاً عن

النهوض بنوعية الحياة في المجتمع المحلي ، وذلك بفضل تطوير العلاقات الشخصية بين الناس وتزويدهم بالخدمات ، كالمياه ، المدارس ، ووسائل الاتصال . . . إلخ .

وتفترض بعض البرامج أن التطورات التي تتم على مستوى شعبي أو جماهيري لها تأثير تراكمي من حيث أنها تنشط الاقتصاد العام للمجتمع ، كما أن بعض الدارسين قد نظروا إلى هذه البرامج على أنها وسيلة لتحقيق بعض مزايا التنمية للسكان الريفيين مباشرة وذلك مع أقل نفقات ممكنة .

بضوء ما سبق ، فقد لعبت الأنثروبولوجيا دوراً معقولاً في برامج التنمية من خلال ما ذكرنا سابقاً ، ولا شك أن هذا الدور في تطور مستمر ، ويتطلب من أنثروبولوجيا التنمية الوقوف عند قضايا ، مثل : هل التنمية تتمثل في إتاحة الفرصة لاستغلال أقل الموارد حتى يمكن مواجهة احتياجات مزيد من السكان؟ أم يجب أن تركز التنمية على النهوض بنوعية أو طبيعة الحياة بالنسبة لعدد محدود من السكان؟ وكيف يحدد الناس ما يعنونه بنوعية من الحياة؟ وإن عمليات التنمية تتطلب مزيداً من الاستغلال الواسع والمركز لموارد الطبيعة ، فكيف يمكن إحداث هذا التغير الطبيعي وكيف يمكن التسامح بصده أيضاً؟

ولعل السؤال الأهم والذي يوجه أنثروبولوجيا التنمية هو كيفية التحكم في زيادة السكان وصياغة الأهداف والحد من الاختلال الأيكولوجي؟ وكذلك مواجهة مشكلات التنمية في الأم الجديدة والأنماط التي تجسدها كالعولمة وغيرها .

كل ذلك يحدد ماهية البعد المعرفي المتطور لأنثروبولوجيا التنمية، ويجسد الدور المطلوب منها كميدان أنثروبولوجي معاصر نسبياً في الحدود المعرفية لعلم الإنسان .

سابعاً: الأنثروبولوجية البدوية؛

وهي أحد ميادين الأنثروبولوجيا التي تدرس بالوصف والتحليل المجتمع البدوي، ما هو كنسق اجتماعي؟ وما خصائصه التي تميزه عن المجتمع المحلي (الريفي) أو المجتمع الحضري (المدني)؟ كما تدرس ثقافة المجتمع البدوي المكونة لها، وخصائصها وآلية التغير الثقافي في المجتمع البدوي، ومصادر عيش هذا المجتمع وعاداته وتقاليده والنظم المرتبطة به كنظم القرابة، والنظم الدينية والتربوية ونظم الزواج والدراسات المتعلقة بتنظيم عملية التضامن الاجتماعي، ومسألة الأمن الداخلي والخارجي في المجتمع البدوي، إضافة إلى مسائل تنظيم الزواج، والنشاط الاقتصادي وإجراء الطقوس الدينية، والنشاط السياسي. ولعل موضوع القبيلة والعشيرة يشكلان المحور الرئيس لموضوع ميدان الأنثروبولوجيا البدوية؛ لأنهما يشكلان النسق الاجتماعي للمجتمع البدوي من حيث البنية والخصائص والوظائف وما إلى ذلك من موضوعات مرتبطة بهما.

ثامناً: الأنثروبولوجية الاجتماعية؛

تُعد الأنثروبولوجيا الاجتماعية أحد ميادين الأنثروبولوجيا، وكثيراً ما تستخدم بمعنى الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) بشكل عام. إنها الجانب

الاجتماعي السوسيولوجي لعلم الإنسان؛ فتدرس بالوصف والتحليل المجتمع الإنساني القديم والمتطور من حيث البناء الاجتماعي وخصائصه، والنسق الاجتماعي ومكوناته، وعادات وتقاليد المجتمع (كالعادات المرتبطة بالولادة والزواج والوفاة) والأنظمة الاجتماعية مثل: النظام الأسري والتربوي وغيرهما. . والأمثال الشعبية وموضوعات الفلكلور الشعبي والمعتقدات والمعارف الشعبية، مثل: الطب الشعبي، والأعياد الشعبية، والنذور والأولياء. . إلخ.

وبشكل عام تدرس الأنثروبولوجيا الاجتماعية أصول المجتمعات الإنسانية وتاريخها، فتتبع نموها وتطورها، كما تهتم بالدراسة والتحليل بالدور الذي يؤديه الفرد في المجتمع (الدور الاجتماعي) وتعدد هذا الدور وتغير وظائفه.

ولعل بداية هذا الميدان المعرفي ترتبط بما يسمى في علم الاجتماع بنشوء المدرسة الأنثروبولوجية حين أعلن (أوغست كونت) وتلاميذه عن ضرورة إنشاء علم جديد لدراسة ظواهر الاجتماع الإنساني، وقد لقيت هذه الدعوة قبولاً لدى طائفة غير يسيرة من العلماء الذين وجهوا نشاطاتهم إلى الدراسات المتصلة بنشأة الإنسان الأول ونظم الحياة البدائية فحاولوا أن يربطوا بين نتائجهم وبين ما يقول به علماء الاجتماع، وقد ظهرت في هذه المرحلة دراسات عدة أكدت تكون ميدان الأنثروبولوجيا الاجتماعية وبخاصة الدراسات المرتبطة بعادات وتقاليد الشعوب البدائية، مثل: دراسة (وسترمارك) الفنلندي الأصل عن الظواهر الأسرية وتطورها في مختلف المجتمعات التي زارها فدرس نظم الزواج، والطلاق، والعلاقات، والروابط

الأسرية، والقرباة، والانفصال، والهجر، ونظم الأخذ بالثأر والقتل، وتقديم الضحايا والقرايين، والمظاهر الطقوسية، وغير ذلك من الدراسات.

وهناك بعض الدراسات المعاصرة في ميدان الأنثروبولوجيا الاجتماعية، مثل: دراسة قرية (حوارين)^(١).

ودراسة (الدكتورة علياء شكري) وهي بعنوان (دراسات ميدانية لثقافة بعض المجتمعات المحلية في المملكة العربية السعودية)^(٢) وهي دراسة اثروبولوجية اجتماعية لقرى (محافظة سبت العلايا بلقرن) و(الطرفين) و(سبت تنومة).

ودراسة (د. محمد الجوهري) وهي بعنوان: (بعض مظاهر التغير في مجتمع غرب أسوان)^(٣).

ونظراً لأهمية ميدان الأنثروبولوجيا الاجتماعية من وجهة نظرنا، وإشارة لما بيناه فيما سبق أننا سنقوم بشيء من التوسع لهذا الميدان المعرفي، سنعرض موقع ومكانة هذا الميدان في نظرية المعرفة، وعملية نشوئه وتطوره وموضوعاته الرئيسة.

أ - الأنثروبولوجيا الاجتماعية (الموقع والمكانة المعرفية):

يتحدد موقع الأنثروبولوجيا الاجتماعية في نظرية المعرفة استناداً إلى تطور هذه النظرية «نظرية المعرفة» تاريخياً.

(١) د. محمد صفوح الأخرس: الأنثروبولوجيا الاجتماعية، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٨٢ م.

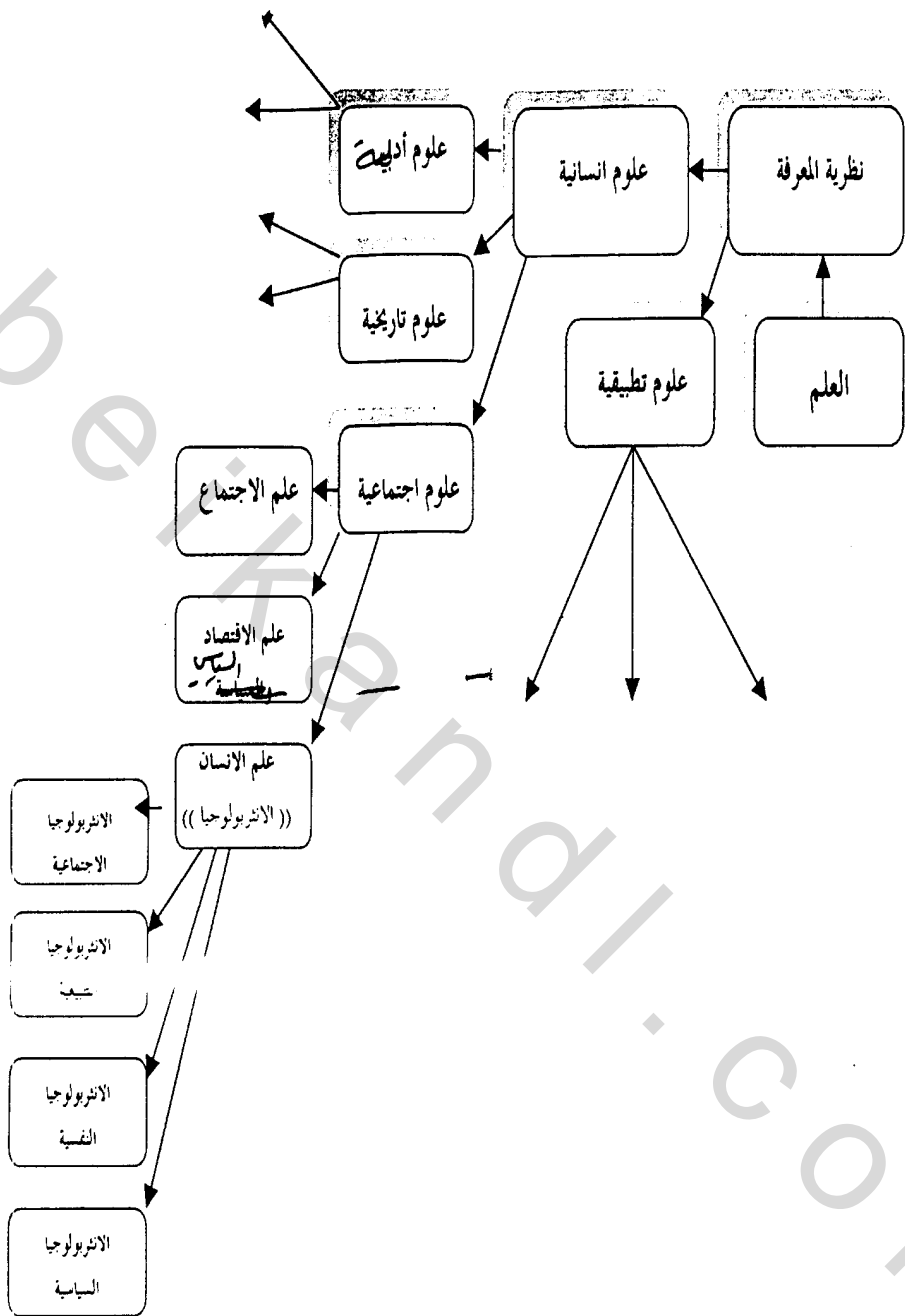
(٢) انظر: د. محمد الجوهري: الأنثروبولوجيا، ص ٥٣٣.

(٣) المصدر ذاته، ص ٣٧٧.

فقد انقسمت نتيجة جملة من الأسباب إلى محورين رئيسين هما :
[العلوم الإنسانية - والعلوم التطبيقية] (راجع القسم الأول : الأنثروبولوجيا
الموقع والمكانة في نظرية المعرفة).

وهكذا العلوم الإنسانية انقسمت إلى ميادين معرفية عدة مثل : العلوم
الأدبية - والتاريخية - والاجتماعية . . . إلخ . وكذلك كل ميدان انقسم
بدوره إلى موضوعات شكلت فيما بعد ميادين (علوم) معرفية مستقلة .
فانقسمت العلوم الاجتماعية إلى علم الاجتماع ، وعلم اقتصاد سياسي ،
وعلم سكان ، وعلم الإنسان (الأنثروبولوجيا) وهكذا كل علم من هذه
العلوم انقسم أيضاً إلى ميادين معرفية ، فانقسمت الأنثروبولوجيا إلى
أنثروبولوجيا ثقافية ونفسية وسياسية وطبيعية واجتماعية . . . إلخ .
وبدورها الأنثروبولوجيا الاجتماعية انقسمت أيضاً إلى موضوعات حتى
الآن لم ترتق إلى مستوى العلم (الميدان المعرفي المستقل والمُعترف به علمياً)
مثل : البناء الاجتماعي - النظام الاجتماعي - الدور الاجتماعي . . . إلخ ،
وينطبق هذا أيضاً على الأنثروبولوجيا الطبيعية والنفسية والثقافية . . . إلخ .

ولا شك أن كل ميدان من هذه الميادين كان موضوعاً من الموضوعات
التي تدرسها الأنثروبولوجيا ، غير أن عملية التطور المعرفي التي شهدتها كل
موضوع أدت به إلى أن أصبح ميداناً مستقلاً ، وهكذا استقلت جميع
الموضوعات وباتت ميادين معرفية (علوم مستقلة) ، كما يوضح الشكل
التالي :



إلخ

وتُعد العملية المعرفية المنطقية أحد جوانب التأكيد على عملية هذا الميدان المعرفي (الأنثروبولوجيا الاجتماعية) بيد أن هناك جوانب أخرى تؤكد بدورها العملية أو الاعتراف العلمي بهذا العلم وهي مقاييس الاعتراف العلمي (التي أشرنا إليها في القسم الأول من هذه المحاضرات) وهي :

١- الاعتراف الأكاديمي بالأنثروبولوجيا الاجتماعية من خلال وجود هذا الاختصاص في مقررات تدريسية في الجامعات والمعاهد العلمية .

٢- انتشاره العلمي من خلال الكتب والدراسات والمقالات العلمية وغير ذلك .

٣- اعتبار موضوعاته عناوين لمؤتمرات أو ندوات علمية متخصصة على المستويات الوطنية والأقليمية والعالمية .

٤- انطباق قانونه العام والخاص والوحيد على هذا العلم ؛ كما يوضح الشكل التالي :

الوحيد	الخاص	العام
العلوم الاجتماعية	العلوم الانسانية	نظرية المعرفة
الانثروبولوجيا	العلوم الاجتماعية	العلوم الانسانية
الانثروبولوجيا الاجتماعية	الانثروبولوجيا	العلوم الاجتماعية
البناء الاجتماعي	الانثروبولوجيا الاجتماعية	الانثروبولوجيا
..... وهكذا	البناء الاجتماعي	الانثروبولوجيا الاجتماعية

وهكذا ينطبق هذا القانون على الأنثروبولوجيا الاجتماعية، وتصبح هي في موقع العام والخاص والوحيد معاً.

فهي : وحيد عندما تكون جزءاً من العلوم الاجتماعية عبر الأنثروبولوجيا، وهي عام عندما تصبح علماً مستقلاً لها خاصها ووحيدها.

ب - الأنثروبولوجيا الاجتماعية (تحديد المفهوم) :

كما بينا فيما سبق يتضمن تحديد المفهوم مدخل عدة، منها : المدخل اللغوي وهو العودة إلى قواميس اللغات وشرح : ماذا يقصد بمفهوم الأنثروبولوجيا الاجتماعية فيها؟ مثل :

القاموس المحيط «لغة عربية» قاموس المورد «لغة إنجليزية/ عربية» . وهكذا بقية اللغات الأخرى .

والمدخل الاصطلاحي ويتضمن هذا المدخل بالنسبة لأي علم من العلوم ومنها الأنثروبولوجيا الاجتماعية توضيحه استناداً إلى الموقع في نظرية المعرفة حسب الشكل التالي :

نظرية المعرفة ← العلوم الإنسانية ← العلوم الاجتماعية ← الأنثروبولوجيا

الأنثروبولوجيا ← البناء الاجتماعي والدور الاجتماعي والعادات والتقاليد والأمثال الشعبية

واستناداً إلى ذلك يتحد تعريف الأنثروبولوجيا الاجتماعية بأنها :

«أحد ميادين العلوم الاجتماعية، تدرس بالوصف والتحليل : البناء الاجتماعي والعادات والتقاليد والأمثال الشعبية . . . إلخ انطلاقاً من المستوى النظري والمنهجي للأنثروبولوجيا» .

كما يتضمن المدخل الاصطلاحي شرح مفهوم الأنثروبولوجيا الاجتماعية، كما ورد في قاموس الأنثروبولوجيا حول الأنثروبولوجيا الاجتماعية أنها :

«أحد أجزاء الأنثروبولوجيا، تدرس السلوك الاجتماعي الذي يتخذ شكل نظم اجتماعية : كالعائلة، ونظام القرابة، ونظم العيش، ونظام العادات والتقاليد، ودراسة المجتمعات المحلية الصغيرة . . . إلخ» .

وهنا لابد من الإشارة إلى أن اهتمام علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية استمر إلى فترة طويلة بدراسة الشعوب شبه البدائية إلى أن حدث (منذ فترة قصيرة) تغير أساسي وهو عدم اقتصار دراسات الأنثروبولوجيا الاجتماعية على المجتمعات شبه البدائية دائماً، شملت كذلك المجتمعات المتقدمة وبخاصة الصغيرة منها، مثل مجتمع القرية، أو الأحياء السكنية في المدن الكبيرة .

ج - نشأة وتطور الأنثروبولوجيا الاجتماعية؛

تنقسم الفترة الزمنية والمعرفية لظهور الأنثروبولوجيا الاجتماعية كميدان علمي مستقل (عام) إلى المراحل التالية :

١، التمهيد لظهور الأنثروبولوجيا الاجتماعية؛

وتحدد هذه المرحلة بالقرن الثامن عشر الميلادي، وتجلت المادة
الأنثروبولوجية الاجتماعية بالمعطيات التالية :

* ما قدمه العلامة [مونتسكيو] في كتابه روح القوانين، حيث بين أن
المجتمع يتكون من نظم ترتبط بعضها ببعض ارتباطاً وظيفياً، وبالتالي لا
يمكن فهم القانون في مجتمع دون دراسة علاقته بالبيئة الطبيعية
والاجتماعية والاقتصادية والسكانية للناس . كما ميز [مونتسكيو] بين البناء
الاجتماعي للمجتمع ونظام القيم الذي يعمل في هذا البناء، وأطلق على
البناء الاجتماعي اصطلاح «طبيعة المجتمع» أما نظام القيم فأطلق عليه
اصطلاح «مبدأ المجتمع» وهو الرغبات والأهداف التي تدفع البناء
الاجتماعي للعمل .

* ما قدمه العلامة [سان سيمون] من معطيات معرفية اجتماعية تجلت
بضرورة إنشاء علم للمجتمع (علم وضعي للعلاقات الاجتماعية التي
كانت يعدها مشابهة للعلاقات العضوية) . وفي هذه المرحلة بدأت بوادر
الاهتمام بالمجتمع البدائي وبخاصة مجتمع الهنود الحمر .

* إسهامات مفكرّي القرن الثامن عشر الآخرين أمثال : (دافيد هيوم)
و(آدم سميث) اللذين نظرا إلى المجتمع الإنساني على أنه (نسق طبيعي)
بمعنى : أنه ينشأ من الطبيعة البشرية ذاتها، ومن هنا انتشرت مفاهيم
الأخلاق الطبيعية، وإسهامات العلامة [جون لوك] من خلال تعليقاته

حول الكتابات التي نشرت عن الهنود الحمر والأحكام العامة عن الشعوب
البداية استناداً إلى تلك الدراسات .

إذاً: فلاسفة ومفكرو القرن الثامن عشر الميلادي مهدوا لظهور علم
يدرس النظم الاجتماعية ، لعله هو الذي سمي فيما بعد «الأنثروبولوجيا
الاجتماعية» .

٢: مرحلة نشأة الأنثروبولوجيا الاجتماعية:

وتحدد هذه المرحلة بالقرن التاسع عشر الميلادي ، حيث ظهرت
مؤلفات عدة حول موضوع النظم الاجتماعية ودراسة المجتمعات شبه
البداية التي شكلت الموضوع الرئيس للأنثروبولوجيا الاجتماعية فيما بعد ،
ومن هذه المؤلفات :

- * الثقافة البدائية للعلامة الأنثروبولوجي «أدوار تايلور» .
 - * المجتمع القديم للعلامة الأنثروبولوجي «لويس مورجان» .
 - * النظم السياسية والقانونية في المجتمع القديم للعلامة الأنثروبولوجي
«هنري مين» .
 - * دراسات العلامة الأنثروبولوجي «ماكلينان» حول نظم الزواج والقانون
والدين . . . إلخ .
- ويعد هؤلاء أول من درسوا المجتمعات القديمة وركزوا على النظم
الاجتماعية ، كنظام الزواج والنظام الديني وعلاقته بالنظام القانوني .

كما برزت في هذه المرحلة «مدرسة الاتجاه النسوي» أي نشأة النظام الاجتماعي، و«المدرسة التطورية» مدرسة تطور النظام الاجتماعي.

وبشكل عام تجسدت نشأة الأنثروبولوجيا الاجتماعية بدراسة النظم الاجتماعية في المجتمعات البدائية بهدف الوصول إلى أصل النظم، ولتحقيق هذا الهدف استخدمت الطريقة المقارنة في المعلومات عن المجتمعات البدائية التي كان مصدرها المستكشفون وأعضاء الحملات الاستعمارية التي كان الأوروبيون يقومون بها على المجتمعات البدائية المسألة. ولعل مصطلح «علماء المقاعد الوثيرة» أطلق على رواد الأنثروبولوجيا الاجتماعية في هذه المرحلة؛ لأنهم كانوا يجمعون المعلومات عن المجتمعات من خلال الدراسات الوصفية وأقوال الرحالة والمستكشفين وغيرهم.

٤: مرحلة استكمال عناصر الأنثروبولوجيا الاجتماعية؛

وتحدد هذه المرحلة بالفترة الزمنية (الربع الأخير من القرن التاسع عشر) وتجلت إسهامات الأنثروبولوجيا الاجتماعية بالمعطيات التالية:

٤-١ تحديد مضمون الأنثروبولوجيا الاجتماعية بأنها الجانب الاجتماعي وليس الثقافي.

(الفرق بين الأنثروبولوجيا الاجتماعية البحتة والأنثروبولوجيا الثقافية).

٤-٢ ظهور العلامة [إيفانز ريتشارد] ممثلاً لهذه المرحلة، والذي قرر أن

الأنثروبولوجيا الاجتماعية يجب أن تكون علماً متخصصاً، وأن تعتمد الدراسات الحقلية أو الميدانية في ذلك .

٣-٤ كذلك العلامة الأنثروبولوجي [هادون] الذي أكد على المنهجية الخاصة بالدراسات الأنثروبولوجية وهي الدراسة الحقلية أو الميدانية .

٥: مرحلة التخصص والتوسع في الأنثروبولوجيا الاجتماعية:

وهي مرحلة بداية القرن العشرين زمنياً حيث تجسدت عملية التخصص في الأنثروبولوجيا الاجتماعية من خلال :

١-٥ التخصص في الموضوع : وهنا تحددت موضوعات الأنثروبولوجيا الاجتماعية بالبناء الاجتماعي والنسق الاجتماعي والدور الاجتماعي .

٢-٥ التخصص في المنهج : وتجسد هنا المنهج العلمي كمنهج استخدم في الدراسات الاجتماعية الأنثروبولوجية عبر نوع الدراسات الحقلية أو الميدانية (الأسلوب الميداني) .

٣-٥ التمييز بين مفاهيم أو مصطلحات الأنثروبولوجيا الاجتماعية والأنثوغرافيا ، فعرفت الأنثوغرافيا بأنها : الدراسة الوصفية لثقافة مجتمع بالذات ومصطلح الأنثولوجيا هو الدراسة التحليلية المقارنة لثقافات المجتمعات القديمة والمتطورة .

٤-٥ انتشار الأنثروبولوجيا الاجتماعية بفضل الدراسات المتخصصة للأنثروبولوجيين والاعتراف العلمي بها .

وفي هذه المرحلة بدأت الأنثروبولوجيا الاجتماعية تنتشر كفرع مستقل عن الأنثروبولوجيا في الجامعات الأوروبية وبخاصة الجامعات البريطانية .

٦: مرحلة ازدهار الأنثروبولوجيا الاجتماعية:

وتشمل هذه المرحلة زمنياً الربع الثاني من القرن العشرين (نهاية النصف الأول منه) تجلت معطيات الفكر الأنثروبولوجي الاجتماعي من خلال:

٦-١ بروز الاتجاه الأنثروبولوجي الاجتماعي البنائي - الوظيفي عبر مؤسسة [برونسلو مالينوفسكي] وزميله [رادكلف براون]. وقد أشرنا إلى هذا الاتجاه بشكل مفصل في القسم الأول من هذه المحاضرات .

٦-٢ تكون الجمعيات العلمية لدراسة المجتمعات الأفريقية، مثل: المعهد الدولي الأفريقي بجامعة أكسفورد، والمجلة الأنثروبولوجية الاجتماعية التابعة له .

٦-٣ التعمق في دراسة نظم القرابة، العشيرة، والنظم السياسية وغيرها استناداً إلى الأسلوب الحقلّي (الميداني) .

٦-٤ المنح والإعانات التي قدمتها أقسام الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية بجميع جامعات أوروبا وأمريكا بشأن القيام بأبحاث أنثروبولوجية اجتماعية .

٧ :الاتجاهات المعاصرة في الأنثروبولوجيا الاجتماعية:

وتُعد هذه المرحلة زمنياً فترة النصف الثاني من القرن العشرين ،
وتجسدت المادة الأنثروبولوجية الاجتماعية في هذه الفترة بالمعطيات المعرفية
التالية :

٧-١ ظهور بعض مدارس الأنثروبولوجيا الاجتماعية مثل :

* المدرسة الانتشارية : وتقوم على مبدأ أن النظم الاجتماعية كثيراً ما
تستعار ، وتنتقل من مكان لآخر الأمر الذي يؤدي إلى التشابه .

* المدرسة الوظيفية : التي تُعد المجتمعات أنساقاً اجتماعية تعتمد أجزاء
بعضها على بعض ، ويدخل كل جزء بعدد من العلاقات المعقدة مع الأجزاء
الأخرى من خلال الدور المتخصص له . وهي مدرسة لا تهتم بالماضي ،
وتعتمد على الحاضر ، وتقوم على مفاهيم محددة ، وهي :

* الوظيفة الاجتماعية : المماثلة بين الحياة الاجتماعية والحياة
البيولوجية من خلال وظيفة كل منهما .

* النسق الاجتماعي : علاقات بين شخصين تحكمها القوانين
والضوابط الاجتماعية .

* البناء الاجتماعي : نسق اجتماعي يتميز بدرجة معينة من الثبات
والاستقرار ، ويتألف من جماعات وزمر (العشائر - القبائل - الأسر) تقوم
بتنظيم علاقات الأفراد التي تدخل في نطاقها علاقتهم بعضهم ببعض ، كما
يسمح بالتكيف الخارجي مع البيئة الطبيعية وبالتكيف الداخلي بين الأفراد
والجماعات .

٧-٢ دراسة المجتمعات المتمدنة : وتشمل دراسات المجتمعات الحديثة وعدم اقتصارها على المجتمعات البدائية وشبه البدائية . ويقصد بالمجتمعات المتمدنة جميع المجتمعات التي باتت فيها خدمات المدينة وخصائصها السكانية والعمرانية والثقافية والاجتماعية .

٧-٣ التعاون الوثيق بين الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية : على الرغم من اختلاف الموضوع ، حيث يشكل البناء الاجتماعي أساس الأنثروبولوجيا الاجتماعية ؛ فيشكل موضوع الثقافة أساس الأنثروبولوجيا الثقافية ، ولكنهما مرتبطان ببعضهما .

د - الأنثروبولوجيا الاجتماعية: الموضوع الرئيس (البناء الاجتماعي)

يتكون البناء الاجتماعي لمجتمع ما من ثلاث مجموعات من العلاقات الاجتماعية هي :

المجموعة الأولى : وتتمثل في الوحدات الاجتماعية التي يتكون منها المجتمع ، وقد أطلق عليها اصطلاح (الأشكال المورفولوجية) وكل شكل منها يحتوي أنماطاً معينة للعلاقات الاجتماعية .

المجموعة الثانية : وتختص بالنظم الاجتماعية ، وتلك تمثل تصنيف أنماط العلاقات الاجتماعية في مجموعات ؛ تشترك كل مجموعة من موضوع واحد . فمثلاً نظام الزواج يتكون من أنماط العلاقات الاجتماعية المتعلقة باختيار ، الزوجة وطرق الحصول عليها ، ومراسيم الزواج ، وما

إلى ذلك وكذلك الحال بالنسبة للنظام الاقتصادي والنظام السياسي والنظام الديني والنظام الأخلاقي وغيره .

المجموعة الثالثة : أنماط السلوك الاجتماعي التي يتكون منها البناء الاجتماعي ، فإنها تتمثل في المراكز المختلفة التي يحددها المجتمع ويشغلها الأفراد بشروط معينة ، ويقوم الفرد بدور اجتماعي معين عند تقمص المراكز المتاحة له ، ويجب ملاحظة أن الدور الاجتماعي هو مجموعة من أنماط السلوك الاجتماعي المصاحبة لمركز معين .

وسنقف عند كل مجموعة من هذه المجموعات التي تشكل الموضوع الرئيس للأنثروبولوجيا الاجتماعية . وسيكون البناء الاجتماعي للمجتمعات البدائية هو المرحلة الزمنية المعتمدة ، وهذا لا يعني أن الأنثروبولوجيا الاجتماعية يقتصر موضوعها على دراسة هذه المجتمعات وحسب ، فهي - كما أشرنا فيما سبق - تدرس أيضاً المجتمعات المحلية (الريفية) والمجتمعات المتقدمة بمجتمعاتها المشار إليها .

١ - البناء الاجتماعي - تعريفه وخصائصه :

يختلف الأنثربولوجيون في تعريف اصطلاح (البناء الاجتماعي) ، فإذا عدنا إلى قواميس علم الاجتماع وقاموس الأنثربولوجيا نجد التعريف التالي :

«البناء الاجتماعي نسيج من العلاقات التي تربط بين أعضاء المجتمع» وفي مكان آخر هو : «نسيج من العلاقات تربط الجماعات الأساسية في

مجتمع ما» وفي بعض الدراسات الأنثروبولوجية، والأنثروبولوجية الاجتماعية يعرف (البناء الاجتماعي) كما يقول الأنثروبولوجي (كيسنج): «يقصد بالبناء الاجتماعي النظم الاجتماعية التي عن طريقها تصل مجموعة من السكان إلى حالة التكامل والترابط، وهي الحالة اللازمة لتكوين المجتمع».

ويعرّف العلامة الأنثروبولوجي (إيفانز بريشارد) البناء الاجتماعي بأنه: «الجماعات المستمرة في الوجود لوقت كاف بحيث تستطيع الاحتفاظ بكيانها كمجموعات رغم التغيرات التي تحدث للأفراد الذين يكونون تلك الجماعات».

أما الأنثروبولوجي الاجتماعي (راد كليف بروان) فيتلخص رأيه في البناء الاجتماعي بأنه يشمل ثلاث مجموعات من الظواهر الاجتماعية هي:

- العلاقات الاجتماعية بين فرد وآخر من أعضاء مجتمع معين، فمثلاً: نظام القرابة لأي مجتمع يتكون من عدد من العلاقات الثنائية، مثل: الأب والابن، أو شقيق الأم وابن اخته.

- الأدوار الاجتماعية التي يقوم بها الأفراد والجماعات في المجتمع الواحد، وتنتمي كل مجموعة من الأدوار الاجتماعية إلى مراكز اجتماعية يحددها المجتمع ويشغلها الأفراد والجماعات حسب شروط معينة، فمثلاً تتفق المجتمعات الإنسانية على تمييز المراكز الاجتماعية التي يشغلها الرجال

عن تلك التي تشغلها النساء ، وكذلك الحال بالنسبة للشيوخ والشباب والأطفال . ولعل هذه التعاريف تعد ركيزة أساسية لنا في تحديد خصائص البناء الاجتماعي ، وهي :

❖ البناء الاجتماعي يتكون من أنماط من العلاقات الاجتماعية:

وهي علاقات محسوسة بين أفراد أو جماعات المجتمع ، مثل : صورة البكاء الذي قد يطول أو يقصر عندما يقابل قريب قريبه بعد غياب طويل . . . وطقوس التحية بين أفراد المجتمع لكل من الذكور والإناث ، وطقوس الطعام في الولائم الشعبية ، وغير ذلك من أنماط العلاقات الاجتماعية الأخرى .

❖ البناء الاجتماعي كلُّ أو نسيج متشابك الأجزاء:

ومثال ذلك في مجتمعنا العربي أن نجد علاقات وثيقة بين الدين وباقي عناصر البناء الاجتماعي ، حيث ينظم الدين العلاقات العائلية من زواج وطلاق وتربية الأطفال وعلاقة الزوج بالزوجة ونظام الميراث . كما نرى أن العديد من المثل العليا العربية من كرم وشجاعة واحترام الوالدين وكبار السن وفضيلة التدين وعفة الفتاة ما هي إلا فضائل أوصى بها الإسلام . وإذا نظرنا إلى العادات اليومية نجد أثر الدين واضحاً ولا أدل على ذلك من كثرة ترديد اسم الجلالة في المحادثات اليومية . كما يؤثر الدين في حياتنا الاقتصادية وفي عادات المأكل والملبس ، ومن أمثلة ذلك النقاش بين رجال الدين حول شرعية نظام الفائدة ، والقوانين التي تمنع تعاطي المخدرات

والخمر... إلخ. ومن هنا فالبناء الاجتماعي نسيج يتكون من أجزاء متشابكة متداخلة وليس من عناصر منعزلة مستقلة (يتكامل النظام الديني مع النظام الاقتصادي مع النظام التربوي وغير ذلك).

❖ البناء الاجتماعي مستقر ولكنه ليس جامداً وليس خالداً:

يتميز المجتمع عادة بالاستمرار لفترات طويلة من الزمن بعكس ما يحدث للأفراد الذين يكونونه، ويترتب على ذلك أن البناء الاجتماعي يتصف بخاصية الاستقرار، ولكن هذا الاستقرار لا يعني الثبات أو الجمود. فمثلاً في كل يوم تحدث ولادات جديدة، كما تحدث حالات وفاة، ويهاجر أفراد منه ويأتي إليه آخرون، وتتغير مظاهر العلاقات الاجتماعية فيه لتغير الأشخاص. كما أنه (البناء الاجتماعي) قد يتعرض في بعض الأحيان إلى ضغوط خارجية تعمل على انقراضه أو انقراض جزء منه... إلخ. إذ أتينا لنا مما سبق أن (البناء الاجتماعي) هو موضوع الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ويعني المجتمع في حالته البدائية والمتطورة بكل نظم ومكوناته وأساليبه وعاداته وتقاليده وغير ذلك. وبضوء ذلك سنقف عند نموذج للبناء الاجتماعي هو المجتمعات البدائية عبر المجموعات الثلاث التي يتكون منها هذا البناء، وهي:

❖ الوحدات الاجتماعية.

❖ النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

❖ أنماط السلوك الاجتماعي.

٢- البناء الاجتماعي؛ الوحدات الاجتماعية في المجتمعات شبه البدائية؛

تُعد المجتمعات شبه البدائية إحدى أهم الموضوعات التي تدرسها الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ولعلنا من خلال الحديث عن خصائصها نستطيع تحديد ماهيتها وتكوينها البنيوي .

١-٢) خصائص المجتمعات شبه البدائية؛

تحدد الدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية خصائص المجتمعات شبه البدائية بالخصائص التالية :

- * صغر حجم المجتمع بحيث يستطيع كل فرد فيه معرفة جميع أفرادهِ .
- * حالة التجانس في السكان (نوع واحد) .
- * العزلة الاجتماعية في العلاقات الاجتماعية .
- * ممارسة جميع الفنون المعروفة في المجتمع من قبل جميع الأعضاء .
- * نظام القرابة هو الأساس فيه وفي الغالب يتكون المجتمع البدائي من مجموعة من الأقارب .
- * تنقسم العلاقات الاجتماعية إلى أنماط على أساس الاختلافات بين أفراد المجتمع من حيث انقسامهم البيولوجي إلى ذكور وإناث، ومن حيث السن (أطفال، شباب، كهول وشيوخ)، ومن حيث مراكزهم في النظام العائلي (آباء، وأمّهات، وأبناء، وبنات، وأعمام، وعمات . . . وهكذا) .

- * التعاون من أجل تأمين سبل العيش والدفاع وتحقيق الأمن .
 - * مركز الفرد في المجتمع هو محور وجوده .
 - * احترام التقاليد الاجتماعية من قبل جميع أفراد المجتمع .
 - * عمليات الضبط الاجتماعي غير رسمية وتقوم على العادات والتقاليد .
 - * النظام السياسي بسيط ومحدود .
 - * النظام الأخلاقي القيمي أساس ، ويربط أفراد المجتمع .
- وبشكل عام : المجتمع البدائي بسيط من الناحية التكنولوجية ، وقد يكون معقداً في نظمه الاجتماعية وفلسفاته القيمية والأخلاقية .

٢-٢ أنماط الوحدات الاجتماعية في المجتمع البدائي:

يقصد بأنماط الوحدات الاجتماعية (الأشكال المورفولوجية) وتعدد هذه الأنماط في المجتمعات البدائية وهي الأسرة والعشيرة والقبيلة .

الأسرة

يعرف العلامة (ميردوك) الأسرة بأنها «جماعة اجتماعية تتميز بمكان إقامة مشترك وتعاون اقتصادي ووظيفة تكاثرية (علاقة جنسية يعترف فيها المجتمع) وتتكون على الأقل من ذكر وأنثى بالغة وطفل سواء أكان من نسلها أم عن طريق التبني» .

والأسرة نوعان : زواجية أو نواتية كما تسمى في بعض الأحيان ،

بمعنى (الأسرة الصغيرة) وتسمى في بعض الأحيان الثنائية ومن أهم خصائصها:

- هي ظاهرة اجتماعية عالمية (لا يخلو مجتمع إنساني منها).

- تقوم بوظائف رئيسة عديدة، بعضها ذات انتشار عالمي (الجنسية، الاقتصادية، التكاثرية، التربوية).

- العيش المشترك في بيت واحد وقد يختلف وجوده عند أسرة الزوجة أو الزوج أو دونها.

- تطبق نظام (وحدانية الزوجة أو الزوج).

والأسرة المركبة وهي:

متعددة الزوجات أو الأزواج: وتحدد خصائصها بالتالي:

- تتكون من أسر زواجية عدة تعيش معاً في وحدة اجتماعية وسكنية، وأساس ترابطها هو الزوج المشترك أو الزوجة المشتركة. وبالنسبة للأول يسمى (أسرة متعددة الزوجات) وهي منتشرة بكثرة في المجتمعات البدائية، أما بالنسبة للثاني ويسمى (أسرة متعددة الأزواج) وهي أن يكون عدة أزواج في الأسرة، وهذا النوع كما تشير الدراسات الأنثروبولوجية يعد وجوده قليلاً. ولا بد هنا من الإشارة إلى أن هذه الدراسات تشير أيضاً إلى وجود نوع ثالث هو (الأسرة متعددة الأزواج والزوجات) وهذا ما يسمى (الزواج الجماعي).

ورغم اهتمام علماء الأنثروبولوجية في القرن العشرين أثبتت

الدراسات عدم وجوده في العصر الحديث ، لذلك ينظر إليه كشكل نظري فقط يعرف في المؤلفات الأنثروبولوجية بالزواج الجماعي كما أشرنا سابقاً .

- وقد أشارت الدراسات الأنثروبولوجية إلى ذلك من خلال الدراسة التي أجريت على قبيلة (كاينجاج) في المجتمع البرازيلي القديم ، حيث وجد فيها : ٦٠٪ من حالات الزواج التي تمت خلال مئة عام كانت من الزواج الأحادي (أحادية الزوج أو الزوجة) ، و ١٨٪ نظام وحدانية الزوج وتعدد الزوجات ، و ١٤٪ وحدانية الزوجة وتعدد الأزواج ، و ٨٪ تمثل نظام الزواج الجماعي .

- توجد (الأسرة متعددة الزوجات) في غالبية المجتمعات الإنسانية ولكنها توجد إلى جانب (الأسرة الزوجية) .

- توجد (الأسرة متعددة الأزواج) بشكل نادر جداً وتنقسم إلى نوعين : الأول : يسمى (بالشكل الأخوي) زواج عدة أخوة من زوجة واحدة وبالنسبة للنسب فيعد من يقدم هدية قوس وسهم للزوجة عند ولادتها الولد الأول هو صاحب النسب حيث ينسب الولد إليه . وفي المرة الثانية ينسب الولد إلى الرجل الثاني وهكذا .

- والنوع الثاني : يسمى (بالشكل غير الأخوي) أي زواج عدة رجال لا تربطهم صلات الدم بامرأة واحدة تتمتع بمركز اجتماعي مرتفع ويعيشون في أكواخ سكنية واحدة .

- يتولد عن طبيعة تركيب الأسرة متعددة الزوجات خلافات

ومشاجرات ، وهذا النوع من المشكلات لا يوجد في الأسرة الزوجية ، ونؤكد هنا أن هذا النوع من الأسرة المركبة بأشكاله المختلفة (متعددة الزوجات - متعددة الأزواج - المشترك) يوجد في المجتمعات البدائية ، وهو موضوع للدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية . ونؤكد - أيضاً - أن مجتمعاتنا الحديثة ربما لا يوجد فيها من هذا النوع إلا متعدد الزوجات فقط كما أثبتت الدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية في القرن العشرين ، وبالنسبة لمجتمعنا العربي الإسلامي فهذه المسألة محسومة ؛ لأن القرآن الكريم حدد أبعادها في نظام الزواج وهي وجود نظام الزواج الأحادي ومتعدد الزوجات فقط .

❖ الأسرة الممتدة: وتتميز بالخصائص التالية:

- تتكون من عائلتين زواجيتين أو مركبتين أو أكثر ، ويشترط توافر رابطة القرابة الدموية الأولية بين أعضاء تلك الأسرة ، ويعيش أفرادها في وحدة سكنية واحدة ، ويسود بينهم التعاون الاقتصادي (أب وزوجته ، وأبنائه وعائلاتهم) وأحياناً (كل ما سبق إضافة إلى أخوة الأب) .
- تجمع أجيالاً متعددة وتتسم بصفة الاستمرار .
- تتطور الأسرة الممتدة في بعض الأحيان إلى عشيرة .
- تكون وحدة اقتصادية متعاونة ، ويكون مؤسسها هو رئيس تلك الوحدة الاقتصادية .

العشيرة

تُعد العشيرة وحدة اجتماعية امتداداً للأسرة، وتتميز بتسلسل قرابي معين يتفق مع نظام سكني خاص؛ ولذلك هي وحدة مكانية، ويعتقد أفرادها في وجود (جد) مشترك قام بتأسيسها، وأحياناً يكون شخصية أسطورية. ومن أهم خصائصها (كما تدل الدراسات الأنثروبولوجية) نذكر:

- القرابة الدموية المباشرة.

- أفرادها يعيشون في مكان واحد (القاعدة السكنية).

- وجود التماسك الاجتماعي القوي.

- هي أشكال: الأبوية (عشيرة النسب إلى الأب) والأموية (عشيرة النسب للأم: عشيرة الأم) وعشيرة الخال (أي الأم بالنسبة لأخيها الذكر).

- العشيرة مختلفة الحجم (صغيرة وكبيرة).

- نسب العشيرة إلى جد مشترك سواء أكان ذكراً أم أنثى.

هذا بالنسبة لخصائصها العامة، أما بالنسبة لوظائف العشيرة فهي:

- وظيفة التضامن الاجتماعي، بمعنى وحدة اجتماعية يسودها التماسك والولاء الاجتماعيين، ويترتب على ذلك شعور أفرادها بالأمن والاستقرار.

- وظيفة الأمن الداخلي والخارجي من خلال قيام رئيس العشيرة وأعوانه بالإشراف على تطبيق القانون الذي يتمثل بالأعراف والتقاليد.

- وظيفة تنظيم الزواج لتحقيق البقاء والاستمرار ، ويكون ذلك إما عن طريق الزواج الداخلي (ابن العم) أو الخارجي من عشيرة أخرى .
- وظيفة تنظيم النشاط الاقتصادي من خلال توزيع العمل على أفراد العشيرة وتوزيع الملكية لهم .
- وظيفة تنظيم النشاط الديني من خلال إجراء الطقوس الدينية لتحقيق الجانب الروحي في العشيرة .
- وظيفة النشاط السياسي فيما يتعلق بإعلان الحرب وشؤون الدفاع عن العشيرة أو جملة القرارات التي تتعلق بأمن وسلامة العشيرة تجاه العشائر لأخرى .

القبيلة

- وهي وحدة اجتماعية تجمع عشائر عدة ، وتنتشر في المجتمعات البدائية ، وتتميز بالتالي :
- وحدة المكان واللغة والثقافة .
- وحدة جغرافية (مكانية) واحدة (أي يشغلون قطعة أرض واحدة) .
- تتسم بتنظيم سياسي محدد (رئيس للقبيلة) و(مجلس قبيلة) من أهم وظائفه تنظيم شؤون الدفاع والحرب وتأكيد قوة الشعور الجماعي بوحدة القبيلة .

٣- البناء الاجتماعي - النظم الاجتماعية للمجتمعات شبه البدائية:

تشكل النظم الاجتماعية ضوابط للسلوك الاجتماعي في علاقات الأفراد بين بعضهم البعض لإشباع حاجاتهم، ولعلاقاتهم مع الآخرين؛ لذلك يعدها العلامة الأنثروبولوجي (رادكليف براون) بأنها «أساليب غمطية للسلوك الاجتماعي يتكون منها الجهاز الذي عن طريقه يستطيع البناء الاجتماعي أن يستقر ويستمر». وفيما يلي عرض موجز لأهم النظم الاجتماعية التي تعمل على استقرار الأشكال المورفولوجية التي أشرنا إليها فيما سبق (الأسرة، العشيرة والقبيلة).

٣-١ ❖ النظم القرابية:

وهي انتماء الفرد في علاقاته ومعيشتة مع الآخرين إلى معيار القرابة، وهي إما دموية أو اجتماعية (غير دموية) يقول العلامة الأنثروبولوجي (إيفانز بريتشارد) في وصف قبيلة النوير بالسودان: «إذا أردت أن تعيش بين مجتمع النوير عليك أن تحترم النظم على معاملتهم كأقارب لك وهم يعاملونك كأحد أقاربهم، ويترتب على تلك العلاقات حقوق وواجبات ومميزات. وفي ذلك المجتمع يكون الفرد إما قريباً لجميع أفرادهِ وإما غريباً ويعامل معاملة الأعداء».

وتسود في النظم القرابية قواعد تسلسل قرابي تتحدد بالتالي:

* التسلسل القرابي الأبوي (القرابة للأب).

* التسلسل القرابي الأموي (القرابة للأم).

* التسلسل القرابي الثنائي (الأب أم الأم).

وتتعدد صور القرابة مثل : أقارب الدم (أب، أخ، جد، حفيد)
وأقارب المصاهرة : (زواج الأخت، وزوجة الأخ ..) وهكذا قرابة
أولاد العم وأولاد الخال . إلخ .

نظم الزواج

وهي العناصر والقواعد والقوانين والحقوق والواجبات والعمليات
التي تحقق استقرار ما يسمى بالزواج، وهو مجموعة القواعد التي تحدد
صور العلاقات بين شخصين بالغين مباح بينهما شرعية العلاقة الجنسية،
ويحققان الأسرة التي لا تتكون دونها .

وقد حاول علماء الأنثروبولوجيا حصر نظم الزواج بالتالي :

* عدد المشتركين في علاقة الزواج (فردى، زوج وزوجة) وزواج
متعدد (تعدد زوجات أو تعدد أزواج) وزواج جماعي (كما أشرنا فيما
سبق) .

* نظم السكن بعد الزواج (مع أسرة الزوج، أسرة الزوجة، أسرة خال
الزوج، وعدم التقيد بمكان معين من هذه الأمكنة) .

* نظم اختيار الشريك، حيث لا يترك المجتمع الفرد حراً في اختيار
شريكة حياته وإنما يضع له النظم التي يجب أن يستمر عليها مثل : نظام
المحارم، ونظام الطبقة أو الدين أو المركز الاجتماعي .

* طرق اختيار شريكة الزوج، مثل : الوالدان والأقارب، الخاطبة أو

من يقوم بهذه المهمة ، إضافة إلى وجود علاقات قرابية محددة ؛ حيث ساد في المجتمعات البدائية نظام (السكن مع الخال) بالتالي يحتم المجتمع على الفتى أن يتزوج بنت خاله (إن وجدت) وأخيراً طريقة الشخص الراغب بالزواج حيث يحدد صفات شريكة حياته التي ستختار له .

* طرق الزواج ، وهي الطرق التي يتم بها الزواج مثل :

- تقديم مهر للعروس وأهلها .

- العمل عند أهل العروس وخاصة في حال عدم توافر المهر فيعمل بمقدار قيمة المهر .

- الزواج المتبادل (المبادلة أو المقايضة) زواج أخ العروس من أخت العريس وهكذا .

- طريقة الخطف (خطف العروس) .

- طريقة الميراث (ورثة الرجل زوجة شقيقه بعد وفاته) .

- طريقة التبني (تبني طفل على أن يتزوج من أحد البنات فيما بعد) .

- طريقة الهرب (الهرب مع الفتاة دون التقيد بالعادات والتقاليد) .

* مدى قوة علاقة الزواج هل هي دائمة ويمنع فيها الطلاق أم يباح .

٢ - ٣ النظم الاقتصادية

يقصد بالنظم الاقتصادية الأساليب المستخدمة في إشباع حاجات الإنسان المادية، ورغم تنوع تلك الأساليب فإنها تتفق في الشكل العام الذي يتمثل في نشاط يجمع بين عناصر ثلاثة هي: الموارد، والأدوات، والعمل الإنساني. ولا يخلو المجتمع الإنساني من النظم الاقتصادية مهما كانت درجة تخلفه أو بدائيته، فالإنسان يأكل ليعيش، والإحساس بالجوع يدفع الإنسان للبحث عن الطعام، وبفضل الطعام (مع توافر شروط أخرى) يستمر جسم الإنسان حياً وتتولد لديه الطاقة اللازمة لحركته وأنشطته.

وقد اتسمت المجتمعات البدائية ببساطة نظمها الاقتصادية إذا ما قورنت بالمجتمعات المتقدمة، وفيما يلي عرض لبعض النظم الاقتصادية كما وجدت في المجتمعات البدائية وهي:

* نظام جمع الطعام من خلال البحث عنه في الطبيعة، وكثيرة هي القبائل التي كانت تبحث عن طعامها من خلال جمع الثمار والبذور في الأرض والحشرات والحيوانات من خلال صيدها. . إلخ.

* نظام الصيد من طيور وحيوانات، وكانت وسائل الصيد من الأدوات المصنوعة من الطبيعة ذاتها.

* نظام البستنة من خلال استئناس النبات «زراعة» والحيوان «تربية ورعي» وقد تحول نظام البستنة إلى نظام الزراعة الذي تميز بأدوات تقليدية

وأصبح الآن بأحسن الأدوات التكنولوجية .

* نظام الرعي كأسلوب للتكيف مع البيئة عندما تحسنت حياة الإنسان واستخدم ذكاءه . ولعل النمط البدوي في المجتمعات الراهنة يمتد في جذوره إلى هذا النظام .

٢ - ٢ النظم العقائدية والطقوسية

يقصد بالنظم العقائدية «النظم الدينية» حيث يوجد الدين في كل مجتمع إنساني ، ويقوم الدين بوظائف اجتماعية رئيسة تهدف إلى حفظ تماسك أفراد المجتمع وترابطه ، هذا إضافة إلى الوظائف النفسية مثل : الشعور بالراحة النفسية والقوة للاعتقاد في أن قوة غيبية عظيمة تساعد الإنسان في حياته وبعد مماته ؛ ولذلك لا يعيش مجتمع إنساني دون دين ، وقد تعددت صور أشكال ممارسة الطقوس الدينية في المجتمعات البدائية مثل : صورة نظام عبادة عناصر الطبيعة والإنسان «عبادة الأجداد» والحيوان . . . إلخ . وجميع هذه الصور تؤكد وظيفة الدين العامة بأنها تأكيد التماسك والوحدة والتعاون بين أفراد القبيلة الواحدة ، الأمر الذي يترتب عليه استمرار البناء الاجتماعي .

٣ - ٤ النظم السياسية

ويقصد بها الشكل التنظيمي لعلاقة الفرد بالحاكم «الزعيم» وهو الشكل السياسي في البناء الاجتماعي . وقد شهدت المجتمعات البدائية أشكالاً عدة للنظم السياسية مثل : نظام زعامة رئيس القبيلة أو العشيرة أو رب الأسرة الممتدة ، وسلطة هذا الزعيم على الأفراد حيث يجسد حقيقة علاقة الحاكم بالمحكوم .

٤- أنماط السلوك الاجتماعي «المركز والدور الاجتماعي»:

يعبر «المركز» عن الوضع الاجتماعي لفرد بالنسبة لغيره من أفراد المجتمع «مكانة الفرد في المجتمع» .

ويعبر «الدور» عن سلوك أو مجموعة من أنماط السلوك المتعارف عليها والمصاحبة لمركز محدود ، وبما أن الفرد يحتل عدة مراكز في مجتمعه فإنه يقوم بعدة أدوار ولكن على التوالي ، بمعنى أنه في حالة القيام بالدور المصاحب كمركز الأب تكون الأدوار الأخرى المصاحبة لمراكز الزوج والمدرس والشاب .

وهناك نوع من المراكز يرثها الفرد من والديه أو التي تولد معه أو تفرضها عليه النظم الاجتماعية .

ونوع آخر يصل إليها الفرد بمجهوداته وعن طريق اكتساب الأدوار الخاصة في المجتمع .

وتتعدد أشكال تطبيقات المراكز في المجتمعات البدائية نذكر منها :

* مراكز أساسها النوع مركز للرجل وآخر للمرأة على أساس التقسيم النوعي «ذكور وإناث».

* مراكز أساسها العمر «مركز الطفل ، البالغ - الشيخ».

* مراكز أساسها الثروة «يرتبط بالنظم الاقتصادية المشار إليها فيما سبق». إضافة إلى الثروة العامة للفرد في المجتمع ، حيث يتحدد مركز الفرد الاجتماعي حسب ثروته أو ما يملك .

* مراكز أساسها المهارات «حسب إتقان المهارات المعترف بها اجتماعياً ، أي المهارات التي يعترف بقيمتها في المجتمع» . ففي المجتمعات ذات النزعة الحربية تعطى مراكز سياسية للمحاربين وهكذا .

* مراكز أساسها الانتماء لجمعيات معينة «دينية ، سياسية ، واجتماعية» ، حيث تحدد مكانة ومركز الفرد في المجتمع استناداً إلى انتمائه لهذه الجمعيات .

وختاماً إذا كان البناء الاجتماعي في المجتمعات البدائية هو الموضوع الرئيس للأنثروبولوجيا الاجتماعية فإن البناء الاجتماعي في المجتمعات المتقدمة هو أيضاً موضوع من موضوعات الأنثروبولوجيا الاجتماعية المعاصرة ، وهذا يتجسد من خلال أهدافها المرتبطة بتحديد نماذج وأنماط عالمية للأبنية الاجتماعية ، وتحديد مظاهر التداخل والترابط بين النظم الاجتماعية ، وتحديد عمليات التغير الاجتماعي ، وكل ذلك لجانب الكشف عن القوانين الاجتماعية .

الفصل الرابع

المنهج وطرائق البحث



obeikandi.com

المبحث الأول

المنهج المستخدم في الأنثروبولوجيا

إن التقارب الشديد بين موضوعات العلوم الاجتماعية يصاحبه تشابه في المنهج، فإذا قلنا: إن موضوع الأنثروبولوجيا الاجتماعية هو البناء الاجتماعي، نلاحظ أن موضوع علم الاجتماع هو المجتمع والسلوك الاجتماعي وموضوع علم الاقتصاد هو الطرق التي يستخدمها الإنسان ليكسب عيشه، أما علم السياسية، فيتخذ من «ظاهرة السلطة» موضوعاً لدراسته، ولا شك أن التداخل بين تلك الموضوعات واضح جداً، ويتضح بصورة قوية عند القيام بالدراسات الميدانية أي أثناء ملاحظة الواقع الاجتماعي، ويمكن القول إن التمييز بين تلك العلوم يقوم على أساس الاهتمام بموضوعات خاصة تدخل في نطاق الموضوع العام للعلوم الاجتماعية ألا وهو الحياة الاجتماعية.

ولا يقتصر التقارب بين العلوم الاجتماعية على تداخل موضوعاتها وإنما أيضاً تشابه وتداخل مناهجها وطرق البحث فيها إذ تشترك كل العلوم الاجتماعية في تطبيق المنهج العلمي الذي يتلخص في:

* دراسة الظاهرة الاجتماعية دراسة موضوعية بحيث تعبر عن حقيقة ما هو كائن بدون تدخل الميول والمصالح الشخصية.

* دراسة الظاهرة الاجتماعية دراسة دقيقة، وكلما استطعنا ترجمة تلك الدقة إلى رموز كمية سواء أكانت رموز الحساب أم الجبر والهندسة حققنا الدقة المطلوبة في المنهج العلمي.

* دراسة الظاهرة الاجتماعية الموصول في النهاية إلى القانون الذي تخضع له الظاهرة . ويقصد بالقانون هنا : العلاقات الضرورية التي تربط بين طبائع الأشياء ، وترتب على ذلك إمكانية التنبؤ العلمي عن طريق تحديد شروط حدوث الظاهرة في المستقبل .

ولكن رغم هذا التشابه في مناهج العلوم الاجتماعية يستخدم كل منها طرق بحث تتفق مع طبيعة الظواهر الاجتماعية التي يتخصص في دراستها ، وهكذا نلاحظ أنه بينما تتفق العلوم الاجتماعية في الموضوع وهو الحياة الاجتماعية فإنها أيضاً تتفق في المنهج المستخدم في دراسة ذلك الموضوع أي المنهج العلمي . . ولكن هذا الاتفاق يتحول إلى اختلافات عند الانتقال من المفهوم العام للموضوع المفهوم العام للمنهج إلى المفاهيم التخصصية أو الفرعية ، فنجد أن العلوم الاجتماعية تختلف في الموضوعات الفرعية التي يتخصص فيها كل علم اجتماعي ، وكذلك تختلف في طرق البحث التي يستخدمها كل علم ، ولكن يجب ملاحظة أن هذا الاختلاف ليس معناه الفصل أو العزل بين الموضوعات التخصصية وطرق البحث الخاصة بكل علم اجتماعي ، وإنما هو اختلاف يسمح بالتعاون والتكرار والتداخل .

تعرض العلوم الاجتماعية لبعض المشاكل فيما يختص بتطبيق المنهج العلمي ، وترتب على تلك المشاكل قلة عدد القوانين الاجتماعية التي توصلت إليها بالنسبة للعدد الهائل من القوانين التي وصلت إليها العلوم الطبيعية ، وترتب عليها كذلك عدم وصول دقة القوانين الاجتماعية إلى دقة قوانين العلوم الطبيعية . وحاول المفكرون تفسير هذا القصور من جانب

العلوم الاجتماعية، فأرجعه بعضهم إلى حداثة العلوم الاجتماعية إذا قورنت بعمر الطبيعة. وأعتقد أن هذا التفسير يحدد أحد جوانب المشكلة ولا يحدد أسباب تأخير مولد العلوم الاجتماعية عن العلوم الطبيعية وأسباب طول الفترة التي تحتازها العلوم الاجتماعية للوصول إلى مرحلة النضج واستكمال مقدماتها العلمية، بينما لم تحتج العلوم الطبيعية (مثل الكيمياء أو الطبيعة أو علم الحياة أو علم وظائف الأعضاء) لمثل تلك الفترة الطويلة.

ويفسر بعضهم هذا القصور على أساس أن الظاهرة الاجتماعية أكثر تعقيداً من الظاهرة الطبيعية. وأعتقد أن هذا التفسير قد تعارضه بعض الاعتبارات إذ يرجع التعقيد في معظم الأمور إلى عدم فهم بعض الظواهر، وفيما يتعلق بالعلوم الطبيعية؛ نجد الكثير من الظواهر غير معروفة إلى اليوم، فعالم الفلك لا يزال يحاول أن يكتشف المجهول في نظام الأفلاك والفضاء اللانهائي، وكذلك الحال بالنسبة لباقي العلوم الطبيعية، والدليل على ذلك اكتشاف قوانين جديدة كل عام، وعالم المجهول أمام العلوم عامة هو عالم لا نهائي (أي دائماً سيجد العالم موضوعات معقدة تحتاج إلى الفهم والكشف عن قوانينها) بل إنني أعتقد أن الظاهرة الاجتماعية عامة هي أقرب للإنسان من الظواهر الطبيعية؛ لأنه يعيش من خلالها ويعرفها عن طريق الخبرة الذاتية.

وإذا حاولت الإجابة عن السؤال السابق، وهو: ما سبب قصور العلوم الاجتماعية عن العلوم الطبيعية؟ أجد نفسي متجهاً إلى الباحث الاجتماعي

ذاته وإلى الظاهرة الاجتماعية أو عمر العلوم الاجتماعية، فلا شك أن الظاهرة الاجتماعية هي جزء من الطبيعة؛ ولذلك يمكن دراستها بالمنهج العلمي ولا يمكن تصور أن الحياة الاجتماعية لا تسير وفق قوانين؛ لأن الطبيعة ككل تسير حسب قوانين يترتب عليها ذلك النظام الملحوظ في الجوانب كلها حتى في الجانب المتعلق بالحياة الاجتماعية، إن المشكلة تتمثل في أن العالم الاجتماعي يجد نفسه مدفوعاً لا شعورياً أو شعورياً إلى التحيز لسلالة معينة أو للنظام الاجتماعي الذي يطبقه أو للقيم التي يعتنقها، هذا بالإضافة إلى الإمكانيات الضخمة المكرسة لخدمة العلوم الطبيعية، أما العلوم الاجتماعية فإن إمكانياتها محدودة حتى في الدول المتقدمة، وفي الدول النامية تفرض معركة التنمية الاقتصادية تركيز الاهتمام على العلوم الطبيعية فقط، أما الدول المتخلفة فلا تشعر بأهمية العلوم الاجتماعية، ولا يمنع هذا أن بعض العلوم الاجتماعية تتخصص في الدول المتخلفة، ولكن المتخصصين في تلك العلوم ينتمون (في الغالب) إلى دول متقدمة وأحياناً إلى دول نامية.

ولا أدل على إمكانية تطبيق المنهج العلمي على الظواهر الاجتماعية إلا نجاح بعض العلوم الاجتماعية في الوصول إلى قوانين اجتماعية قريبة جداً في دقتها من القوانين الطبيعية.

إذاً المنهج هو المسلك (الطريق) الذي يسير فيه الباحث للوصول إلى المعرفة بواسطة مجموعة من القواعد والعمليات العلمية المنطقية التي يتبعها العقل والحس لأجل الوصول إلى نتيجة محددة، وعندما يعتمد الباحث

كل ما سبق نقول إنه استخدم المنهج العلمي ، ورأينا من أجل أن تتحقق هذه العملية لابد من استخدام الموضوعية والدقة العلمية لنصل إلى القانون القابل إلى للتعميم .

وبناء على ذلك فمنهج العلوم واحد وهو المنهج العلمي ، غير أن هناك أدوات منهجية يستعملها الباحث في المنهج العلمي هي ما نسميه طرائق البحث المنهجية مثل : الطريقة التاريخية ، والتجريبية ، والمقارنة ، وتحليل المضمون ، ... إلخ .

وهناك أدوات قياسية تستخدم أيضاً مثل : الاستمارة ، والملاحظة ومجموعات النقاش البؤرية وغير ذلك . وكل ذلك لتحقيق ما يسمى بالمنهج العلمي ؛ لأنه يستخدم جملة القواعد والعمليات المنطقية للوصول إلى نتائج قابلة للتعميم ، ولأجل تحقيق ما يسمى بالدراسة العلمية للمجتمع .

obeikandi.com

المبحث الثاني

طرق البحث (الأدوات المنهجية)

يمثل تاريخ الأنثروبولوجيا (في بعض جوانبه) المحاولات المستمرة لإحلال المعرفة اليقينية عن الشعوب البدائية مكان الأفكار التي تعتمد على التخمينات، وأقوال الرحالة والمستكشفين وجنود الاستعمار. وقد وصفت هذه الكتابات الإنسان البدائي على أنه حيوان فظٌ متوحش يختلف عن إنسان أوروبا والدول المتمدنة، ثم ظهرت كتابات تالية تمثله إنساناً رقيقاً مهذباً يعيش على الطبيعة في رخاء وسلام ودعة. يظهر هذا التناقض بوضوح في تاريخ الأنثروبولوجيا الاجتماعية. فقد صور مفكرو القرنين السابع عشر والثامن عشر الحياة البدائية على أنها حياة منعزلة فقيرة وحشية قاسية، ويقوم هذا الفهم على أساس التخمينات أو المبالغة وليس على أساس المنهج العلمي. وعندما زادت معلوماتنا عن الشعوب البدائية في الفترة ما بين منتصف القرن الثامن عشر ومنتصف القرن التاسع عشر تبين للمفكرين خطأ الصورة السابقة شعروا بالجرم الذي اقترفوه بحق الإنسان البدائي، وكنوع من التعويض اتخذوا موقفاً مناقضاً للسابق، فوصفوا الإنسان البدائي بالطيبة والرقّة والخير، وبأنه يحتاج إلى مساعدة الإنسان المتمدن، ولا شك أن هذا الرأي كذلك لم يرقم على أساس المنهج العلمي وإنما على تصورات ومبالغات غير واقعية. واستمر الحال هذا إلى أن اكتشف العلماء في نهاية القرن التاسع عشر إمكانية تطبيق المنهج العلمي في الأبحاث الأنثروبولوجية عن طريق الدراسة الميدانية. وتتمثل في ملاحظة

الواقع الاجتماعي مباشرة، أي يقوم العالم نفسه بجمع المعلومات بطرق معينة ثم يقوم بتحليلها، وبالتالي يستطيع أن يتأكد من استخدام المنهج العلمي في جمع المعلومات، ويختلف هذا الأسلوب عن الأسلوب الذي استخدم قبل ذلك والذي يتمثل في اعتماد الأنثروبولوجي الاجتماعي على أشخاص غير متخصصين (الرحالة والمستكشفين ورجال الإدارة وجنود الاستعمار) في جمع المعلومات، ثم يقوم هو بتحليلها على أساس التسليم بأن المعلومات التي أمامه صحيحة ويمكن الاعتماد عليها، ولا شك أن تلك المسلمة كانت خاطئة وترتب على ذلك خطأ التحليلات والقوانين التي توصل إليها مفكرو الأنثروبولوجيا الاجتماعية في تلك الفترة. ولقد أشرنا سابقاً إلى أن أول دراسة ميدانية في هذا العلم هي دراسة بعثة جامعة كمبرج لمنطقة مضائق توريس في المحيط الهادي في عامي ١٨٩٨ و ١٨٩٩م، ورأس العلامة الإنجليزي «هادون» تلك البعثة. وأخذت تتوالى الدراسات الميدانية بعد ذلك، ولا شك أن تلك الدراسات تدعي جميعها تطبيق المنهج العلمي بجميع عناصره. ويعتمد الأنثروبولوجيون في تطبيق المنهج العلمي (أثناء دراساتهم الميدانية) على طرق بحث معينة أهمها ما يأتي:

أ- الملاحظة بالمشاركة؛

يطلق بعض العلماء على الملاحظة بالمشاركة اصطلاح «التدخل الوظيفي» يقابل الباحث في بداية دراسته الميدانية مشكلة «الدور» الذي يجب أن يؤديه لكي يحصل على معلومات موضوعية، وترجع أهمية تلك المشكلة إلى الحقيقة القائلة: إن وجود الباحث في عشيرة أو قبيلة ما تدفع

الأفراد موضع الملاحظة إلى تغيير سلوكهم العادي أو إلى الإدلاء بأقوال لا تعبر عن الواقع ؛ وذلك لشعورهم بأنهم خاضعون لملاحظة غيرهم ، ولذلك لابد للباحث أن يقوم بدور ما في المجتمع . بحيث يترتب عليه أن يقبله أفراد المجتمع وكأنه أحدهم ، وبالتالي يكتسب ثقتهم ويبدد الشكوك حول مهمته ، ويضعف شعور العداء الذي يواجهه الغريب عندما يدخل مجتمعاً ما لأول مرة ، وهكذا يذهب الأنثروبولوجي الاجتماعي إلى المجتمع الذي يدرسه ؛ ليعيش فيه فترة من الزمن لاكتساب ثقة الأفراد وجمع المعلومات اللازمة ، ولا يبدأ الباحث الزيارة بالدراسة وتوجيه الأسئلة وإنما يتعلم أسلوب الحياة الجديدة ، فعليه أن يتكلم لغتهم ويستخدم في تفكيره التصورات نفسها أو المفاهيم السائدة ويشعر بالقيم التي يعتنقونها ويعمل معهم ويشاركهم طعامهم واحتفالاتهم وارتداء ملابسهم ، وفي بعض الأحيان يدخل كأنه عضو في جماعاتهم إذ سمحت النظم الاجتماعية بذلك . وعليه طوال تلك الفترة أن يكتب تقارير يومية عن كل صغيرة وكبيرة تقابله ، ولا داعي لتكرار أهمية الموضوعية في كتابة التقرير ؛ وذلك لأنه من المفروض أن طريقة الملاحظة بالاشتراك تدخل في نطاق المنهج العلمي الذي عرضت عناصره من قبل وأهمها : عنصر الموضوعية .

وعندما تتضح له فكرة عامة عن أسلوب المعيشة في المجتمع يبدأ في التحليل والكشف عن عناصر البناء الاجتماعي أو الترتيب البنائي للمجتمع حتى تصبح دراسته مفهومة وواضحة ليس فقط على مستوى

أفراد المجتمع ذاته أو الباحث نفسه وإنما أيضاً على مستوى التحليل الاجتماعي. فكما أن العالم اللغوي لا يقنع بمجرد فهم إحدى اللغات الوطنية وإجادة التحدث بها وترجمتها وإنما يحاول تحديد نظم الأصوات والقواعد المطبقة في تلك اللغة، كذلك فإن الأنثروبولوجي الاجتماعي لا يقنع بملاحظة الحياة الاجتماعية في مجتمع ما ووصفها وإنما يحاول الكشف عن الترتيب البنائي الذي يكمن تحتها، أي أن يكشف عن النماذج والأنماط التي تمكنه من ملاحظة البناء الاجتماعي ككل مترابط الأجزاء، وقد يتجه إلى التركيز في الدراسة على نظام اجتماعي، مثل: نظام الزواج أو النظام الاقتصادي أو النظام القرابي أو الأخلاقي أو المعتقدات أو الطقوس، وقد يركز انتباهه على مجموعة محددة من المراكز والأدوار الاجتماعية، وفي أحيان أخرى يركز الباحث ملاحظاته على شكل مورفولوجي معين، مثل: المعشر أو العشيرة أو القبيلة، وهكذا سواء كان موضوع التركيز ضيقاً أو واسعاً فإن على الأنثروبولوجي الاجتماعي أن يستخدم الملاحظة بالمشاركة في جميع المعلومات عن جوانب البناء الاجتماعي بحيث يمكن ملاحظته ككل، ويعرف ذلك الأسلوب بالطريقة الكلية وهي إحدى الخصائص الرئيسة في منهج الأنثروبولوجيا الاجتماعية. ويحدد العلامة «إيفانز بريتشارد» شروط نجاح الملاحظة بالمشاركة في الأنثروبولوجيا الاجتماعية فيما يأتي:

١- أن تسبقها مرحلة تخصص ودراسة نظرية كافية في الأنثروبولوجيا عامة والعلوم الاجتماعية وبخاصة علم الاجتماع، ويفهم من ذلك ضرورة

الحصول على الدرجة الجامعية الأولى على الأقل في أحد فروع العلوم الاجتماعية قبل القيام بالدراسة الميدانية وتطبيق الملاحظة بالمشاركة .

٢- على الباحث أن يقضي فترة كافية في مشاركة أفراد المجتمع موضوع الدراسة في معيشتهم، ويجب ألا تقل تلك الفترة عن عام، ويرى بعض العلماء أن ستة أشهر قد تكون كافية، ولا شك أن تحديد الفترة الكافية يرتبط بعوامل متعددة، مثل : حجم المجتمع وطبيعة المشكلة المراد دراستها دراسة مركزة .

٣- أن يكون الباحث طوال فترة الملاحظة على صلة وثيقة بالأهالي، ويتم ذلك عن طريق اشتراكه في معظم جوانب حياتهم الاجتماعية .

٤- على الباحث أن يستخدم في حديثه مع أفراد المجتمع موضوع الدراسة لغتهم الوطنية، ولا يستخدم المترجم، إذ كثيراً ما يفشل المترجم في نقل الأفكار والمعاني بدقة كاملة .

٥- وعليه أيضاً أن يدرس جوانب الحياة الاجتماعية كلها وإن كان سيدرس جانباً معيناً بالتفصيل . وفي الغالب لا ينشر الباحث سوى جزء يسير من دراسته، ولكن الدراسة الكلية للمجتمع ضرورية حتى يستطيع فهم البناء الاجتماعي وتحديد وظائفه .

٦- لابد من توفر نوع معين من الشخصية والمزاج، فبعض الناس لا يستطيعون تحمل مشاق العزلة عن وطنهم الأصلي، فغالباً تكون الحياة في المجتمع موضوع الدراسة قاسية، وخاصة أن الظروف غير الصحية تنتشر

في المجتمعات البدائية، هذا بالإضافة إلى تعرض الباحث لتغيير عادات الطعام والسكن والملبس والمشرّب؛ ولذلك لا يستطيع الكثيرون تكييف أنفسهم عقلياً، ونفسياً، وجسدياً مع تلك الظروف الجديدة.

٧- على الباحث أن يتخلّى عن قيمه وثقافته بقدر المستطاع حتى يتمكن من تحقيق الملاحظة الموضوعية، ولا شك أن الأفراد الذين يتقنون الملاحظة يستطيعون الوصف الدقيق للمجتمع، ولكن عندما ينتقلون إلى مرحلة الفهم والإدراك العميق فإنهم يحتاجون إلى الكثير من الذكاء. ويجب عدم إغفال أهمية مزاج الباحث وطباعه، فقد يحدث أن يخفق أحد الباحثين في دراسة مجتمع معين، ولكنه ينجح في مجتمع آخر.

٨- يحتاج الباحث لمهارة أدبية في نقل البناء الاجتماعي إلى لغة الباحث نفسه ووصفه وتحليله؛ إذ عليه أن يبين ويشرح معنى الظواهر الاجتماعية التي لاحظها وأن يبرز هذا المعنى بوضوح في صور تجاربه الأخرى، ويقتضي ذلك المجهود مهارة في إدراك الصيغ والنماذج اللغوية وتمييزها، لا يفهم من ذلك أن على الأنثروبولوجي الاجتماعي أن يكون أديباً حتى ينجح في عمله وإنما يكون قادراً على التعبير والكتابة بلغة واضحة سليمة.

وفيما يتعلق بتدوين التقارير اليومية نلاحظ أن أفضل الظروف لتسجيل المعلومات هي في مكان الحادثة وأثناء حدوثها؛ إذ يتردد على ذلك إبعاد عامل «التحيز في الاختبار» أي التحيز في تسجيل معلومات معينة وإهمال معلومات أخرى، وكذلك إبعاد عامل ضعف الذاكرة الإنسانية، ولكن في

كثير من المواقف تكون عملية تدوين المعلومات أثناء ملاحظة ظاهرة ما أمراً غير ممكن أو قد تؤدي إلى إثارة شكوك الأفراد الخاضعين للملاحظة وقد يؤدي أيضاً إلى تشوّه الصورة الطبيعية للظاهرة، هذا بالإضافة إلى أن القيام بالملاحظة؛ وتدوين المعلومات في الوقت نفسه يؤدي في الغالب إلى عدم دقة الملاحظة إذ تنقطع الملاحظة أثناء التدوين ولذلك فقد اتفق على ضرورة تدوين كل المعلومات في أقرب فرصة متاحة بعد الملاحظة مباشرة، ويجب أن يكون التسجيل بصورة يومية على الأقل وأن يشمل تقريراً مطولاً عن حوادث اليوم، وعلى الباحث أيضاً أن يحاول تسجيل «النقاط الهامة» أثناء الظواهر، وخاصة أن هذا التسجيل الخاطف لن يستغرق أكثر من دقيقة، ويستخدم الباحث قطعة ورق صغيرة، أو مطروفاً، أو قطعة خشب، أو ما إلى ذلك. ويستطيع الباحث أن يعتذر بعد الظاهرة الاجتماعية مباشرة ويعود سريعاً لمسكنه لتسجيل المعلومات. وقد لا يتضح للقارئ الأهمية الكبرى للإسراع في تدوين المعلومات؛ لأنه لا يشعر بتلك الحاجة الملحة أثناء حياته اليومية، ولكنه عندما يعيش في مجتمع غريب عنه ذي عادات مختلفة تماماً عن عاداته فإنه سيشعر ولا شك بأهمية التدوين المباشر. ويجب على الباحث أن يصنف مذكراته حسب فهرس يتكون من الموضوعات الأساسية التي يدرسها وهكذا يسجل المعلومات الخاصة بالموضوع الواحد في مكان واحد، وتظهر أهمية الفهرس إذا عرفنا أن كمية تلك المذكرات تكون في الغالب كبيرة إذ تصل إلى آلاف الصفحات في نهاية الدراسة. وأخيراً أكرر أن طريقة الملاحظة بالمشاركة هي أساس الدراسات الميدانية في الأنثروبولوجيا وميادينها.

ب- طريقة المقابلة غير الموجهة:

يستخدم الأنثروبولوجي أثناء الدراسة الميدانية بالإضافة إلى طريقة الملاحظة بالمشاركة طريقة «المقابلة غير الموجهة» وتتمثل في مقابلة بعض أفراد المجتمع الذين يتمتعون بسمعة طيبة في المجتمع موضوع الدراسة، ويحاول في المقابلات الأولية اكتساب ثقتهم؛ بحيث يفتحون له قلوبهم ولا يحاولون تزييف الحقائق، وفي المقابلات التالية يبدأ الباحث في توجيه الأسئلة لهؤلاء الأخباريين، ويتيح لهم فرصة الإجابة المطولة دون توجيه الإجابة وجهة معينة، وعندما ينتقلون في الحديث من موضع لآخر لا يحاول قطع الحديث، وإنما على العكس يشجعهم بكلمة أو أخرى تزيد من حماسهم في الاسترسال في الحديث حول الموضوع الذي يهم الباحث، ويمكن للباحث تدوين تلك المعلومات أو تسجيلها بالآلات الحديثة إذا كان قد اكتسب ثقتهم، وفي حالة عدم اكتساب تلك الثقة يمكن تدوين النقاط الأساسية بطريقة لا تثير الشك، وفي بعض الأحيان لا يكتب الباحث أية معلومات أثناء المقابلة غير الموجهة، وإنما يدون كل ما سمعه بعد المقابلة مباشرة حتى لا ينسى بعض عناصرها، وتتلخص أهمية هذه الطريقة في أنها تتيح فرصة إظهار سمات شخصية الأفراد وإعطاء معلومات تفصيلية عن الموضوعات التي تدور حولها الأسئلة. ولا توجد تلك المميزات في طريقة المقابلة الموجهة.

ج- طريقة «سير الحياة»:

يستخدم كثير من الأنثروبولوجيين تلك الطريقة أثناء الدراسة الميدانية، وتتلخص في تدوين أهم الأحداث التي تمر في حياة بعض أفراد المجتمع (موضوع الدراسة)، وعلى «الأخباري» أن يقص على الباحث تاريخ حياته منذ الصغر إلى اللحظة التي يتحدث فيها، ولا شك أن تبادل الثقة بين الباحث و«الأخباري» يساعد على إضفاء صفة الموضوعية على المعلومات بطريقة مقصودة. وتوجد بعض العقبات أمام استخدام تلك الطريقة، منها: صعوبة تذكر الحوادث القديمة وإمكانية الإدلاء بمعلومات كاذبة؛ ولذلك يجب التأكد من صحة المعلومات المستفادة عن طريق الاعتماد على أكثر من «إخباري» والمقارنة بين أحاديثهم والأخذ بالمعلومات المشتركة بينهم.

د- طريقة «المقابلة الموجهة»:

وتتمثل تلك الطريقة في استخدام استمارة تتكون من مجموعة من الأسئلة التي وضعت بدقة حول موضوع معين، وفي معظم الأحيان تشمل الاستمارة كذلك على الإجابات المحتملة، بحيث يمكن ملؤها بسرعة وتفرغها في جداول. وعلى الباحث أن يقرأ كل سؤال أمام الشخص المراد دراسته، ثم يسجل إجابته في الاستمارة ويتم ذلك في الغالب بوضع علامة أمام إحدى الإجابات المكتوبة، ويلاحظ أن قراءة الأسئلة يجب أن تتم بصورة محايدة بحيث لا تؤثر على إجابات المستمع. وتستخدم تلك

الطريقة في أبحاث علم الاجتماع، ولكنها غير منتشرة في الدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية، ويرجع السبب في ذلك إلى أن استخدام طريقة المقابلة الموجهة لا تنجح إلا في المجتمعات المتمدنة، أما في المجتمعات البدائية فإنها تثير شكوك الفرد؛ لعدم تعوده على تلك الطريقة الرسمية في الحديث وخاصة أنه - في الغالب - لا يعرف القراءة والكتابة، ولم يحدث أن قابله أحد وأخذ يسجل أقواله؛ ولذلك لا يستخدمها الأنثروبولوجيون الاجتماعيون إلا في المجتمعات المتمدنة وبجانب طريقة الملاحظة بالمشاركة وطريقة المقابلة غير الموجهة.

هـ- طريقة الاختبارات النفسية:

قد يستخدم بعض الأنثروبولوجيين أثناء دراساتهم الميدانية بعض الاختبارات النفسية لتحديد خصائص شخصية أفراد المجتمع موضوع الدراسة، ومن أمثلة تلك الاختبارات «اختبار روشاخ» ويتكون ذلك الاختبار من عشر لوحات، رسم على كل لوحة صورة مكبرة لنقطة حبر قذف بها على ورقة فاتخذت شكلاً غير منتظم، ويطلب من الشخص أن يصف ما يمكن أن يتصوره من أشكال عندما ينظر لكل لوحة، وعلى أساس ما يقرره الشخص يمكن التوصل إلى تحديد بعض خصائص شخصيته. ويجب ملاحظة أن قليلاً من الأنثروبولوجيين الاجتماعيين يستخدمون الاختبارات النفسية، ولكن يستخدمها بكثرة الأنثروبولوجيون الثقافيون الذين يتخصصون في تحديد العلاقة بين الشخصية والحضارة في مجتمع ما.

و- طريقة المقارنة:

لا يقنع الأنثروبولوجي الاجتماعي بوصف الحياة الاجتماعية في المجتمع موضوع الدراسة، وإنما يعمل على تحليل المعلومات الوصفية- ليس فقط لتحديد أنماط العلاقات الاجتماعية - وإنما لفهم البناء الاجتماعي كـله، ويتم ذلك عن طريق الكشف عن الوظائف الاجتماعية التي تؤديها النظم الاجتماعية، وكذلك الكشف عن التأثيرات المتبادلة بين النظم الاجتماعية، ولا بد للوصول إلى تلك الصورة الكلية سواء أكانت الدراسة ترمي لتحليل نظام اجتماعي واحد أم أكثر. وعلى الأنثروبولوجي الاجتماعي بعد الكشف عن طبيعة البناء الاجتماعي والأنماط الاجتماعية الأساسية أن يقارن تلك الظواهر الاجتماعية بمثيلاتها في المجتمعات الأخرى، ولا شك أن كل دراسة جديدة لمجتمع ما تساعد على توسيع مجال المقارنة. ويجب عند المقارنة استخدام الدراسات الميدانية التي يمكن الاعتماد عليها والثقة في موضوعيتها، ونقصد بذلك الدراسات الميدانية التي يقوم بها المتخصصون في الأنثروبولوجيا بفروعها المختلفة، أما الدراسات الوصفية التي يقوم بها الرحالة ورجال الصحافة وغير المتخصصين فهي لا تصلح للمقارنة.

لقد أشرت - سابقاً - إلى اتجاه بعض الأنثروبولوجيين الاجتماعيين إلى تركيز دراساتهم الميدانية في مجتمع واحد، أو عدد قليل من المجتمعات، ويعرف هذا الاتجاه «بتقليد مالينوفسكي» ويتلخص في التخصص في مجتمع واحد، أو ثلاث على الأكثر بحيث يقضي العالم حياته كلها في الكتابة عنهم وتحليل البناء الاجتماعي لكل منهم للوصول إلى فهم عميق

للأنماط الاجتماعية التي يتكون منها البناء الاجتماعي . ويؤمن العلامة مالىنوفسكي بأنه لا يمكن فهم الحياة الاجتماعية لدى شعب من الشعوب البدائية إلا إذا درست دراسة عميقة مركزة، وقد نادى بضرورة القيام بدراسة ميدانية مركزة واحدة على الأقل قبل التخصص في الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ومعظم الجامعات في العالم قد استجابت النداء وجعلت الدراسة الميدانية شرطاً ضرورياً للحصول على الدرجات الجامعية العالية في الأنثروبولوجيا الاجتماعية . ولا شك أن أوضح مثال هو دراسات العلامة «مالينوفسكي» ذاته، فقد استغرقت دراسته الميدانية لقبائل «التروبرياندر» بمنطقة ميلانيزيا مدة أربع سنوات، وكان أول من استخدم لغة الأهالي في جمع المعلومات، وقد أتاحت له هذه المدة الطويلة فرصة التعمق والتغلغل في الحياة الاجتماعية عند تلك القبائل، ووضع عنها عدة مؤلفات تدور كلها حول حياتهم الاجتماعية . ولا شك أن «تقليد مالىنوفسكي» يتعارض - بعض الشيء - مع اتجاه إجراء المقارنات بين الأبنية الاجتماعية للمجتمعات المختلفة؛ لأنه يركز اهتمام العالم بمجتمع معين بحيث يستنفد هذا التركيز كل مجهودات العالم، هذا بالإضافة إلى أنه يؤدي إلى قلة عدد الدراسات مما يعرقل المقارنات، وقد لاحظ العلامة «بريتشارد» تلك المشكلة ونادى بتطبيق نوع من المقارنة أطلق عليه اصطلاح «المنهج التجريبي»، ويتلخص في : أن يقوم كل أنثروبولوجي اجتماعي باستنتاج عدة نتائج من دراسته العميقة لمجتمع واحد، ثم يقوم الباحث نفسه أو باحث آخر بالتحقق من صحة وواقعية تلك النتائج ومطابقتها

بالنسبة لمجتمعات أخرى ، وهكذا تتسع دائرة فحص تلك النتائج تدريجياً ، وهي في الحقيقة لا تخرج عن كونها فروضاً ، وتصبح تلك الفروض في النهاية قوانين أو مبادئ عامة . ومن العلماء الذين طبقوا هذه الطريقة العلامة «شنيذر» عندما فحص النتائج التي توصل إليها العلامة «بريتشارد» في دراسته لقبائل «النوير» عن طريق تطبيقها على قبائل «الزولوا» وهناك مثل آخر يتمثل في دراسة العلامة «نادل» الذي فحص ظاهرة السحر في أربعة مجتمعات أفريقية . ويرى العلامة «شابيرا» أنه يمكن المقارنة بين المجتمعات المتقاربة مكانياً ثم تتسع المقارنة تدريجياً .

ويجب ملاحظة الفرق الكبير بين طريقة المقارنة المبينة فيما سبق وطريقة المقارنة التي استخدمها علماء القرن التاسع عشر ، إن طريقة المقارنة المقصودة هنا تعتمد على دراسات ميدانية موضوعية قام بها متخصصون ، وبالتالي تؤدي إلى مبادئ عامة وقوانين اجتماعية ، أما المقارنة التي طبقها علماء القرن التاسع عشر فكانت تعتمد على أقوال الرحالة وغير المتخصصين ، ويتسم بالموضوعية ؛ ولذلك لم يترتب عليها سوى التأملات والتخمينات التي ثبت عدم واقعيتها .

obeikandi.com

المبحث الثالث

الدراسة الميدانية في الأنثروبولوجيا وميادينها

«الخطوات العلمية المستخدمة في البحث الأنثروبولوجي»

تُعد الدراسات الحقلية مصدراً هاماً في البحث الأنثروبولوجي، وهناك جملة من الخطوات العلمية المتبعة في هذه الدراسات لأجل تجسيد ما سميناه المنهج العلمي في الأنثروبولوجيا هي:

أ- تحديد موضوعات الدراسة الأنثروبولوجية:

بات من المعلوم أن موضوعات الأنثروبولوجيا تحتاج إلى الدراسة الحقلية القائمة على الوصف والتحليل، وبات من الأمور المسلم بها في ميادين الأنثروبولوجيا أن تجري الدراسة الحقلية على مجتمع محلي صغير يفضل أن يكون محدود العدد في وسع الباحث أو فريق البحث المتكامل أن يغطي جميع جوانب الحياة فيه؛ خلال فترة زمنية معقولة، ولو أن هذا الاتجاه العام للاقتصار على مجتمعات محلية محدودة لا يعني أن علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) لا يتطرق إلى دراسة مجتمعات حضرية ومجتمعات تقليدية ذات أحجام كبيرة. وعلى هذا فإن هناك جملة من الشروط العلمية المرتبطة بتحديد موضوع الدراسة، نذكر منها:

- أ- أن يتحقق الاهتمام العلمي بالموضوع المدروس.
- ب- أن تتحقق الرغبة الشخصية بالموضوع المدروس.
- ج- أن تتوافر الإمكانيات المادية والمعنوية لدراسة الموضوع.

وبهذه المناسبة لابد من الإشارة إلى أن التحديد الدقيق لموضوع الدراسة يسهل على الباحث الإجراءات (الخطوات) العلمية الأخرى .

ب- الإعداد الببليوجرافي:

بعد أن يقع اختيار الباحث على موضوع البحث والمنطقة التي سيقوم ببحثه فيها يتعين عليه إعداد خطة ببليوجرافية سليمة تشمل قراءة كل ما يتصل بموضوع البحث ومنطقة الدراسة ابتداء من البحوث والدراسات العلمية المنهجية التي ربما تكون قد أجريت على هذا المجتمع (موضوع البحث)، حتى التقارير والنشرات والملاحظات العامة التي تعرض لهذا المجتمع وموضوع البحث من أي جانب من الجوانب . وفي هذا الإطار لابد للباحث من الاطلاع على الخطوط الأساسية والاتجاهات العامة للبحث في الموضوع المدروس ، فإذا أردنا مثلاً دراسة المعتقدات السحرية في قرية معينة أو مجتمع محلي معين فلا بد من تعميق المعرفة العامة بدراسة موضوع السحر في الثقافات كافة وفي المرحلة التاريخية المختلفة والأخذ بقسط كاف من المعلومات الموضوعية المتصلة بهذا الفرع من فروع الثقافة الشعبية .

ج- كتابة مشروع البحث (الموضوع):

وهنا على الباحث أن يطرح جملة من الأسئلة الأساسية التي يجب عليه أن يجيب عنها ، نذكر منها :

ماذا يريد الباحث أن يدرس (وبشكل محدد)؟

كيف ينوي إنجاز هذا البحث؟

ما هي الدراسات السابقة التي تم إنجازها من قبل بالنسبة للموضوع وتلك الدراسات التي أجريت بوجه خاص على المجتمع الذي ينوي دراسة الموضوع فيه؟

ما هي الميزانية التقديرية اللازمة لإنجاز البحث؟ (ميزانية البحث التقديرية)

ما هو البرنامج الزمني (المجال الزمني) للبحث أو الخطة الوطنية التي سيجري الباحث خلالها بحثه؟

ما هي الجهات التي سيتعامل معها لإنجاز البحث؟

وغير ذلك من الأسئلة الدقيقة حتى لو كان الباحث ينجز الدراسة لأغراضه الخاصة وعلى نفقته الخاصة؛ لأن هذه الخطة - كما أشرنا - موجهة هام للدراسة الميدانية نفسها.

د- إعداد ميزانية البحث:

يقصد بميزانية البحث: النفقات المقدرة من قبل الباحث لإنجاز البحث، وتختلف من بحث إلى آخر حسب حجم البحث وبعده عن مكان أو جهة العمل، وغير ذلك من القضايا المرتبطة بالبحث والمختلفة من بحث إلى آخر.

ولعل عناصر الميزانية هي:

- نفقات السفر من وإلى منطقة البحث .
- نفقات التنقلات الداخلية في منطقة البحث .
- نفقات الباحثين (أجور وغيرها) .
- نفقات الطعام والشراب (نفقات الإقامة) .
- نفقات مستلزمات البحث الورقية (قرطاسية وما شابه) وآلات التصوير وأجهزة التسجيل . . إلخ .
- نفقات الهدايا التي يمكن أن يحتاج إليها الباحث حسب ظروف البحث .

ويفضل أن يعد الباحث ميزانية تقديرية بشكلها المثالي المطلوب ، وأخرى بشكلها المتكشف الذي يشكل الحد الأدنى الضروري ، ويعود ذلك إلى جهات التمويل وإمكانيات هذه الجهات .

هـ- الاستعدادات للبحث:

ويشمل هذا الاستعداد:

- ١- تأمين الموافقات الإدارية والعلمية المطلوبة من الجهات ذات الاختصاص التي تسمح للباحث وفريق البحث بالعمل الميداني .
- ٢- إعلام الجهات الشعبية والإدارية بمستوياتها المختلفة في منطقة البحث بإجراء البحث والهدف منه .

٣- الاتصال مع الأشخاص المتوقع منهم مساعدة الباحث في التعريف على المجتمع (موضوع البحث)، وتسهيل عملية البحث الميداني .

٤- الاتصال بالجهات العلمية (المعاهد والمؤسسات العلمية) القريبة من (مجتمع البحث) لإمكانية الاستفادة منها .

٥- تحضير مكان الإقامة في (منطقة موضوع البحث) وتحديد الجهات التي سيتعامل معها الباحث ؛ لأن التعامل مع فئات غير مرغوب فيها تسهم في إفشال الدراسة .

٦- الإعلام عن مهمة الباحث بصدق وصراحة في مجتمع (موضوع البحث) والإعلام عن الوسائل التي سيستخدمها في البحث، وعلى الباحث أن يتجنب (قدر الإمكان) إعطاء الوعود المرتبطة بتنفيذ تغيرات وإصلاحات في مجتمع (موضوع البحث) .

و- اختيار وحدة الدراسة في مجتمع (موضوع البحث)؛

وهنا يحدد الباحث مجتمع الدراسة الدقيق أو ما يسمى (وحدة الدراسة) التي سيجري عليها البحث ويجمع منها البيانات، وقد يتعرض هذا التحديد أو الاختيار لوحدة الدراسة معارضة السلطات المحلية أو الزعامات المحلية في مجتمع (موضوع الدراسة) - وهنا يجب أن يتسم الباحث باللياقة وإقناع الجهات المعترضة في مبررات تحديد وحدة الدراسة .

ز- عملية جمع البيانات:

تشمل عملية جمع البيانات اعتماد الوسائل التي ستجمع البيانات من خلالها، ولعل الوسائل المستخدمة في الدراسات الأنثروبولوجية هي:

- الملاحظة بالمشاركة.

- المقابلة الشخصية.

- كما تشمل تحديد مصادر البيانات، ولعل منها:

- المذكرات.

- الصور الفوتوغرافية.

- أشرطة التسجيل الصوتية.

- الوثائق المدونة حول الموضوع.

وتشمل أيضاً بعض الآلات المساعدة في عملية جمع البيانات، مثل:
آلة التصوير والتسجيل.

(١) الملاحظة بالمشاركة: وهي أداة لجمع البيانات يستخدمها الأنثروبولوجي عند إجراء الدراسة الأنثروبولوجية، ونعني بالمشاركة: أن يصف ما يشاهد من خلال مشاركته لمجتمع (موضوع الدراسة). فإذا أراد الباحث أن يدرس مجتمعاً محلياً صغيراً (قرية) فعليه العيش في القرية لمدة مناسبة تسمح له أن يتعرف على كل شيء فيها من خلال مشاركته الدائمة خلال هذه الفترة التي يقيمها مع أهل القرية، وهناك جملة من الملاحظات

يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار عند استخدام الملاحظة بالمشاركة، لعل منها:
١-١ على الباحث التواجد في أماكن الأنشطة الرئيسة في مجتمع موضوع الدراسة.

١-٢ على الباحث متابعة الجزئيات الصغيرة (الملاحظة الجزئية) لكل شيء في مجتمع موضوع الدراسة (ماذا يجري في الشارع وفي المنزل، وأثناء ممارسة الناس لعملهم وحياتهم اليومية... إلخ).

١-٣ محاولة الاستفادة من الزيارات التي يقوم بها أو يدعى إليها للمنازل بحيث يجعل أهل المنزل يتحدثون عن كل شيء يفيد من تلقاء أنفسهم.

١-٤ يجب ألا ينسى الباحث (عند الملاحظة) متابعة الناس عند خروجهم صباحاً إلى العمل وعند عودتهم مساءً؛ لأنهم يمارسون سلوكاً وعادات تفيد جداً كمعلومات للبحث.

١-٥ مراعاة الملاحظة الدقيقة خلال المناسبات المختلفة (عند الولادة والوفاة والزواج ومواسم الحصاد والختان... إلخ).

١-٦ عند زيارة الأهالي أو أفراد مجتمع الدراسة للباحث يجب أن يراقب ردود أفعالهم لما يشاهدون من أدوات عمل تخص عملية الملاحظة وموضوع البحث مثل: (آلات التصوير والتسجيل وغير ذلك).

١-٧ على الباحث أن يقوم بتدوين الملاحظات يومياً كي لا ينسى ما هو هام ومفيد لبيانات الدراسة.

٨-١ من أهم ما يجب أن يتسم به الباحث الدقة في الملاحظة ، وهذه الدقة تتطلب منه المran الكثير والاجتهاد في تدريب الذاكرة على الاحتفاظ أو حفظ المعلومات وتكرار الرجوع إلى الشيء الملاحظ غير مرة .

٩-١ يجب أن يكون الباحث الملاحظ من أصحاب الثقافة العامة الواسعة ؛ لأنها تفيده جداً في القدرة على تحليل ما يشاهد وملاحظة ما يقع بين السطر ووراء الكلمات .

١٠-١ على الباحث اعتماد دليل العمل الميداني الخاص بالملاحظة ليسترشد به في استيفاء النقاط أو العناصر المختلفة المكونة لموضوع الدراسة .

١١-١ على الباحث أن يوضح ما إذا كان قام بالملاحظة بنفسه ، وإذا لم يكن هو الذي قام بالملاحظة يجب أن يشير إلى المصدر الذي حصل منه .

١٢-١ على الباحث الابتعاد عن استخدام الأحكام والمفاهيم العامة ويحدد بدقة هذه المفاهيم والأحكام .

١٣-١ يجب على الباحث أن يكون ملماً بتفاصيل مجتمع موضوع الدراسة من لغة أو لهجة أو عادات أو أسماء أماكن أو تواريخ تستخدم للدلالة على حوادث تاريخية زمنية . . . إلخ .

(٢) المقابلة: وهي الحوار الذي يجري بين الباحث والأشخاص الذين هم مصدر معلومات الدراسة والملاحظة ، وتتطلب المقابلة هذه حسن الإدراك والتدبير وبراعة الباحث في إجراء الحوار .

وهناك - أيضاً - جملة من القضايا يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار من قبل

الباحث عند إجراء المقابلة، نذكر منها :

١-٢ أن يحافظ على الطابع الرسمي بينه وبين المسؤول قدر الإمكان وفي الحدود المناسبة لظروف المقابلة .

٢-٢ أن تكون لديه القدرة على الحرص والتبصر؛ لما في ذلك من كشف لكثير من القضايا التي لا يصرح بها المسؤول حول شخصيته ووضعه الاجتماعي .

٣-٢ إدراك أهمية وحساسية القضايا الشخصية التي إن لم تؤخذ بعين الاعتبار لعلها تعيق عملية المقابلة بل وتفشلها .

٤-٢ يجب مراعاة الوقت الذي يجري فيه المقابلة، فلا يمكن خلال فترة استراحة المسؤول (مثلاً) أو وهو يعمل أو غير ذلك . كما يجب مراعاة عند إجراء المقابلة في المنزل أن تكون بمكان هادئ وعدم وجود أشخاص آخرين أثناء الحوار؛ لما في ذلك من تأثير سلبي على عملية المقابلة .

٥-٢ يجب أن يكون الباحث يقظاً لمدى صدق المعلومات التي يقدمها المسؤول، وإذا احتاج الأمر إلى ذلك عليه إعادة الحوار في المعلومات غير الصحيحة بلباقة وكياسة المسؤول وإذا لم يتمكن فعليه مقاطعتها مع مسؤول آخر . . إلخ وهنا يجب على الباحث أن يسعى للحصول على المعلومات من المتخصصين مباشرة وهذا لا يعني عدم اعتماد رأي الناس العاديين .

٦-٢ يجب على الباحث عدم إدارة المقابلة بمجملها بالأسئلة المباشرة ويجب التزام الحذر عند استخدام هذه الأسئلة؛ لأن توجيه أي سؤال

مباشر بشكل خاطئ أو خارج عن حدود المطلوب سيعود بالضرر على سير المقابلة ، وهنا ينصح الباحث باستخدام الأسئلة غير المباشرة قدر الإمكان واستخدام الأساليب المناسبة والذكية عند استخدام الأسئلة المباشرة .

٢-٧ من المفيد أن يبدأ الباحث المقابلة لإطلاق حكم عام أو إبداء ملاحظة عامة حول موضوع معين ، ثم يترك للمسؤول فرصة الكلام كما يشاء حول هذا الموضوع .

٢-٨ مراعاة أن تتم المقابلة على فترات وخاصة إذا كانت المقابلة لمدة طويلة ؛ كي لا يرهق المسؤول ويعطي المعلومات مختصرة أو منقوصة .

٢-٩ على الباحث مراعاة الفئات الاجتماعية التي يتحدث معها أثناء المقابلة ، فلا يحاور الكبار بحضور الصغار والعكس صحيح ، ففارق السن يمثل في هذه الأحوال عاملاً شديداً التأثير على دقة البيانات ، وكذلك الحديث مع الإناث بحضور الذكور والعكس صحيح وبخاصة إذا كانت الموضوعات تتعلق بمسائل شخصية أو محرّجة .

مشكلات تواجه عملية جمع البيانات:

عندما يبدأ الباحث بخطوة جمع البيانات فيكون العمل الميداني (الحقلي) قد بدأ فعلياً ، وهناك مشكلات تواجه الباحث لابد من أخذها بعين الاعتبار نذكر منها :

١- المبالغة في الضيافة على حساب وقت العمل ، فقد يبالغ أبناء مجتمع موضوع الدراسة بحسن الضيافة للباحث في أيامه الأولى ، وهذا

يؤثر على وقت العمل وإنجازه بالوقت المبرمج له حسب الخطة الزمنية . وهنا على الباحث أن يدرك هذه المشكلة ويسعى دائماً إلى عدم الوقوع فيها .

٢- عدم قناعة أهالي مجتمع (موضوع الدراسة) بمهمة عمل الباحث والشك فيها (إنه جاسوس أو مخبر . . إلخ) أو يبغى أهدافاً أخرى ، وهنا على الباحث أن يزرع الثقة يوماً بعد الآخر عندهم وتصحيح الفكرة الخاطئة المكونة لديهم .

٣- من خلال العلاقات الطيبة التي تتكون مع بعض أهالي المجتمع (موضوع الدراسة) فيقومون بعرض آرائهم وإعطاء البيانات التي يرونها مناسبة ، وتحديد الصور التي يجب أن تصور وما يجب أن يسجل وما لا يجب وتحديد من سيقابلهم الباحث ومن يجب ألا يقابلهم وهكذا وهذه مشكلة أيضاً يجب أن يدرك الباحث أخطارها على دقة البيانات وألا يسمح لوجودها مسبقاً .

٤- (أحياناً) تقوم بعض الجهات الإدارية والمسؤولة في المجتمع (موضوع الدراسة) أن تفرض على الباحث الأشخاص الذين يتحدثون معه أثناء المقابلة ، وهنا عليه استيعاب ذلك ومحاولة إيجاد أشخاص آخرين من طرفه وخاصة أنه يعيش لمدة مناسبة في المجتمع (موضوع الدراسة) .

٥- مشكلة احتمال إنهاء الدراسة والانتقال إلى مجتمع آخر وهي مشكلة ربما تصادف الباحث عند البدء بالعمل الحقلية كأن تحدث وفاة مثلاً في مجتمع (موضوع الدراسة) ويكون (موضوع الدراسة) حول الأغاني

الشعبية أو الاحتفالات الخاصة بالزواج ، فمن الصعب وحتى لفترة طويلة أن يقوم الباحث بإنجاز عمله لأن مجتمع البحث لا يتقبل بل يرفض العمل ، وهنا يلجأ الباحث إلى تغيير المجتمع إلى آخر قريب إذا تسنى له ذلك وحتى لا تذهب الجهود الكبيرة التي بذلها في الإعداد للبحث هباء .

ج- كتابة التقرير (الوصف والتحليل ونتائج الدراسة)؛

تعد عملية كتابة التقرير العلمي الخطوة الأخيرة في العملية المنهجية للدراسة الأنثروبولوجية . فبعد أن يجمع الباحث بياناته بوسائله المختلفة ، وبعد عودته من المجتمع (موضوع البحث المدروس) يقوم بكتابة تقرير عما جرى معه منذ بداية عمله وحتى النهاية بما في ذلك المشكلات التي واجهته والإرشادات والتوصيات التي يقترحها ، ويجب أن يكتب التقرير بلغة علمية وبتبويب وتصنيف ممنهج ، وهنا ينصح الباحث أن يطرح على نفسه السؤال التالي وهو :

- ماذا يريد القارئ أن يعلم عن الموضوع المدروس ، وكيف سأعرض عليه الحقائق والنتائج التي انتهى إليها البحث؟

كما على الباحث ألا ينسى استخدام الشواهد في بحثه وخاصة إذا استخدم آلة التصوير مثلاً ، ويشير في نهاية التقرير إلى الجهات التي تعاون معها ، والمصادر العلمية التي اعتمد عليها ولا شك أن إنجاز التقرير العلمي يعتمد على استخدام الوصف والتحليل والمقارنات والأدلة للوصول إلى النتائج التي بدورها تسهم في اعتماد اقتراحات وتوصيات حول الموضوع المدروس .

الفصل الخامس

الأمثال الشعبية
والمصطلحات الأنثروبولوجية



obeikandi.com

المبحث الأول

الأمثال الشعبية

تُعد الأمثال الشعبية بما تشكل من ومضات عذبة تحمل إلينا العبرة المفيدة والحكمة العميقة والصورة البليغة ، تعد جزءاً هاماً من التراث الفكري الاجتماعي للشعوب عبر تطورها الحضاري الإنساني .

وإنك لتشعر والمثل يمر بخاطرك ببهجة غنية سريعة مريحة ، مرجعها إيجاز في اللفظ وغزارة في المعنى وهذا هو مضمون المثل الشعبي . وها نحن إذ نقدم مادة أولية جمعت وفق موضوعات مختلفة فإننا نعتقد أن هذه الأمثال كموضوع تعد من الموضوعات التي تشملها الأنثروبولوجيا بالدراسة والتحليل .

إن الأمثال (كما يشير بعضهم) نظريات في الحياة الاجتماعية ، تتعرض لغيرها من النظريات إلى النقد والتغير ، والحقيقة فيها نسبية ، والنظرة فيها تتدرج وتتناسب مع موقف معين ، علينا أن نكون حذرين في تطبيقها والأخذ بها ، والأمثال إنما هي آراء يستأنس بها ، وهي مادة فكرية معرضة للنقد ، إن روعة الحياة في تبديلها وتطورها وعدم ثباتها .

هذا وترتبط الأمثال بالأزمة التي قيلت فيها ، ومن الجمود الفكري جعلها حكماً خالدة ، ولا نفكر من ناحية أخرى أن عدداً وفيراً من هذه الأمثال فيه الحكم التي يمكن أن توافق معظم الأزمنة ؛ لأنها متطورة مع تطور البشر ومجتمعاتها .

أمثال تتعلق بشكل الإنسان

- مثل قطرميز مصر لا طول ولا خصر .
- الرجال بلا سيكارة مثل البنت بلا إسوارة .
- القرد بعين أمه غزال .
- «في نسبية عيار الجمال» .
- من إيد لإيد تكبر وتزيد .
- «دعوة حنان تقال لطفل جميل محبوب» .
- وردة ما تساوي ربيع .
- «المثل قمة في الجمال والروعة، فيه أبعاد فكرية عظيمة منها تفضيل الحُسن على الحُسْن، وتفضيل الجماعة على الفرد، وتفضيل الرائعة من على العادية منهن» .
- اطلب الخير من حسان الوجوه .
- «في أن جميل الوجه جميل النفس» .
- بزينة شافت بنتها على الحيط قالت لها تقبريني مثل اللولية بالخييط .
- «في أن تقويم الجمال مرتبط بالعاطفة» .
- الكسم ما هو بوسع الكمام، لكن باللياقة والهندام .
- «في أن الأناقة مرتبطة بالذوق قبل فخامة الثياب» .

- إلهي تكسبه السمرة تحطه حق خطاط وجمرة .
- كل دبس وزيت وناطح الحيط .
- «لما فيهما من فائدة للجسم» .
- الحلو حلو ولو فاق من النوم ، والبشع بشع ولو غسل وجهه كل يوم .
- «في أن التزين لا يغير من القبيح شيئاً» .
- راح ساقى وسماقي ، وما بقي غير ضيقة ألاقى .
- «يقوله من أتى الزمان على شبابه وماله» .
- اللي كثير السمن ما يبات بأمن .
- «المثل كناية عن الوجه العابس اليابس الذي لا يستم للمفرحات» .
- وجه المقت - الله لا يسعد له وقت - .

أمثال حول الأهل والناس

- الناس أجناس تنك ونحاس .

«في تباين قدر الناس» قال البحري :

وهل يتكافى الناس شتى خلالهم

وهل تتكافى في اليدين الأصابع

- ثلاثة ما تنطاق : البق والنق والطق .

- من خلف ما مات :

«لأن الولد ذكرى أهله في الحياة» .

- اللي تعرفه أحسن من اللي تتعرف عليه .

- موكل أصابعك مثل بعضها .

«في تفاوت الناس سلوكاً وقيمة» .

- فوته الجار على الجار أولها منة وآخرها معيار .

«في أن الدخول إلى الجار يكون عادة لحاجة ، فإذا ما تكررت دفعت الجار إلى أن يعير الداخل إليه بحاجاته الكثيرة التي رغبها منه» .

- ما يبكي على الولد غير أمه .

- من بعد الأم احفر وطم ، وبعد الأب إلك رب .

- ظلم الأقارب أحد من ضرب السيف .

قال أبو الطيب :

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة

على المرء من وقع الحسام المهند

- زيوان البلد ولا قمح الغريب .

«في تفضيل ابن البلد على الغريب وإن كان أقل منه قدرا» .

- أحبك يا عدوي صديقي جواتك .

«أي الصديق عدو مقنع» .

- خف من عدوك مرة ومن صديقك ألف مرة .

قال الشاعر :

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة

فرما انقلب الصديق فكان أعلم بالمضرة

- الأهل من بعد الأم جيران .

- خذوا أسرارها من صغارها .

- من عاشر القوم أربعين يوماً صار منهم .

- جارك مثل أخاك ، إن ما شاف وجهك يشوف قضاك .

- أهلك أهلك ولورموك على مهلك .

- أقارب لا تقارب .

- جنب العقرب لا تقرب وجنب الحية افرش ونام .
- أقاربك حبههم وعمرك ما تسبهم .
- دق القرفة ولا مواجهة السلفة .
- الجار جارنا والدار دارنا ، وإن خلص ليلنا نوصله بنهارنا .
- ابن الحلال عند ذكره بيان .
- «كلمة ترحيب تقال للصديق عندما تراه وكنت في ذكره» .
- خبّ تبك لابن ابنك .
- «دعوة إلى الادخار» .
- كوم فيران ولا ها لجيران :
- «في ذم جار السوء» .
- قلبي على ولدي انفطر ، وقلب ولدي عليّ حجر .
- «يبين حنان الوالدين وقسوة الولد» .
- الخالة امرأة الأب لا تحب ولا تنحب .
- «يبين قسوة الزوجة الثانية نحو الأولاد» .
- الولد سر أبيه .
- «لأنه يظهر من ملامح نفسه ما يخفيه أبوه بحيلته ومداراته» .
- خيش البلد ولا صوف الجلب (الصوف المجلوب من خارج البلد) .

- القمح اللي ما هو إلك لا تحضر كيله ، تغبر نفسك وتتعب بشيله .

« دعوة إلى التخلي عما لا يرتبط بالفرد من مصلحة واهتمام » .

- الشناخير من الغنى .

« أي الشكر ، وهو شكر الناس للمتقن عمله ، وشكر الناس هذا

مجلبة للخير الدائم بالنسبة له » .

أمثال حول متناقضات ومفارقات

الحياة والإنسان

- وقعت إبرة بنص البير سمع الأطرش رنتها، وقال الأعمى خرمها كبير، ونزل الأعرج ليمليها.
- المال مال أبونا والناس يحاربونا.
- «فيمن ينافس على خير ليس فيه».
- قَصَدْنَا الكريم بخلُ علينا.
- «فيمن ساء حظه وحسن مسعاه».
- غرقان بالمي وخايف من الشتا.
- باب كبير وله حلقة وجواته ناس تحل عليهم الصدقة.
- «ييين من حسن مظهرهم وساءت حالهم».
- مال أبونا صار علينا صدقة.
- «الغريب ينافس على مالك».
- مثل النعمة تخبي رأسها وتحسب ما حدا. شايفها.
- عند الكبرة جبه حمرة.
- «استهزاء بالمتصابي والمتصابية».
- غاب الغراب وجاء بقشة.

«فيمن طال سعيه وقل جنيه» .

- الأعور بين العميان مفتوح .

- عميا بمكحلتين ، وقرعا بمشطين .

- الله يعطي جوز للي ماله أسنان ويعطي حلق للي ماله ودان .

- أهل القط مشتهين المرقة .

«في الخسيس الموسر ييخل بالقليل على أهله» .

- حساب القرايا ما وافق على حساب السرايا .

«بين الاختلاف بين ما توقعته وبين ما فوجئت به»

- يهودي ضربوه بعلبة قال بدني مشتهيا .

«للدليل يفرح بالربح انزر ، وإن كان ربحه على حساب كرامته»

- إن بزقنا لفوق علينا ، وإن بزقنا لتحت علينا .

«في إنسان تنهاه حرمة القرابة عن رد أذاها ؛ لأن السوء اللاحق بها

سيلحق به ، وفي المثل صراع بين الغضب والكرامة» .

- قالوا للدب شو شغلتك قال موظف بالسرايا ، قالوا مبين على أيديك

ها الطرايا .

«فيمن ادعى خبرة لا تليق به ولا يتقنها» .

- خد وردة من قلب شوكة .

«في الجيد يخرج من بيئة سيئة» .

- الإسكافي حافي والحياك عريان .

«يضرب للإنسان المحروم من أقرب الأشياء إليه» .

- أقرع سحب سحبه طلع له مشط .

- حبلى ومرضعة وقدامها أربعة ، وطالعة على الجبل لتجيب دوا
للحبل .

«في منتهى الطمع البشري» .

- فوق المعروف لط كفوف .

«في العمل الطيب يجازى بالجوود والأذى» .

- بعد ما كبر وشاب بعتوه على الكتاب .

«عدم تناسب العمر مع العمل» .

- جدي لعب بعقل تيس .

«في الصغير يخادع من زاد عنه قدراً وعمراً» .

- أجا ليكحلها عماها :

«حاول الإصلاح فزاد في الفساد فساداً» .

- العنزة الجربا ما تشرب إلا من رأس العين .

«الوضيع المتكبر» .

- هرب من عزرائيل لاقاه قباض الأرواح .
- «في الإنسان يجهد نفسه ساعياً فلا يظفر إلا بالقليل النزر» .
- من تحت الدلف لتحت الميزاب .
- «تهرب من المصيبة فتلقاك مصيبة أكبر» .
- ضربني وبكى وسبقني واشتكى .
- «فيمن بادرك بالأذى وسبقك إلى الشكوى» .
- يا ماشي على رجلك ما تعرف شو مقدر لك .
- إذا كان خصمك القاضي من تقاضي :
- قال المتنبي :
- يا أعدل الناس إلا في معاملتي
- فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
- ما يفضح الأمير غير الكنة والأجير .
- «في أن فضح الأسرار يقوم به أقرب الناس إلى الإنسان»
- ما تعرف خير لي لتشوف غيري .
- كمل جهاز القط وما بقي إلا الشمعدان :
- «سخرية بالقبيح»
- يده لغيري وما عرف من المات .

«في الفضولي ينجذب إلى الجماعة ليسلك مسلكها عن غير وعي وعلم» .

- يا ما تحت السواهي دواهي .
 - الحجر اللي ما يعجبك فجك .
 - «في المستضعف يفاجئك بفتكه» .
 - يا مستعجل وقف أقول لك .
 - الجنازة حامية والميت كلب .
 - بايت جمرة وصبحت رماد .
- قال الشاعر :

وما المرء إلا كالشهاب وضوؤه
يحور رماداً بعد إذ هو ساطع
وما المال والأهلون إلا وديعة
ولا بد يوماً أن ترد الودائع
- أخرج ويسابق خيل .
«من يدعي ما لا يقوى على القيام به» .

أمثال حول القيم الأخلاقية

ومكارم الأخلاق

- العين ما تعلی علی الحاجب .

«تواضع ومودة واحترام» .

- وعد الحر دين .

- احفر بير وطم بير ولا تعطل أجير .

- هن فلوسك ولا تهن نفوسك .

«الكرامة أغلى من المال» .

قال الشاعر :

ومن يك ذا مال ويبخل بفضله

على قومه يستغن عنه ويذم

- الزيت بالعجين ما يضيع .

«لا يضيع إنفاق المال في وجه الخير» .

- اللي يسلمك مذبحه لا تذبحه .

- بالذهب تختبر الرجال .

- إن كان أبوه البصل وأمه الثوم هو من راح يكون .

- لا تريح جنبك عند اللي ما يحبك .

- طعميته عسل عض أصبعتي .

- وإذا حبيبك عسل لا تلحسه كله .

- يهدي بيضة يأخذ جاجة .

قال البحري :

أعطى القليل وذاك مبلغ قدره

ثم استرد وذاك مبلغ رأيه

- بالوجه مليح وبالقفا قبيح .

قال الشاعر :

يعطيك من طرف اللسان حلاوة

ويروغ منك كما يروغ الثعلب

- بيت السبع ما يخلى من العظام .

- اعمل معروف والحش بالبحر .

قال الشاعر : من يفعل الخير لا يعدم جوازيه

لا يذهب العرف بين الله والناس

وقال آخر : ازرع جميلاً ولو في غير موضعه

فلن يضيع جميل وإنما زرعاً

- كما تدين تدان .

- «في المثل مودة وتضحية وعطاء» .
- محل الضيق يسع ألف صديق .
- كبر اللقمة وصغر الكلمة .
- «ليكن فعلك الخير أكبر من معسول قولك» .
- قل الحق ولو على قطع رأسك .
- «في المثل بطولة أخلاقية» .
- الرجال تجيب مصاري والمصاري ما تجيب رجال .
- «الرجال أعز من المال» .
- ما في حوار وصلت لربها إلا بعث لها نسمة هوا قرفها .
- «عاقبة المتكبر»
- قال الشاعر : ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع .
- لا تقطع صديقاً ولو كفر ، ولا تتركن لعدو ولو شكر .
- «فالصديق قد يرجع عن غيه وخطئه أما العدو فمتربص وإن أظهر مودته» .
- حظ اصبعك بعينك مثل ما توجعك توجع غيرك .
- «في المثل إرشاد أخلاقي نبيل مقنع» .
- اللي يزرع الشر ما يحصد إلا الندامة .

- الأمانة لا تخونه ولو كنت خائن .

«خيانة من أمانة خيانتان ، خيانة إنسان لإنسان وخيانة إنسان لآخر
ملهوف كنت رجاءه» .

- أيد الحر ميزان .

- لا تشرب من بير وترم فيه حجر .

«دعوة إلى عرفان الجميل» .

- يا داخل بين البصلة وقشرتها ما ينوبك إلا ريحتها .

«في عاقبة من يتدخل بما لا يعنيه» .

«لا تتدخل فيما لا يعنك تلق شيئاً لا يرضيك» .

- من غربل الناس نخلوه .

- أيد لوحدها ما تصفق .

«لا عمل بدون تعاون» .

- حبل الكذب قصير .

«لأن الكذب سيفضحه واقع مشرق بحقائقه» .

- النار ولا العار .

- أنا وأخي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب .

«في نسيية العداوة» .

- إذا كان الكذب ينجي فالصدق أنجي .

- اللي يعمل بإيده الله يزيده .

- إذا كان الأكل مو إلك بطنك مو إلك؟

«في ضرورة اعتدال الضيف بمأكله» .

- مو كل عين ساهرة تخدم عين نائمة .

- اخلص النية وبات بالبرية .

قال الشعر :

وإذا العناية لاحظتك عيونها ثم فالمخاوف كلهن أمان

- من ساواك بنفسه ما ظلمك .

- من علمني حرفاً صرت له عبداً .

«يردده الطلبة تقرباً من معلمهم» .

- قال الشعر أحمد شوقي :

قم للمعلم وفّه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا

وقال آخر :

ويكاد يفلقني الأمير بقوله قم للمعلم وفّه التبجيلا .

- يا رايح كثر ملايح .

«التشجيع على حسن السلوك ليبقى الذكر طيباً» .

- الدم ما يصير ميّ .
- « في اللهفة الحتمية بين الأقرباء » .
- خذي شغال ولا تاخذي بيت مال .
- « الغش والعمل خير من المال ، فالأخير ينفد ، ويبقى الإنسان العامل » .
- لا تفتش عن حمرة خدودها ، فتش على أصل جدودها .
- « أصيلة المنبت خير من الحسناء » .
- عدوك لا تؤذه ، له رب يجازيه .
- لا تجعل الدنيا همك ، مالك منها غير لقمة تمك .
- لعب القمار لاحقه النحس ، يا يصفى عند الخمار يا يصفى بالحبس .
- إذا شفت عريان لا تسأله عن ثيابه .
- الجار للجار ولو جار .
- رد الخير لجارك تلاقه بديارك .
- أقاربك حبهم وبعمرك ما تسبهم .
- الحمل على الجماعة خفيف .
- اللي ما تزينه عروقه ما تزينه خروقه .
- اللي ما يشبع من كيسه ما يشبع من كيس الناس .
- لا تفوت بيت الظنّان ولا تأكل خبز المّان

أمثال حول حسن التصرف والتدبير

- شوف شو معك وشوف شو عليك وعلى قد بساطك مد رجلك .

قال الشاعر :

لعمرك ليس إمساكي لبخلي ولكن لا يفني بالخرج دخلي

وفي طبعي السماحة غير أني على قدر الكساء مددت رجلي

- المية قطرة قطرة تغلق الصخرة .

- احفظ عتيقك ، جديدا ما يبقى لك .

« في أن القديم من الأصدقاء أكثر أصالة وإخلاصاً وبقاءً ، ويراد بالقديم المال أيضاً ، ذلك لأن المورد الجديد قد لا يدوم » .

- من تأنى نال ما تمنى .

- العين ما تقاوم مخرز .

- ساقية جارية ولا نهر مقطوع .

- إسا سلمت من السبع لا تطمع بصيده .

قال المتنبي :

ومن يجعل الضرغام بازاً لصيده تصيده الضرغام فيما تصيداً

« النهي عن عشرة الأقوياء وعن الطمع بخيرهم » .

- اللي ياخذ من ملة غير ملته يموت بعلته .

«الاحتراس من الغريب» .

- حدا يشتري سمك بالمي .

- ما يحك جلدك غير ظفرك .

«الاعتماد على النفس» .

ما حك جلدك مثل ظفرك فتولّ أنت جميع أمرك

- الرمد أشوى من العمى .

- طعمي التم تستحي العين .

- ابعث حكيم ولا توصه .

- إذا بدك تستريح شو ما شفت قل مليح .

«الاستسلام والخنوع» .

- أبعد عن الشر وغني له .

- امشي بجنازة ولا تمشي بجوازة .

- توب العيرة ما يدفي وإن دفي ما يدوم .

- إذا حلق جارك بل أنت .

- إن كبر ابنك خاويه .

- لا تقل عنب ليصير بالسلة .

- خبي قرشك الأبيض ليومك الأسود .

- بيضة اليوم ولا دجاجة بكرة .
 - اللي بده يسكر ما بده يعد أقداح .
 - اسأل مجرب ولا تسأل حكيم .
 - ما بعد الضيق إلا الفرج .
 - لسانك حصانك إن صنته صانك وإن خنته خانك .
 - اعط الخباز خبزه ولو أكل نصفه .
 - أخذت الغريب وعملته خيي ، عرف جروحي وشمته في .
- قال الشاعر :

وكنت أعدك للنائبات فها أنا أطلب منك الأمانا .

- اللي يتجوز بالدين يجو أولاده بالفايض .
- «عاقبة سوء التدبير» .

- الحق البوم يدلك على الخراب .

«في أن الهلاك يعرف بمسالكه»

- اللي يشوف مصايب الناس تهون عليه مصايبه .

- البطن على لقمة والشر على كلمة .

- كل شيء بوقته حلو .

«في حسن التصرف وفق مقتضى الحال» .

- كشر على نياك كل الناس تهابك .
- الطاقة اللي يجيك منها الريح سدها واستريح .
- اضرب الحديد وهو حامي .
- من رادك ريده ومن غاظك زيده .
- «المعاملة بالمثل» .
- شم الهوا أنفع من شرب الدوا .
- حدا يعير مزارابه بأيام الشتا .
- «امتناع إعارة الشيء عند حاجته» .
- الطش الطينة بالحيط إن ما لصقت تعلّم .
- أكبر منك بيوم أعرف منك بسنة .
- «زيادة العمر مرتبطة بزيادة الخبرة» .
- الحق الكذاب لباب الدار .
- مو كل مرة تسلم الجرة .
- عصفور باليد ولا عشرة على الشجرة .
- اللي أوله شرط آخره سلامة .
- «الاتفاق المسبق يمنع الاختلاف اللاحق» .
- ألف قلبة ولا غلبة .

- اللي ما له كبير ما له تدبير .
- إن فيك راس اعمل مثل ما يعمل الناس .
- «روح اجتماعية» .
- لا تستعجل على الحصرم بكرة بتاكله دبس .
- عدو عاقل ولا صديق جاهل .
- لا تقل أعرفه لتجربه .

أمثال حول نفسية الإنسان

- اللي ما يعرف يرقص يقول الأرض مايله .

«في العاجز يدافع عن نفسه» .

- قاعد بحضني وعمال ينتف بدقني .

قال الشاعر :

أعلمه الرماية كل يوم فلما اشتد ساعده رماني .

- أول الغضب جنون وآخره ندم .

- الهريبة تلتين المراحل .

- الفاضي يعمل قاضي .

- الدجاجة اقطع منقارها ما بتغير كارها .

- اللي ينكر أصله يكون بلا أصل .

- إيش ما طبخت العمشا جوزها يتعشى .

- علمناه على الشحادة سبقنا على الأبواب .

«للمتعلم يسبق معلمه» .

- الكلام لك يا كنة واسمعي يا جاره .

- كرمال عين تكرم مرج عيون .

- ركبته على الحمار مد إيده للخارج . ويقال أيضاً: ركبناه ورانا مد

أيده على الخارج .

- لا قيني ولا تطعمني .

«في المثل نبل ومودة وحب للصاحب لا طمعاً بخيره» .

قال الخزيمي :

أضاحك ضيفي قبل إنزال رحله

ويخصب عندي والمحل جديب

وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى

ولكنما وجه الكريم خصيب

- لا أرحمك ولا أخلي رحمة الله تنزل عليك .

«المنع الخير عني ومنع سبيله إليك» .

- لولا الغيرة ما حبلت الأميرة .

- قلب الإنسان دليله .

- فخار يكسر بعضه .

- إذا ما كان صحيح قال مليح .

- يا كثر أصحابي لما كان كرمي دبس ، ويا قلة أصحابي لما صار كرمي

يبس .

قال الشاعر :

وما أكثر الإخوان حين تعدهم

ولكنهم في النائبات قليل

- من غاب عن العين نساها القلب . (بعيد عن العين بعيد عن القلب)
و(البعد جفا) .

- اليد اللي ما تقدر عليها بُسها وادع عليها بالكسر .

- ما ينسى المرء إلا الأمر منه .

- ألف كلمة خود ولا كلمة هات .

- الكحل أحسن من العمى .

- مو كل من أخذ أُمي صار عمي .

- كثر العتاب يهرب الأُجباب .

قال بشار :

فعش واحداً أو صل أخاك فإنه

مقارف ذنب مرة ومجانبه .

- عدو جدك ما يودك .

- جرح الأسى ما ينتسى .

- حماتي بطبريا وأصواتها جاية لي .

- الحية ما يبرد دمها لتنفض سمها .

- وجوه كالحة ومياه مالحة .

- شرط الألفة ترك الكلفة .

- اللي برأسه موال بده يغنيه .

- بالوجه مراية وبالقفا صرماية .

قال أبو تمام :

ليس الصديق بمن يعيرك ظاهرا

مبتسماً عن ظاهر متجهم

- إن حبيت حبي أمير ، حتى إن عيروك تقبلي التعيير .

- امسك الوردة وشمها تطلع البنت لأمها .

« طب الجره على تمها تطلع البنت لأمها » .

- كل إنسان يحكي صفاته .

- كل شيء معروض مكروه .

- اللي بجنبه مسلة تنخزه .

- محل ما تحب طب .

- لا تاخذ صاحب إلا بعد قتله .

- الولد ولد ولو صار حاكم بلد .

- شوفني بعين أشوفك بشتين .

- ما حدا بقول عن زيتة عكر .

- العين بصيرة واليد قصيرة .

- حمل سم ولا درهم همّ .

أمثال حول السخرية والضحك

- وجهه مثل العدس ، إن ضحك وإن عبس .
 - حظي بكل شيء أسود إلا بالبطيخ أبيض .
 - اللبن إذا بات كبوه على الخرابات .
 - القتاية العوجا إذا جلستها تنكسر .
 - راح قدوم ورجع منشار .
 - من جرّب المجرب كان عقله مخرب .
 - ست وجارتين على قلبي بيضتين .
 - يعمل من الحبة قبة ومن الزبيبة خمارة .
 - قبل الرز والبيتجان غطّ جسمك يا عريان .
 - إذا كان صاحب البيت يزمر ، لأيش الست ما ترقص .
- قال الشاعر :

إذا كان رب البيت بالدف ضارباً

فشيمة أهل البيت بينهم الرقصُ

- من صدّق منجم كذب أربعين نبي .
- راكب جمل ، وحامل علم ، وقايل : يارب السترة .
- ياللي مأمّن الرجال مثل ياللي مأمّن المية بالغربال .

- العميان جاهم صبي قلعوا عيونه بالحمسة .

- راحت السكره وأجت الفكرة .

- نزل الفلاح على المدينة ما اشتهى غير دبس بطحينة .

- قالوا طلق أم حسن وخد أم حسين ، قلت لهم : الله يلعن التنتين .

- ابن الحرام يساويها وابن الحلال يوقع فيها .

- لا تدفش السكران يوقع لحاله .

- من قلة الخيل شدينا على الكلاب سروج .

- اربط الحمار محل ما بده صاحبه .

- اللي ماله سطح ينام على سطوح الجيران .

- عرج الجمل من شفته .

- ربطوا الحمار على باب الحلاق قام تعلم الحكي .

«ثرثرة الحلاقين» .

- الحق الديك على القن يوديكي .

- ما كل شيء يلمع ذهب .

- حمار موالف ولا غزال مخالف .

- ما يقدر على حماته قام على مراته .

أمثال لاذعة

- لو كان بالبومة خير ما تركها الصياد .

«المهمل يهمل لتفاهة قدره» .

- اللي يطلي وجهه بالنخالة تأكله البقر .

«فيمن يدعو الناس إلى ذمه» .

- بده يصلح الدنيا وما كان يصلح حاله .

قال الشاعر :

لا تنهَ عن خُلُقٍ وتأتي مثله

عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

- الله يطعمك الحج والناس راجعة .

«لمن تأخر عن طلب حاجته» .

- لا يلحم القصدير إلا على التنك .

«تجانس الأشياء» .

- يارايح بلا عزيمة لا قدر ولا قيمة .

- طولة البال تهد جبال .

«دعوة إلى الصبر البناء» .

- مثل المي من تحت التبن .

- الكلام على المتكي هوين .

- شاف أصحابه نسي أحبابه .

- ما يشكر نفسه غير إبليس .

- داب التلج و بان المرج .

- راح الغالي لا أسف على الرخيص .

- الدين ذل بالنهار وهم بالليل .

«ذل في مجابهة أصحاب المال ، أما الهم فنتاج عن السعي الفاشل في تأمين ذلك المال» .

- حبيبي صح بس على الجية لا تقرب .

- قال الشاعر :

عجبت لبعض الناس يبذل وده

ويمنع ما ضمت عليه الأصابع .

- من برّه رخام ومن جوه سخام .

- بدل اللحمه والباذنجان هات لك قميص يا عريان .

«لمن اعتنى بمطعمه دون مظهره مع سوء في التدبير» .

- كلام القاضي فستق فاضي .

- ما يشبع عين بني آدم إلا التراب .

- «لن يكف الإنسان عن الطمع حتى يموت» .
- عش يا كدش لينبت الحشيش .
- «في الوعد يا كمون» . «عش بالوعد يا كمون» .
- طنجرة ولاقت غطاها .
- اللي بيته من زجاج ما يضرب الناس بالحجارة .
- مو كل من صف الصواني قال أنا حلواني .
- «في إتقان الأمر» .
- ما منه شيء دخانه يعمي .
- «تعبير عن البخل» .
- بدنا سلتنا بلا عنب .
- «التخلي عن خير صاحب بعد الشعور باليأس والخسارة» .
- الطول طول العضاضة ، وما نفع غير نفاضه . .
- مثل الحية تقرص وتخبي رأسها .
- اللي بده يساوي جمّال بده يعلي باب داره .
- الشعرة من دنب الخنزير بركة .
- «في الخير القليل يأتيك من الخسيس» .
- الضحك من دون سبب قلة أدب .

- بكل عرس له قرص .

«في الطامع لا تفوته فائدة» .

- أكلك ما جاني ودخانك عماني .

«في البخيل يضمن بالخير ويجود بالأذى» .

- ياخذك على البحر ويرجعك عطشان .

- حارتنا ضيقة ونعرف بعضنا .

«في تكذيب المدعي» .

- دود الخل منه وفيه .

- غاب السبع العب يا ضبع . (غاب القط العب يا فار) .

- يحب يعلى ولو على خازوق .

- المنحوس منحوس وإن علقوا على بابه فانوس ينطفي وإن شعلوه

ينوس .

- دسنا الأراضي اللي ما تنداس ، وبسنا الأيادي اللي ما تنباس .

«حسرة لمذلة يجبر المرء عليها بعد عزة وهو في حيرة مؤلمة من أمره» .

- كل فوره وراها غورة .

«ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع» .

- الأكابر حيطانهم سور وعيهم مستور .

«الغنى ستار العيوب» .

أمثال حول الأزمنة والبلاد

- أيلول دنبه مبلول .
- «لما في أواخر أيامه من رطوبة منعشة» .
- مية نيسان تحيي السكة والفدان .
- «لما فيها من فائدة زراعية» .
- باشا ما يصير من عرب وملقط ما يصير من خشب .
- «مثل تركي فيه حقد المستعمر العثماني على الأمة العربية» .
- مية آذار تحيي الزرع والأشجار . (آذار الهدار) .
- الصيف كيف ، والشتى شدة ، والربيع ينبوع .
- شباط مهما شبط رحيه الصيف فيه . (شباط اللباط) .
- بتموز تغلي المي بالكوز .
- حر الصيف أحد من السيف .
- خبي فحماتك الكبار لعمك آذار أبو الزلازل والأمطار .
- تعجب يا إنسان زمرد حامل مرجان .
- «في تشبيه الأشجار الخضراء بالزمرد والثمار الحمراء بالمرجان» .
- بكانون كن بيتك يا مجنون .
- أهل حلب ذوق وأدب .

- دخان يعمي ولا برد يضني .
 - سعد الخبايا واطلعوا يا صبايا .
 - البرد والقلة أساس كل علة .
 - سعد السعود سلاخ الجلود .
 - شمس شباط لكنتي ، وشمس آذار لأختي ، والشمس اللي بنيسان إلى ولبتي .
 - بحزيران ينزل المشمش ويكبر الرمان .
 - برد تشارين يهر المصارين .
 - بين تشرين وتشرين صيف ثاني .
 - اترك بلادك تنول مرادك .
- قال الشاعر :

تغرب عن الأوطان في طلب العلا
وسافر ففي الأسفار خمس فوائد
تفريج همٍّ واكتساب معيشة
وعلم وآداب وصحبة ماجد

أمثال متنوعة

- الدرهم على المدى قنطار .
- «دعوة إلى الادخار» .
- المال الحلال لا يغرق ولا يحرق .
- مد إيدك على عبك الله يحبك .
- السر بين الثلاثة فشى .
- قال له : قديش إلك بالقصر ، قال : من البارح العصر .
- «لمن يأمر وينهى وهو ما زال دخيلاً في الجماعة» .
- إجا من البرية وبده ياخذ الأولية .
- ساقية ما تعكر بحر .
- «في الرديء يعجز عن إفساد الجماعة» .
- سلامة الإنسان في حفظ اللسان .
- من قلة ما في بايده ما بقي حدا يريده .
- «في أن الناس يتخلون عن الفقير فتتفر منه قلوبهم» .
- جمل بفلس ، وفلس ما فيه .
- الدمعة بالعين جوهرة .
- «تقديس للدموع» .

- الدنيا يومين يوم إلك ويوم عليك ..
- مصايب الدهر أكثر من نبات الأرض .
- العرق أبيض بالكاس وأسود بالراس .
- الرز بحليب كل ما برد يطيب .
- خلي المشوي ليعرق ، والمعلق ليحرق .
- العتاب على قدر المحبة .
- كل من على دينه الله يعينه .
- الإنسان يجيب عدوه من بطنه .
- «الكلام السيئ مجلبة للأعداء» .
- الصوف للبرد موصوف .
- الله ينجيننا من الحريق ، والغريق ، والقعدة على الطريق .
- إن كنت العدل أنا رباطه .
- ضيف المسا ما له عشا .
- الفزع يطير الوجع .
- «كناية عن المصايب يذهب شديدها بخفيفها» .
- على حجة الورد يشرب العليق .
- كل شيء عادة حتى العبادة .

- أكل ومرعى وقلة صنعة .
- الغربة كربة .
- بيكثر خيره من كيس غيره .
- بده من الدواق ثلاث واق .
- إذا كان الأكل زيتون ، الشبع من أين يكون .
- أرمل أخذ أرملة ، ضيفوا بالعرس خبزة وبصلة .
- على هامان يا فرعون .
- إذا كنت أنت الكيس أنا رباطه .

obeikandi.com

المبحث الثاني

مفاهيم ومصطلحات أنثروبولوجية

لقد وردت مصطلحات أنثروبولوجية عدة في متن الكتاب ولم تأخذ حقها من التوضيح الأمر الذي جعلنا نفردها حيزاً خاصاً تحت هذا العنوان (مفاهيم ومصطلحات أنثروبولوجية). ولا بد من الإشارة إلى أننا اعتمدنا في تبيان مضمون المفاهيم على بعض المعاجم المستخدمة من ميادين الدراسات الاجتماعية ومن أهمها قاموس علم الاجتماع للدكتور (محمد عاطف غيث) وهو الاجتماعي الأنثروبولوجي المعروف، كذلك قاموس الأنثروبولوجيا للدكتور (شاكر سليم).

علم الأركيولوجي (الآثار القديمة): Archaeology

وهو علم يهتم بدراسة الآلات والأدوات ووسائل الإنتاج المختلفة في المراحل التاريخية المتتابعة كما يهدف إلى إعادة البناء في عملية تصورية للحياة الاجتماعية لمجتمعات ما قبل التاريخ.

علم اللغويات: Linguistics

وهو العلم الذي يدرس تحليل اللغات في زمن معين؛ لدراسة نظمها الصوتية وقواعدها ومفرداتها بالاعتماد على اللغة الكلامية، وذلك عن طريق الاستماع إليها خاصة أن مثل هذه اللغات تكون صوتية أي لم تكتب بعد.

ويقوم عالم اللغة بكتابتها عن طريق استخدام رموز دولية في المجتمعات البدائية، كما يهتم هذا العلم بالجانب التاريخي المقارن؛ إذ يدرس العلاقات التاريخية بين اللغات التي يمكن تتبع تاريخها عن طريق وثائق مكتوبة وإن كانت المشكلة تصبح أكثر تعقيداً حين يواجه العالم بلغات قديمة لا تتوافر وثائق مكتوبة لها.

ويتحقق التعاون بين الأنثروبولوجي وعالم اللغويات عن طريق ما يقدمه الأخير للأنثروبولوجي من دراسة للغة وتحليل عناصرها بالنسبة للمجتمع المدروس مما يساعد على دراسة الثقافة دراسة موضوعية.

Cultural Pattern

النمط الثقافي؛

هو ترتيب وتنظيم العناصر أو المركبات الثقافية في وحدة متكاملة، أو أنه تعبير عن عمل أو اعتقاد ما شرط أن يكون مألوفاً لدى عامة الناس مثل نمط الصلاة والصوم في المجتمع الإسلامي كركنين من أركان الإسلام. وترى العلامة الأنثروبولوجية «روث بند كث» أن الأنماط الثقافية هي وحدات تتألف منها الثقافات وأن لها خصائصها المميزة، وتستمد كل ثقافة إطارها ومظهرها العام من هذه الأنماط بشكل يميزها عن غيرها من الثقافات الأخرى.

Cultural trail

السمة الثقافية؛

هي أبسط جزئيات الثقافة التي لا يمكن أن تحلل إلى ما هو أبسط منها من سمات أو عناصر. فمثلاً عندما نقول: (البيت الشعبي) فهو مركب

ثقافي ينظر له أنه مكون من مجموعة عناصر أو سمات ، عند تحليل هذا المركب الثقافي إلى أبسط جزء حيث لا يمكن أن يجزأ ، نسمي ذلك : سمة ثقافية .

وظيفة (الاتجاه الوظيفي): Function Functionalism

١ - الوظيفة هي النتيجة (أو النتائج) المترتبة على نشاط اجتماعي أو سلوك اجتماعي ، وغالباً ترتبط الوظيفة في العلوم الاجتماعية بالأنماط الثقافية ، والبناءات الاجتماعية ، والاتجاهات ، وينظر إلى هذه النتائج في ضوء تأثيرها على بناء الموقف أو النسق ، أو التفاعل بين الأشخاص . ويبدو أن (سبنسر) هو أول من أدخل مصطلح الوظيفة في ميدان العلوم الاجتماعية ، واستعارته من الفزيولوجيا .

ويميل بعض علماء الأنثربولوجيا إلى استخدام مصطلح الوظيفة دون إثارة تساؤلات تتعلق بظروف البقاء أو الاستمرار التي يجب أن تتحقق ، فيقول لينتون LinTon أن وظيفة «مركب السمة» هي محصلة ما تسهم به من أجل استمرار الصيغة الاجتماعية الثقافية ، ويرى (هيرسكوفتس) Herskovits : إن الوظيفة تحاول أن تدرس العلاقات المتبادلة بين مختلف العناصر الصغرى والكبرى في الثقافة ، وهدفها هو التعبير عن وحدة الثقافة من خلال تتبع التداخل بين السمات والأنماط الثقافية ، أما (راد كليف براون) فإنه يقرر أن الوظيفة هي الإسهام الذي يقدمه النشاط الجزئي بالنسبة للنشاط العام ، فوظيفة العادة الاجتماعية الجزئية هي إسهامها في

الحياة الاجتماعية ككل ، ولقد كتب (زاد كلف براون) عن ذلك يقول :
(إنني أميل إلى تعريف الوظيفة الاجتماعية كنشاط اجتماعي محدد بأنها
العلاقة بينه وبين البناء الاجتماعي ، حيث تعمل على استمراره ووجوده ،
وقد أرجع مفهومه عن الوظيفة إلى كتابات «دور كايم» الذي عرّف وظيفة
النظام الاجتماعي أنها «التنظيم بينه وبين حاجات الكائن العضوي»).

٢- وعلى الرغم من أن (مالينوفسكي) لم يكن مهتماً بصفة خاصة
بالإسهامات التي تقدمها الأنماط الثقافية والممارسات الاجتماعية بالنسبة
للحاجات العاطفية والسيكولوجية للأفراد والجماعات إلا أنه اهتم أيضاً
بالطرق التي تعمل من خلالها الثقافة على مواجهة الحاجات التي تفرضها
ظروف الحياة الاجتماعية والبيئة الطبيعية . فالنظرية الوظيفية (كما يقول)
تهدف إلى تفسير الوقائع الأنثروبولوجية في كل مستويات تطورها من
خلال الدور الذي تؤديه داخل النسق الثقافي المتكامل . وهذا على أساس
ارتباط هذه الوقائع أحدها مع الآخر وارتباطها كذلك بالبيئة الطبيعية
المحيطة بها .

٣- ويستخدم علماء الاجتماع مصطلح الوظيفة للإشارة إلى العمليات
الاجتماعية ، والأفعال وبناءات الجماعة ، وطائفة أخرى كبيرة من الظواهر
أوسع نطاقاً بكثير من الثقافة التي تظهر في الاستخدام الأنثروبولوجي ، ولا
يميل كل علماء الاجتماع الذين يستخدمون مصطلح الوظيفة إلى عدّ
أنفسهم متمين إلى الاتجاه البنائي الوظيفي في التحليل . (بارسونز) مثلاً
عد مفهوم الوظيفة بالغ الأهمية من حيث إنه يقدم المحاكات التي نحتكم

إليها في تحديد أهمية العوامل الدينامية والعمليات داخل النسق ، وقد تعرض المفهوم إلى الكثير من التعديل والتنقيح مثلما فعل (ميرتون) Merton عندما فرق بين الوظائف الظاهرة والوظائف الكامنة .

٤- وهناك معنى محدد لمصطلح الوظيفة في علم الاجتماع ، والعبارة التالية تشير إلى الاستخدام الشائع له :

«إن الوظيفة الاجتماعية للدين تتمثل في المحافظة على تماسك الجماعة» .

وتشير الوظيفة هنا إلى نتيجة موضوعية ومشخصة ترتبط بالظاهرة الاجتماعية داخل نسق واسع هي جزء منه ، وتُعد الوظائف الظاهرة نتائجه موضوعية للنسق يعتبر بها المشاركون فيه ، بينما لا تشير الوظائف الكامنة إلى مثل هذه النتائج .

ويُعد التمييز بين الأنشطة التي تسهم في بقاء وتوازن نماذج الأنساق الاجتماعية من ناحية وبين الأنشطة التي تسهم في اضطراب هذه النماذج وتخلخلها من ناحية أخرى ، تمييزاً بين ما يسمى التدعيم أو التعويق الوظيفي ، هكذا يمكن أن نتكلم عن المعوقات الوظيفية الظاهرة والكامنة ، وكذلك المدعمات الوظيفية الظاهرة والكامنة ، مع ذلك فقد توجد بعض الأنشطة المحايدة التي لا تؤدي إلى نتيجة محددة في النسق ؛ ولذلك لا ينظر إليها على أنها مدعمة أو معوقة ، كما أشار إلى ذلك (ويليام جود) في كتابه الدين عند البدائيين سنة ١٩٥١ م .

٥- وقد تستخدم الوظيفة استخداماً رياضياً، بمعنى أننا عندما نقول :
إن الظاهرة الاجتماعية (X) تُعد وظيفة للظاهرة (Y)، فإننا بذلك نعني أن
(X) تتنوع نسبياً مع (Y) وعلى الرغم من ضرورة التمييز بين هذا المعنى
والمعنى السابق إلا أنهما مع ذلك يرتبطان بطريقة أو بأخرى، وهذا يعني أن
الوظيفة كنتيجة للنسق تتضمن أن كل الظواهر الاجتماعية في هذا النسق
تتلاءم وتكون في وضع متكامل؛ ولذلك تتربط كل الظواهر الموجودة في
النسق حتى إن أي تغيير في جانب من جوانبه يستتبع تعديلات في النسق
كله.

٦- هذا وقد عرفت الاتجاهات الوظيفية المبكرة في علم الاجتماع
الحديث من خلال اتجاهين رئيسين ظهرا في عام ١٩٢٠ وفي عام ١٩٣٠.

الأول: يتمثل في التوجيه النظري والمنهجي الجديد لعلماء
الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية سنة ١٩٢٠م الذي نبع من محاولة
(مالينوفسكي) تطويراً متصلاً يؤكد أهمية تحليل المجتمعات البدائية على
أساس النظر في كل منها «ككل اجتماعي ثقافي» والتركيز على دراسة
النظم في ضوء علاقاتها المتبادلة بالنظم الأخرى في المجتمع نفسه وفي
ضوء ما تقدمه من إشباع أو مواجهة الحاجات الأساسية وبخاصة الحاجات
البيولوجية للأعضاء كأفراد وكذلك من إضافة (راد كليف براون) من خلال
استخدامه المماثلة بين الحياة الاجتماعية والحياة العضوية، ومع أنه حاول
الابتعاد عن تأكيد (دور كايم) لما اسماه «بحاجات» الكائن الاجتماعي،
وتحدث بدلاً من ذلك عن الشروط الضرورية للوجود؛ لأنه كان يريد أن

يتجنب التفسيرات الغائية التي تتبنى فكرة وجود أرواح موجهة أو قوى غيبية أسطورية في الحياة الاجتماعية .

ولقد تضمنت كتابات (راد كليف براون) تمييزاً بين الأنثروبولوجيا الاجتماعية أو تحليل شبكة العلاقات الاجتماعية المكونة للبناء الاجتماعي وبين الفزيولوجيا الاجتماعية أو بحث ما يوجد في المجتمع من ظواهر اجتماعية ترابط عند قيامها بوظائفها ترابطاً متبادلاً .

والثاني : يتمثل في الفترة التي شهدت اهتماماً متزايداً في علم الاجتماع بالتصور المجرد للأنساق الاجتماعية . فقد ذهب (باسونز) في كتابه (بناء الفعل الاجتماعي) الذي أخذ في الاتجاه الوظيفي طابعاً علمياً منظماً إلى أن أهمية مصطلح الوظيفة يبدو في إمكانية الربط بين المقولات البناءة في علم الاجتماع ، وهي التي تجعل الباحث يتجنب إعطاء صورة جامدة واستاتيكية عن الأنساق الاجتماعية ؛ ولهذا يقدم المدخل الوظيفي في الأمر معياراً يقيس أهمية العوامل والعمليات ومغزاها وعلاقتها المتبادلة داخل النسق .

ومن الجدير بالذكر أن (بارسونز) بدأ في شرح نظريته كما لو كانت نظرية غائية على الرغم من أن استخدامه للمصطلح كان أكثر تحديداً وأقل تعرضاً بالمقارنة بالاستخدامات المبكرة له ، وهو يقصد بالغائية علاقة الوسائل بالغايات سواء كانت متمثلة في المعوقات الوظيفية التي تقلل من تكامله وفاعليته .

٧- ويمكن تحديد الخصائص المميزة للاتجاه البنائي الوظيفي فيما يلي :

- تصور أو وصف الحدود القائمة بين الأنساق الاجتماعية وغيرها من الأنساق الأخرى ؛ كالنسق الثقافي والنسق البيولوجي ونسق الشخصية .

- التصور أو الوصف المجرد للوحدات البنائية الكبرى في النسق الاجتماعي بشكل يتخطى تاريخها مع التأكيد التام على العلاقات المعيارية القائمة بينها .

- الاهتمام بشروط النسق وتكامله وفاعليته بوصفه نسقاً مجرداً ، ويشتمل التوجيه الوظيفي على كل هذه الخصائص على الرغم من أن أهم الجوانب التي تميز النسق هي فكرة الملزمات أو الضرورات الوظيفية .

وقد اشتقت الملزمات الوظيفية من التجارب التي أجريت على الجماعات الصغيرة ، حيث يشار إلى أربعة أشكال أو أنواع منها هي :
تكيف النسق مع غيره من الأنساق الأخرى ، وتكيفه مع البيئة الطبيعية ، وبلوغ النسق أهدافه ، والإبقاء على ثبات النسق وديمومته وتكامله .

هذا وتشابه الملزمات الوظيفية ولا تتطابق مع فكرة المطالب الوظيفية ، مع أنه ليس هناك تمييز قاطع بين الفكرتين ، إلا أن فكرة المطالب الوظيفية تشير - بوجه عام - إلى تحقيق الشروط الضرورية لوجود النسق ، مثل :
التطبيق الاجتماعي للأعضاء الجدد وطرق توزيع الأدوار بين الأفراد ، وهكذا تدور فكرة الملزمات الوظيفية في مجال أضيق مما تدور فيه فكرة المطالب ؛ مما يجعلها أكثر ارتباطاً بالنظرية البنائية الوظيفية ، فضلاً عن أنها

تستخدم لتحليل شروط ثبات النسق وفاعليته، وليس لتأكيد وجوده أو بقاءه كما هو الشأن بالنسبة للمطالب الوظيفية.

Gemeinschaft

جماعة محلية:

١- الجماعة المحلية هي تصور مثالي يستخدم في دراسة أو تحليل خصائص الأنساق الاجتماعية، والأنساق الاجتماعية (التي توصف نموذجياً بأنها جماعات محلية) هي تلك التي تسيطر عليها الإرادة الطبيعية أو الأساسية، وتوجد هذه الإرادة حينما تقوم الروابط على علاقات تتميز بما يلي: أنها غايات أو أهداف في ذاتها، وأنها تلقائية، ونتاجاً للتفاعل بين المراكز والأدوار، وعلى هذا النحو تعد الأسر، وجماعات الصداقة، والعشائر، وجماعات الجوار القروية، والفرق الدينية، من قبيل الجماعات المحلية.

٢- ولقد اكتسب هذا المصطلح معناه المتخصص في علم الاجتماع عن طريق كتابات (فيرديناند تونيز) (١٨٥٥-١٩٣٦). وهو كأداة تصويرية يشير إلى نموذج مثالي للبناء الاجتماعي وإلى توجيه قيمى، بحيث يتعذر أن نجده متحققاً بصورة المجتمع، حيث يقول عنهما: «إنهما يمثلان النماذج المقابلة له، وهي تدرس الواقع على أساسها وتصفه وتصنفه». على أن فهم المصطلحين يعتمد على فهمنا لمفهوم الإرادة عند (تونيز) ويقول (هيرل): إن العلاقات الاجتماعية عند (تونيز) تعبر عن الإرادة، وتشتمل هذه الإرادة على عناصر هامة في الحياة الاجتماعية، مثل: القيم والغايات،

والمعتقدات، فضلاً عن أسس التدرج الاجتماعي. وتتخذ الإرادة الإنسانية مظهرين أساسيين، هما الإرادة الرئيسة التي تعبر عن النواحي الغريزية العضوية الكامنة وراء النشاط الإنساني كدافع له ثم الإرادة التحكيمية وهي الشكل المعتمد أو القصدي للإرادة، الذي يحدد الشكل الإنساني بالنظر إلى المستقبل. وتسيطر الإرادة الرئيسة على حياة القرويين، وأصحاب الحرف والعامّة.

على حين تكون الإرادة التحكيمية هي الطابع الغالب على أنشطة رجال الأعمال والعلماء وأصحاب السلطة وكل من ينتمي إلى الطبقات العليا في المجتمع.

٣- ويرى (تونيز) أن موضوعي الجماعة المحلية والمجتمع لا يشيران فقط إلى ظاهرة المجتمع الإنساني بل إنهما يعكسان مراحل تطويرية للنمو، فالمجتمع ينبثق حينما ينفصل الأشخاص وتتححر الخدمات من إطار الجماعة المحلية وبخاصة بعد أن تباع وتشتري السلع والخدمات في الأسواق الحرة. ولقد أبدى (تونيز) تفضيله للقيم المرتبطة بنموذج الجماعة المحلية مما جعل بعض الكتاب يفسرون أفكاره عن التطور التاريخي بأنها تمثل نظرية تراجعية، غير أن (تونيز) أنكر هذا الاتجاه، إلا أنه يعترف بإمكان حدوث تطور عكسي.

٤- وقد أشار إلى هذا التقابل الذي حدده (تونيز) بين نوعي العلاقات الاجتماعية لكثير من مفكري القرن التاسع عشر ممن عنوا بنشأة الحضارة الصناعية، وإن كان الكثيرون مالوا إلى القول بأن العلاقات في المجتمع

المحلي تقوضت بفعل التطورات الاجتماعية الحديثة، فالسير (هنري مين) مثلاً، ميز بين المجتمعات التي تقوم على أساس المكانة، والمجتمعات التي تقوم على أساس العقد، كما أن كلاً من (سبنسر) و(دوركاييم) قد أشار إلى مثل هذا التقابل. ويرى عدد من الدارسين في مثل هذا «التعارض» غير مقنع تماماً؛ لأن كل التنظيمات التي تندرج تحت نموذج المجتمع تنطوي على عناصر من نموذج الجماعة المحلية. ومع ذلك (وعلى الرغم من الشواهد الأمبريقية) فإن التقابل أو التعارض بين هذين النموذجين أمر كان له أهمية كبيرة في تاريخ الفكر الاجتماعي.

نظام اجتماعي: Institution, Social

يستخدم في علم الاجتماع مثل استخدامه الإنجليزي الشائع للإشارة إلى كل ما هو ثابت ومقرر في المجتمع. ويتكون النظام من تصور أو مفهوم أو فكرة أو مذهب أو مصلحة أو اهتمام خاص، وهو نموذج لسلوك مقرر ومقبول من قبل الجماعة.

مجتمع قروي: Peasant Society

١- يمكن تعريف المجتمع القروي بأنه: مجتمع فرعي داخل نطاق مجتمع أكبر، ويتميز هذا المجتمع بعدة خصائص هي: الإقامة في الريف، والاقتصاد العائلي، والعائلة هي الوحدة الاجتماعية الأساسية، والمكانة الاجتماعية المنخفضة، والاعتماد الاقتصادي بدرجات متفاوتة على المراكز الحضرية، وبساطة الثقافة، والارتباط بالأرض،

والمجتمع المحلي والتقاليد . ويعتقد بعض الدارسين أن المجتمع القروي كنموذج للمجتمعات الإنسانية يشغل مكاناً وسطاً بين المجتمع القبلي والصناعي والحضري ، ويشترك إلى حدٍّ ما مع هذه المجتمعات في بعض الخصائص .

٢- مصطلح المجتمع القروي مصطلح أوروبي تغيرت معانيه مع التغيرات التي أحدثتها الثورة الصناعية في أوروبا ، ويستخدم علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا مصطلح المجتمع القروي للإشارة إلى نموذج مثالي أو افتراضي للمجتمعات له خصائص معينة ، ففي القرن التاسع عشر اهتم عالم الاجتماع الألماني (توني) بالمجتمع القروي بوصفه مصدراً أطلق عليه مصطلح الجماعة المحلية . وفي عام ١٩١٨م نشر (توماس وزنانيكي) دراستهما الشهيرة بعنوان : (الفلاح البولندي في أوروبا وأمريكا) وهي التي قدما فيها وصفاً تحليلياً لكثير من خصائص المجتمعات القروية في بولندا ، أما (روبرت رد فيلد) الذي استخدم مصطلح (الثقافة الشعبية) فقد أقام تفرقة بين المجتمع القروي وغيره من المجتمعات على أساس أن هذا المجتمع المتوسط متصل : الشعبي الحضري ، ومن ثم فهو يتضمن كافة المجتمعات ، من المجتمعات البدائية البسيطة حتى المجتمعات الحضرية المعقدة . وقد أصبح معظم علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا يستخدمون مصطلح المجتمع القروي بعد أن اكتسبت المجتمعات البدائية الكثير من الخصائص الحضرية .

٣- وهناك استخدامات أخرى لهذا المصطلح (فريوند فيرث) يرى أن مصطلح

المجتمع القروي يشير إلى عدة خصائص أو سمات اقتصادية مثل :
بساطة التكنولوجيا ، والاقتصاد العائلي ، وسيطرة الأعمال الزراعية .

٤- وقد تغيرت الآن تلك الأفكار التي كانت تنظر إلى المجتمعات القروية على أنها مستقلة ومنعزلة ومكتفية ذاتياً ، وحلت محلها وجهة نظر أخرى تنظر إلى هذه المجتمعات على أنها جزء متكامل من مجتمع أكبر ، سواء من الناحيتين الثقافية أو الاقتصادية ، ومن ثم أصبحت دراسة المجتمع القروي تأخذ في اعتبارها العلاقات التاريخية التي تربط هذا المجتمع بالمجتمعات الكبرى .

Social

اجتماعي:

١- يطلق هذا المصطلح بمعناه العام على الكائنات الإنسانية ، ويشير إلى أي سلوك أو اتجاه يتأثر بالخبرة الحاضرة أو الماضية لسلوك أشخاص آخرين ، أو السلوك الذي يتجه نحو الآخرين ، ويربط بعض الدارسين بين مصطلح اجتماعي وبين مواقف لتفاعل الاجتماعي .

٢- وهناك نوع من الخلط بين مصطلحي الاجتماعي والثقافي ، فقد يعرف المصطلح الأول تعريفاً عاماً ، بحيث يصبح ما هو ثقافي مجرد فئة فرعية مما هو اجتماعي ، بينما ينظر إلى مصطلح الثقافي على أنه أشمل من الاجتماعي ، ويميل أصحاب هذا الاتجاه إلى التفرقة بين المصطلحين على أساس أن الاجتماعي يتضمن بالضرورة تفاعلاً ، بينما الثقافي يشير إلى النواحي المعيارية والمعرفية للسلوك أكثر من التفاعل ، وأحياناً يستخدم

مصطلح اجتماعي لكي يعني بعض الاعتبارات الأخلاقية، حيث يعني - دائماً - كل ما يحقق الرفاهية للمجتمع أو لقطاعات معينة منه .

وأخيراً فإن المصطلح الاجتماعي يعني الوعي بمشاعر واتجاهات الآخرين والسلوك المتأثر بهذا الوعي .

Social Act

فعل اجتماعي:

١ - يشير مصطلح الفعل الاجتماعي إلى أي نشاط مهم وموجه نحو هدف ما يصدر عن شخص أو مجموعة أشخاص . وهناك ثلاثة عناصر رئيسة للفعل :

(أ) توقع الاتجاهات .

(ب) النشاط المنظم والموجه وفقاً لتعريف الدور من خلال المعايير الاجتماعية وتوقعات الآخرين .

(ج) الإنجاز الرمزي للهدف .

٢ - وقد استخدم هذا المصطلح في علم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي على السواء على أساس أن الفعل الاجتماعي هو وحدة الملاحظة الأساسية للسلوك الإنساني، ويشير المصطلح إلى عدة دلالات وإن كانت ترتبط بالاستخدام الأساسي له، ويتصور الذين يثبتون نظرية التعلم أن الفعل الاجتماعي يمثل مجموعة أنماط سلوكية متتالية تعبر عن علاقة بين المثير والاستجابة، غير أن هناك وجهة نظر أخرى تذهب إلى أن دراسة الأفعال الإنسانية لا يجب أن تقتصر على مجرد فحص المثيرات

الخارجية للسلوك ودراسة الأخير كاستجابة لها فقط ، وإنما يتعين أيضاً أن نأخذ في اعتبارنا «المعاني» التي يقصد إليها الأفراد في أفعالهم ، وقد حاول (جورج ميد) أن يطور هذا الاتجاه حينما ذهب إلى أن الكائن العضوي يخلق البيئة التي يتحرك فيها ، وهو يرى أنه من الأفضل أن نقصر مصطلح الفعل الاجتماعي على كل سلوك يتضمن تقارباً مع الآخرين وأن يكون موضوعه اجتماعياً بالضرورة .

الأنثروبولوجيا الاجتماعية: Social Anthropology

١- فرع من الأنثروبولوجيا العامة . وقد ظهرت الأنثروبولوجيا العامة حوالي ١٨٥٠م وتطورت حتى أصبحت تضم الأنثروبولوجيا الفيزيائية التي تدرس الخصائص التشريحية للإنسان ومكانته في المملكة الحيوانية ، وعلم آثار ما قبل التاريخ ، والثقافة المادية القبلية ، والفلكلور والعادات وأشكال التنظيم الاجتماعي السائدة في المجتمعات القبلية والرعوية التقليدية ، ويختلف اهتمام علماء الأنثروبولوجيا بهذه الموضوعات ف (أدوارد تايلور) في بريطانيا مثلاً تعددت اهتماماته ، واقتصر (لويس مورجان) في أمريكا على دراسة التنظيم الاجتماعي .

وتركز الأنثروبولوجيا الاجتماعية بحثها بوجه عام على وقائع الحياة القبلية من منظور التفاعل الاجتماعي ، مثل : الدراسة المونوجرافية للأنساق الاجتماعية الخاصة ، والتفسير المقارن لدور النظم في مختلف الأنساق الاجتماعية ، وقد تهتم الأنثروبولوجيا الثقافية بالوقائع نفسها

ولكن من منظور مختلف إلى حد كبير، وتحاول الأنثروبولوجية
السيكولوجية أن تحلل نفس الوقائع من منظور الاعتماد المتبادل بين نماذج
الشخصية والبناء في ثقافات متنوعة، وهناك بالطبع علاقات وثيقة بين
فروع الأنثروبولوجية العامة وخصائص تلك التي تستخدم أطراً متشابهة
لتحليل البيانات التي ترتبط بالأفراد والنظم في المجتمعات المختلفة، ومن
هذه الروابط ارتباط الأنثروبولوجيا الاجتماعية بعلم الاجتماع والعلوم
السياسية والتشريع الاقتصادي... إلخ.

٢- وعلى الرغم من امتداد بحوث الأنثروبولوجيا الاجتماعية إلى
المجتمعات الحديثة ومحاولتها «منافسة» علم الاجتماع بعد التغيرات الهائلة
والمستمرة التي حدثت في المجتمعات البدائية والقبلية التي شكلت ميدانها
الأصلي، إلا أن الطابع الأساسي لها سيظل في اهتمامها بتأثير العادات
على التفاعل الاجتماعي مثلها في ذلك مع اختلاف في المنظور مثل
الأنثروبولوجيا الثقافية والسيكولوجية. وظهر الاهتمام - غالباً - بالعادات
في صورة التحليلات التي توضح أن هناك نوعاً من العقلانية فيما يبدو
أنه غير معقول مثل الأساطير والخرافات والرموز الشعائرية والتقاليد المتبعة
في الاحتفالات... إلخ وفي الوقت نفسه يتزايد الاهتمام في
الأنثروبولوجية الاجتماعية بتطوير مناهج البحث الدقيقة والمقننة التي
تساعد على تقليل دور العامل البشري الشخصي في الملاحظة، وتطوير
استخدام مناهج الإحصاء والتحليل الكمي للبيانات والمعلومات، بما
يضمن الطابع العلمي للبحث على الأنثروبولوجيا من حيث المنهج والنتائج

التي تصل إليها . إلا أن هناك من علماء الأنثروبولوجيا من ينكر هذا الاتجاه ويصر على أنها علم يرتبط بصفة أساسية بالتاريخ أكثر من ارتباطه بأي فرع آخر من العلوم .

٣- وتختلف استخدامات مصطلح الأنثروبولوجيا الاجتماعية اختلافاً واضحاً ويتداخل أيضاً بمصطلحات أخرى ، مثل : الأنثروبولوجيا الثقافية ، والإثنولوجيا ، والإثنوجرافيا ، والواقع أن مصطلح الأنثروبولوجيا الاجتماعية استخدم أساساً في بريطانيا أكثر من الولايات المتحدة . ومن أقدم المناقشات البريطانية لهذا الميدان ما قدمه (فريزر) حين يستخدم المصطلح للإشارة إلى جانب معين من دراسة المجتمع ، ويقول : «إن مجال الأنثروبولوجيا الاجتماعية - كما أفهمه - أو على الأقل (كما أقترح أن يكون) منحصر في دراسة البدايات الأولى من تطور المجتمع الإنساني ، أما (راد كليف بروان) فقد فرق بين الأنثروبولوجيا الاجتماعية والإثنولوجيا ، ويعتقد أن الأنثروبولوجيا الاجتماعية دراسة تسعى إلى صياغة القوانين العامة التي تكمن وراء ظواهر الثقافة ، وتعتمد على الاستقرار والتعميمات التي تكشف عن أسباب وقوع الظواهر وارتباطها ، على حين أن الإثنولوجيا بمنهجها التاريخي قد تدلنا على أن ظاهرة معينة قد حدثت أو يحتمل أن تكون قد حدثت اعتماداً على نوع من «التاريخ الني أو التخمين» ويفرق في هذا الصدد بين الأنثروبولوجيا الاجتماعية وعلم النفس - على نحو ما ذهب (دور كايم) - فالأخيرة تدرس السلوك في علاقته بالفرد بينما الأولى تدرس سلوك الجماعات أو مجموعات من

الأفراد وينتهي (راد كليف براون) من ذلك كله إلى أن الأنثروبولوجيا الاجتماعية تدرس أنساقاً اجتماعياً.

٤- ويعتقد بعض الأنثروبولوجيين أن الأنثروبولوجيا الاجتماعية والأنثروبولوجيا الثقافية متماثلتين من حيث مجال الدراسة، أما الإثنولوجيا فهي الجانب النظري أو التعميمي، على حين تُعد الإثنوجرافيا الجانب الوصفي لهذا العلم، وهكذا، نجد دارساً مثل (تيتيف) يرى أنه لا فرق بين الإثنولوجي والمتخصص في الأنثروبولوجيا الثقافية أو الاجتماعية.

وجدير بالذكر أن (كروبير) يستخدم المصطلحين بمعنى واحد، وأحياناً يستخدم مصطلح الأنثروبولوجيا الاجتماعية الثقافية، ويرى من لا يفرقون بين المصطلحين أن كل السلوك الإنساني الاجتماعي يتأثر بالمعايير الثقافية، وأن الثقافة هي أساس اجتماعي في توزيعها وانتقالها بين أفراد المجتمع.

العملية الاجتماعية: Social Canasation

١- المعنى العام لهذا المصطلح يشير إلى عملية ارتباط الحوادث بعضها ببعض على أساس السبب والنتيجة، ومعنى ذلك أن هناك رابطة ثابتة بين الأحداث، وأن هناك حدثاً معيناً يسبق الآخر، ومن ثم فإن الارتباط بين الأحداث يمكن أن يعبر في قضايا وقواعد عامة.

٢- وقد يستخدم المصطلح في علم النفس والتاريخ وعلم الاجتماع بمعنى غائي، فالسبب الذي يكمن وراء أفعال معينة يقصد منها تحقيق أهداف معينة، قد يتمثل في هدف مرغوب فيه من جانب الفرد أو الجماعة.

٣- وهناك اتجاهات مختلفة في تحليل العملية الاجتماعية، فبعض النظريات تذهب إلى أن ظروفًا معينة تعد كافية للحياة الاجتماعية، ومعنى ذلك أنه يمكن تفسير الظواهر الاجتماعية في ضوء سبب واحد مثل: التفسير الاقتصادي الماركسي، والتفسيرات الثقافية والسيكولوجية التي تتخذ صورة الحتميات، وعلى الرغم مما أسهمت به هذه التفسيرات، إلا أن التحليل السوسيولوجي يتجه الآن إلى تبني فكرة تعدد الأسباب نظراً لتعدد وتداخل الظواهر الاجتماعية، بل هناك محاولات تستهدف تحاشي مصطلح السبب واستبداله بمصطلح آخر هو مصطلح الوظيفة، وهنا تفسر الظواهر على أساس ما تؤديه من أدوار في الحياة الاجتماعية أو ما تشعبه من حاجات ومطالب للمجتمع.

Social Control

ضبط اجتماعي:

١- يستخدم مصطلح الضبط الاجتماعي للإشارة إلى أن سلوك الفرد وأفعاله محدود بالجماعات، وبالمجتمع الكبير الذي يُعد عضواً فيه، أما الوسائل التي تحقق امتثال الأفراد لقواعد المجتمع فهي ميكانيزمات ذات طبيعة اجتماعية.

٢- ومن أقدم تعريفات الضبط الاجتماعي التعريف الذي قدمه (روس)، الضبط الاجتماعي هو السيطرة الاجتماعية المقصودة التي تؤدي وظيفة معينة في المجتمع، ويقول (بارك وبيرجس): إن «كل المشكلات الاجتماعية تتحول في النهاية إلى مشكلات تتعلق بالضبط الاجتماعي»،

والواقع أن هذا الاستخدام أصبح بعد ذلك يتضمن بعداً اجتماعياً - نفسياً ، فقد تصور (جورج هربرت ميد) أن الضبط الاجتماعي يستند أساساً إلى بناء الذات ، حيث يعتمد على درجة تقبل الفرد لاتجاهات من يشاركونه الأنشطة الاجتماعية في الجماعة .

٣- هناك دراسات للضبط الاجتماعي تربطه ربطاً وثيقاً بالثقافة ، وتجعل من العسير دراسة الضبط الاجتماعي بعيداً عن علم اجتماع الثقافة ، ومثال ذلك أن الضبط هو مجموع الأنماط الثقافية التي يعتمد عليها المجتمع ككل في ضبط التوتر والصراع ، وقد اهتمت هذه الدراسات أيضاً بمعالجة ميكانيزمات الضبط الاجتماعي .

٤- والضبط وسيلة اجتماعية أو ثقافية تفرض عن طريق قيود منظمة ومستقلة نسبياً على السلوك الفردي ، بهدف التوصل إلى مسايرة الفعل للتقاليد وأنماط السلوك ذات الأهمية في أداء الجماعة (أو المجتمع) لوظيفتها على نحو مستقر ، وقد تعتمد الصورة الأساسية للضبط الاجتماعي على موافقة الفرد أو تأييده لمستويات السلوك التي حددتها المعايير وتوقعات الدور بوصفها صائبة أو ملائمة ، وبناء على ذلك فإن عملية التنشئة الاجتماعية واستدماج المعايير الاجتماعية والقيم توفر المصدر اللازم للضبط الاجتماعي الإيجابي ، والضبط الاجتماعي قد يكون إيجابياً أو سلبياً ، وفي كلتا الحالتين يمكن أن يكون رسمياً أو غير رسمي ، وينطوي الضبط الاجتماعي الرسمي على أنساق السلطة والقوانين والقواعد واللوائح التنظيمية التي تحدد المكافآت .

(تنظيم الجزاءات الإيجابية كالشهادات والدرجات العلمية والجوائز والميداليات والمكافآت المالية) أو العقوبات (كالجزاءات السلبية المنظمة، التي تتمثل في الإعدام أو الحبس أو الطرد) وهذا في مقابل الامتثال أو المخالفة، ويمكن أن يكون الدين المنظم في هذا الصدد من العوامل التي تسهم في نسق الضبط الاجتماعي الرسمي، ويكتشف الضبط الاجتماعي غير الرسمي في صور مختلفة كالرأي العام والموضه، وتفرضه الجزاءات غير الرسمية كالثناء أو السخرية.

٥- وقد عرف المصطلح في كثير من الأحيان على أساس أن هدف الضبط الاجتماعي يتمثل في النظام، وفي تدعيم القيم الاجتماعية وعدم الاستغلال أو الاحتكار، أو إحراز المكاسب الذاتية التي قد يحظى بها من هم في مراكز القوة. على أنه ينبغي ملاحظة أن قيم المجتمع قد تعكس احتياجات الطبقة الحاكمة، أو الصفوة، أو أية جماعة ثقافية أو عنصرية سائدة؛ ولذلك، قد يكون الضبط الاجتماعي موجهاً نحو تدعيم المصالح الخاصة.

Social Cohesion

تماسك اجتماعي:

مصطلح ليس له معنى متفق عليه بوجه عام، ويستخدم في أغلب الحالات بطريقة غير رسمية ليشير إلى المواقف التي يرتبط فيها الأفراد بعضهم مع بعض بروابط اجتماعية وثقافية عامة، والتماسك عامة صفة تطلق على الجماعات الصغيرة حين تعمل على اجتذاب أعضائها وتدفعه

إلى الاحتفاظ بعضويتهم فيها .

وهناك استخدام آخر أقل تحديداً يشتق من كتابي (دور كايم) تقسيم العمل الاجتماعي سنة ١٨٩٣م ، فقد ذهب (دور كايم) إلى أن درجة التماسك الاجتماعي خاصة في الجماعات والتنظيمات والمجتمعات تؤثر بوضوح في أنماط سلوكية مثل الانتجار ، ويستخدم بعض العلماء المصطلح للإشارة إلى الجماعة الصغيرة أو الكبيرة التي تكشف عن ثلاثة خصائص أساسية هي : ارتباط الأفراد بمعايير وقيم عامة ، والاعتماد والتبادل بين الأفراد الذي يكون نتيجة لمصالح مشتركة ، ثم توحد الأفراد بالجماعة ، وقد عرف (إنزبوني) التماسك بأنه علاقة إيجابية معبرة بين فاعلين أو أكثر غير أن هذا التعريف يتجنب عن عمد استخدام مصطلح الجماعة ، مع أن التماسك نفسه غالباً ما يكون خاصية مميزة للجماعات ، ولم يتضمن أيضاً الإشارة إلى قيم وأهداف مشتركة ، بل يكتفي بالإشارة إلى معايير عامة تحدد ظروف وشروط العلاقة بين الأفراد .

Social Evolution

تطور اجتماعي؛

مفهوم (أو تصور) يتضمن في الأصل فكرة أن كل المجتمعات تمر بمراحل محددة؛ ذلك في انتقالها من الشكل البسيط إلى الشكل الأكثر تعقيداً، كما يتضمن - في أغلب الأحيان - نوعاً من المماثلة بين نمو الكائن الحي وتطور المجتمع الإنساني ، واشتمل بصفة خاصة على فكرة أن التخصص المتزايد للوظائف أمر يصاحب التطور المتزايد للبناء .

غير أن هذا التصور امتد فيما بعد ليشمل عملية التغير التدريجي الذي يحدث في كل المجتمعات عندما تتغير وظائف نظم معينة أو عندما يعاد تحديد الأدوار فيها؛ ولكنه مع ذلك لا يعني أن كل المجتمعات لابد وأن تمر بنفس المراحل من التغير، ولذلك يبدو من الأفضل في تصورنا أن نحدد مصطلح التطور الاجتماعي في الفكرة الأولى وعندئذ يشار إلى معنى الأخير على أنه عملية للتغير الاجتماعي.

هذا وعلى الرغم من أن (أرسطو) كان واعياً تماماً بعملية التغير الاجتماعي وأشار إلى تطور وانحلال الأبنية الاجتماعية، وعلى الرغم من أن (أفلاطون) أيضاً قد وضع في اعتباره احتمالات تغيير التشريع للظروف الاجتماعية السائدة إلى أن أصول هذا التصور بالمعنى المشار إليه في الفقرة الأولى قد ظهرت في مرحلة متأخرة عنهما بكثير.

وقد ترجع الأصول المبكرة لهذا المصطلح إلى كتابات (توماس هوبز) عندما تصور التنظيم الاجتماعي للمجتمعات المتوحشة على أنه يماثل التنظيم الاجتماعي للأسلاف الأوائل والمجتمعات المتمدنة أو الغربية.

كذلك طورت كتابات مدرسة الفزيوقراط في القرن الثامن عشر بفرنسا نظرية مراحل التطور الاجتماعي، فقد ذهب (مونتسكيو) في كتابه روح القوانين ١٤٧٨م إلى أن البيئة الجغرافية هي التي تحدد الشكل المثالي أو النموذجي لأي نظام في أي مجتمع، وذهب (دافيد هيوم) إلى أن العوامل السيكولوجية هي التي تسيطر على العمليات الاجتماعية، وأن التطور

يحدث من الغريزة عبر الإحساس والانفعال إلى العقل .

أما (أوجست كونت) فقد ذهب بعد استعراض وتركيب أعمال كثيرة من المفكرين الذين سبقوه، واستعراض الصور الثقافية المختلفة والمتنوعة إلى أن المجتمعات تمر بمراحل ثلاثة متميزة: مرحلة بدائية هي المرحلة اللاهوتية، مرحلة انتقالية هي المرحلة الميتافيزيقية، ثم المرحلة الوضعية العلمية، والمجتمع في نظر (كونت) عبارة عن كائن حي اجتماعي يتصف بانسجام البناء والوظيفة، ويتميز التقدم في رأيه بتزايد تخصص الوظائف، وبالتالي بالميل أو الاتجاه المصاحب نحو التوافق التام للأعضاء، كذلك ذهب (سبنسر) إلى أن هناك في الحياة الاجتماعية تغيراً من الأشكال البسيطة إلى المركبة، ومن المتجانس إلى غير المتجانس، ويحدث على مستوى المجتمع نوع من التكامل بالنسبة لكل نوع من التمايز بالنسبة للأجزاء، وهذا وفي الوقت الذي تصور فيه (كونت) المجتمع على أنه كائن حي اجتماعي وجد (سبنسر) عدداً من وجوه التباين بين ما هو عضوي وما هو اجتماعي ولم يتصور المجتمع أكثر من أنه يماثل الكائن الحي .

وقد اهتم علماء القرن التاسع عشر بجوانب التطور الاجتماعي ومظاهره فذهب سير (هنري مين) مثلاً في كتابه القانون القديم ١٨٦١م فطور فكرة (باخوفن) وحدد مراحل مختلفة لتطور أشكال الأسرة من الإباحية الجنسية إلى الزواج الوحداني، وهي المراحل التي يرى أن كل المجتمعات لابد من أن تكون قد مرت عليها بالضرورة. أما (تايلور) فقد ربط في كتابه «الثقافة البدائية» ١٨٧١م هذا الإطار التطوري العام

بملاحظات مختلفة من مجتمعات عديدة، وحاول أن يتتبع مراحل الأشكال الدينية، وتابعه في هذا الاتجاه (جيمس فريزر) في كتابه «الغصن الذهبي» سنة ١٨٩٠م (دوركاييم) في كتابه «الأشكال الأولية للحياة الدينية» سنة ١٩١٢.

Social Movement

حركة اجتماعية:

١- يشير مصطلح الحركة الاجتماعية إلى الجهد الملموس والمستمر الذي تبذله جماعة اجتماعية معينة من أجل الوصول إلى هدف أو مجموعة أهداف مشتركة.

ويتجه هذا الجهد نحو تعديل أو تغيير أو تدعيم موقف اجتماعي قائم، على أن هذا التعريف لم يتناول مسائل مثل درجة التنظيم في الجماعة، أو وضوح الأهداف، وهذه المسائل تختلف من حركة اجتماعية إلى حركة اجتماعية أخرى.

٢- وقد أسهم (بلومر) في مناقشة مصطلح الحركات الاجتماعية من خلال دراسة السلوك الجمعي، فالحركات الاجتماعية عنده مشروعات جماعية تستهدف إقامة نظام جديد للحياة، وتستند إلى إحساس بعدم الرضا عن النمط السائد والرغبة في إقامة نسق جديد، والحركات الاجتماعية تحتاج إلى نموذج معين للتنظيم كما تستند إلى عادات وتقاليد وقيادة ومجموعة قيم وأدوار اجتماعية؛ وقد صنف (بلومر) الحركات الاجتماعية إلى: الحركات الاجتماعية العامة مثل: حركة العمل،

والحركات الاجتماعية الخاصة مثل : الحركة ضد نظام العبودية ، والحركات الاجتماعية التعبيرية مثل : الحركات الدينية ، ويعتقد (بلومر) أن استخدامات مصطلح الحركات الاجتماعية قد ركزت على الاتجاه السياسي وعلى تاريخ هذه الحركات .

Social Organization

تنظيم اجتماعي:

١- لهذا المصطلح تاريخ طويل في الكتابات الأنثروبولوجية ، ويستخدم أحياناً كمرادف لمصطلحات أخرى مثل : البناء الاجتماعي ، والنظام الاجتماعي العام ، النمط الاجتماعي ، وكل العبارات الأخرى التي تشمل نوعاً من الترتيب المنظم . وقد بذلت في القرن العشرين وحده جهود لتحديد المصطلح أكثر من ذلك .

٢- أما أقدم استخدامات المصطلح فهي التي تشير إلى «أن الفهم الكامل للتنظيم الاجتماعي عن شعب من الشعوب يمكن أن يتحقق فقط بعد دراسة كاملة للنظم والوظائف التي تؤديها التجمعات الاجتماعية لديه» ثم كتب (لوي) عن التنظيم بالمعنى العام نفسه بعد ثلاثين عاماً ، «إن دراسة التنظيم الاجتماعي تناول أساساً التجمعات الرئيسة للأفراد» كذلك تحدث (ريفرز راد كليف براون) في دراستهما النظرية الهامة في الأنثروبولوجيا الاجتماعية عن التنظيم بهذه الطريقة ولم يبذلا أي جهد للتفرقة بينه وبين البناء الاجتماعي .

٣- وعلى العكس من هذه الكتابات نلاحظ أن (مالينوفكسي)

يستخدم المصطلح في وصف الطريقة التي ينظم بها أعضاء المجتمع البيئة المادية التي يعيشون فيها لكي تشبع حاجتهم العضوية والنفسية والاجتماعية، وهو في ذلك متأثر بالكتابات السوسيولوجية أكثر من الكتابات الأنثربولوجية، أما (ماكس فيبر)، فهو على سبيل المثال - يستخدم مصطلح التنظيم للإشارة إلى نسق من الأنشطة الهادفة المستمرة ذات الطبيعة الخاصة التي ترتبط بالجماعات الثقافية وبأبعادها الإدارية .

٤- وقد استخدم المصطلح استخداماً آخر في مقال نشره (بروان وبارنت) عام ١٩٤٢، فلاحظ المؤلفان أن استخدام مصطلحي التنظيم الاجتماعي والبناء الاجتماعي في الكتابات الأنثربولوجية المعاصرة، استخدام غير محدد، وأنه يتعين أن يستخدم المصطلحان استخداماً مترادفاً، ومع ذلك فإنهما في الفترة نفسها اقترحا التعريف التالي للتنظيم الاجتماعي: «يشير التنظيم الاجتماعي إلى أنساق علاقات الالتزام التي تسود بين الجماعات وداخلها في مجتمع معين، على حين يشير البناء إلى وضع الأفراد والجماعات داخل هذه الأنساق» .

وفي عام ١٩٤٠ عقد (راد كليف براون) مقابلة بين مفهومي التنظيم الاجتماعي والبناء الاجتماعي، الذي يشير إلى نسق من الأشخاص يشغلون أوضاعاً ترتبط بعضها ببعض، ففي الوقت الذي تتصل فيه مباشرة بتنظيم اجتماعي أو نسق للأدوار يخضع لقواعد وضوابط اجتماعية، يرى (ريموند فيرث) أن التنظيم الاجتماعي يشير إلى الترتيبات الفعلية في المجتمع، أي عملية ترتيب الأفعال وانتظام العلاقات من أجل أهداف اجتماعية .

٥- أما بين علماء الاجتماع فإن مصطلح التنظيم يشير إلى بناء وعملية في الوقت ذاته، فهو كبناء يقصد به أي نمط مستقر للعلاقات المتبادلة بين الأجزاء المكونة بحيث يشكل كلاً له خصائص لا توجد في الأجزاء المستقلة. وعملية يشير إلى طريقة تكوين هذه الوحدات الكلية، والتنظيمات الاجتماعية على هذا النحو تؤدي وظائفها بصورة أكثر كفاءة من الأشخاص الذين لا يربطهم هذا التنظيم، والمجتمع ككل يمكن فهمه كنسق معقد من التنظيمات.

بناء اجتماعي؛ Social Structure

١- استخدم (سبنسر) وغيره من علماء الاجتماع المعاصرين هذا المصطلح للإشارة إلى نوع من الترتيب بين مجموعة نظم يعتمد بعضها على بعض، وتُعد وحدات البناء الاجتماعي هي ذاتها بناءات فرعية، والافتراض الأساسي هنا هو أن التكامل أو بقاء الكل يتوقف على العلاقات بين الأجزاء وأدائها لوظائفها.

وعلى العكس من هذا التصور العام للبناء الاجتماعي هناك التصور الذي قدمه علماء الاجتماع التحليليون (أو علم الاجتماع الصوري عند «فون، وبيكر، وهيلر) ومؤداه: أن البناء الاجتماعي:

(أ) ترتيب للأوضاع أو المركز.

(ب) أو شبكة من العلاقات بين الأشخاص أو الفاعلين.

وهكذا يتكون بناء المجتمع أو تنظيمه من مراكز مثل: المهن والتطبيقات

والتوزيع العمري والجنس ، ويتقرب تصور (فيرث) من ذلك ، «فالبناء الاجتماعي الذي يدرسه علماء الأنثروبولوجيا يتضمن علاقات أساسية تنشأ عن النسق الطبقي وعضوية الجماعات الدائمة، مثل : العشائر، والطوائف، وطبقات العمر أو المجتمعات السرية، وثمة علاقات أخرى ترجع إلى الأوضاع التي يشغلها الناس في النسق القرابي».

ويبدو أن التصور العام للبناء الاجتماعي مستعار من الفيزياء البيولوجية ومورفولوجيا الحيوانات والنباتات . وجدير بالذكر أن المماثلة العضوية التي قدمها (هربرت سبنسر) بين المجتمع والكائن العضوي قد أسهمت في نشر وتوضيح مصطلح البناء الاجتماعي .

أما التساؤلات الخاصة بالبناء فتشمل :

(أ) كيف نشأ البناء الاجتماعي وحقق تكامله؟

(ب) ما هي مكونات البناء ووحداته الأساسية؟

(ج) كيف يحدث تكامل بين هذه الوحدات؟

ومن المعروف أن مفهوم البناء الاجتماعي في الاستخدامات السوسيولوجية يطبق على الجماعات الصغيرة والمجتمعات الكلية .

٢- ويحتل هذا المصطلح أهمية مركزية في المدخل الوظيفي البنائي في الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية، وغالباً ما يستخدم في الأنثروبولوجيا عامة كمرادف «لتنظيم الاجتماعي»، كما يستخدم بصفة خاصة في تحليل نظم القرابة والنظم السياسية والقانونية في المجتمعات

البدائية، غير أنه ربما (فيرث) يميز بين البناء الاجتماعي والتنظيم الاجتماعي على أساس أن التنظيم الاجتماعي يشير إلى الاختيارات والقرارات المتضمنة في العلاقات الاجتماعية والواقعية، بينما يشير البناء الاجتماعي إلى العلاقات الاجتماعية والجوهرية التي تعطي للمجتمع صورته الأساسية والتي تحدد مجريات الفعل الاجتماعي. أما (فورتس) فيرى أن المصطلح ينطبق على كل الترتيبات المنظمة للكياليات المتميزة. كالنظم والجماعات والمواقف والعمليات والأوضاع الاجتماعية، ولكن (إيفانز بريتشارد) في كتابه «النوير» سنة (١٩٤٠) يقتصر المصطلح على العلاقات التي تقوم بين الجماعات، في الوقت الذي يركز فيه (ليتش) وكتابه عن مجموعة الأفكار التي تتعلق بتوزيع القوة بين الأشخاص والجماعات.

٣- وقد استخدم المصطلح منذ ظهوره في كتابات (راد كليف براون) ليحقق أهدافاً ثلاثة:

أولاً: تمييز الوصف أو التفسير الذي يتم في نطاق الثقافة عن ذلك التمييز أو الاختلاف الأساسي بين الأنثروبولوجيا الاجتماعية في بريطانيا والأنثروبولوجيا الثقافية في أمريكا.

ثانياً: عزل بعض المبادئ الصورية والكامنة عن مضمون العلاقات الاجتماعية.

ثالثاً: تمييز البناء عن الوظيفة، بمعنى تمييز أشكال وصور العلاقات الاجتماعية عن آثارها ونتائجها.

وبناء على ذلك يلاحظ أن (راد كليف براون) على العكس من (مالينوفسكي) الذي تبني نظرة أكثر عمومية للثقافة، حيث تشمل على الثقافة المادية والقيم والمعايير وجوانب السلوك الواقعي، يميز ثقافة المجتمع عن بنائه الاجتماعي على أساس أن ثقافة المجتمع تمثل أنماط السلوك المقررة والمقننة بينما يتكون البناء الاجتماعي الكلي من العلاقات الاجتماعية التي تقوم بين جميع الأفراد في لحظة زمنية معينة، ويميل بوجه عام علماء الأنثروبولوجيا الثقافية في أمريكا إلى تبني نظرة واسعة للثقافة تشبه إلى حد كبير نظرة (مالينوفسكي) وبالتالي فهم - على العكس من (راد كليف براون) - يعطون الأولوية للثقافة بدلاً من الإطار البنائي المرجعي، ومن أمثال هؤلاء (ميردوك وروبرت لوي).

ب- إن الاستخدام الشائع لمفهوم البناء الاجتماعي في الأنثروبولوجيا الاجتماعية البريطانية يشير إلى مجموعة المبادئ الكامنة في العلاقات الاجتماعية وليس المضمون الفعلي أو الواقعي لها، وقد انتشر هذا الاستخدام تحت تأثير كتابات (راد كليف براون) التي يميز فيها بين الصورة البنائية والبناء الواقعي.

فالبناء الاجتماعي في نظره عبارة عن حقيقة إمبيريقية موجودة في لحظة زمنية معينة، أما الصورة البنائية فهي تجريد لهذه الحقيقة يقوم به الباحث ويستمر فترة وليس مجرد لحظة من الزمان، ويميل علماء الأنثروبولوجيا الاجتماعية المحدثون من أمثال: (فورتس، وريفانز ريتشارد، وريمون فيرث، ونادل) إلى استخدام مصطلح البناء الاجتماعي انطلاقاً من تحديد

المبادئ البنائية الكامنة في أي تكوين معين للعلاقات الاجتماعية، (ففورس) مثلاً يرى أن العملية الهامة في هذا الصدد ليست تحديد الأجزاء وتحديد علاقاتها المتبادلة، بل تحديد المبادئ التي تحكم الترتيب البنائي والقوى التي تدعمه.

ج- إن التمييز بين مصطلح البناء ومصطلح «الوظيفة الاجتماعية» جعل (راد كليف براون) ينتقل من فكرة البناء الاجتماعي الكلي (المجتمع) إلى فكرة البناء الفرعي أو إلى مجموعة خاصة من العلاقات الاجتماعية، فالبناء الفرعي تكون له وظيفة إذا أسهم في حفظ الاستمرارية البنائية للنسق الكلي.

نسق اجتماعي؛ Social System

يتكون النسق الاجتماعي - بصفة أساسية - من شخصين أو أكثر يتفاعلان بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في موقف مشترك، وقد تكون هناك حواجز مكانية أو طبيعية، إلا أن الأفراد يتوجهون - بالمعنى الواسع - نحو مركز مشترك أو نقطة ذات ارتباط متبادل. كذلك فمن غير المناسب أن تُعد المجموعات المتنوعة العلاقات كالجماعات الصغيرة أو الأحزاب السياسية أنساقاً اجتماعياً؛ لأن الأنساق الاجتماعية تكون دائماً أنساقاً مفتوحة تتبادل المعلومات مع الأنساق الأخرى كما تعمل بوضوح اتفاقاً معها.

ويمكن تتبع التصورات الحديثة للمصطلح في أعمال علماء اجتماع

القرن التاسع عشر من أمثال : (أوجست كونت) و(كارل ماركس) و(هربرت سبنسر) و(إمل دوركايم) ، فقد استطاع كل منهم أن يقدم بصورة أو بأخرى تصورات متقنة ودقيقة للوحدات الكبرى للأنساق الاجتماعية والعلاقات التي تقوم بينها ، وقد كانت الوحدات الكبرى للأنساق الاجتماعية والعلاقات التي تقوم بينها ، وقد كانت الوحدات الكبرى أو مقومات المجتمعات الرأسمالية التي اهتم بها (ماركس) هي الطبقات الاجتماعية والاقتصادية التي تعكس العلاقة القائمة بينها القوة الاقتصادية والسياسية ، وربما كان أكثر التصورات تأثيراً وانتشاراً لمصطلحات النسق الاجتماعي هو الذي طوره (تولكوت بارسونز) في كتابه (بناء الفعل الاجتماعي) سنة ١٩٣٧ ، حيث اتخذ اهتمامه بموضوع النسق الاجتماعي اتجاهين أساسيين : الأول أسماه مشكلة النظام الاجتماعي العام ، أي طبيعة القوى التي تؤدي إلى أشكال ثابتة نسبياً من التفاعل والتنظيم الاجتماعي ، وهنا يتابع (ماكس فيبر) و(دوركايم) في تأكيدهما على وظائف العوامل المعيارية في الحياة الاجتماعية مثل : القيم والمثل العليا .

أما الاتجاه الثاني فهو محاولة جعل علم الاجتماع أكثر علمية ودقة ، وذلك بتطوير تصورات مجردة عن النسق الاجتماعي ، ويذهب (بارسونز) إلى أن (فيبر) رغم تأكيده على العوامل المعيارية كموجهات للفعل ، إلا أنه لم يقدم صياغة محددة عن نسق كلي للفعل متكامل من الناحية النظرية .

ولذلك كانت محاولة (بارسونز) ربط تصور «الفاعلين» في المواقف الاجتماعية بالنظرة الخارجية والكلية المجردة للعوامل الكبرى في إطار

واحد أحد إسهاماته من أجل تصور متكامل للنسق الاجتماعي ، وعموماً فإنه من المتفق عليه بين علماء الاجتماع أنه لا بد من أن نحدد بدقة ما الذي يكون النسق الاجتماعي ، وهو الذي لا يقتصر في نظر الكثيرين على المواقف التي ترتبط بينها معايير نظامية ، بل لا بد من أن يشتمل على مركز توجيهي مشترك ، ومجموعة من الأساليب تحدد طريقة الاتصال بين أغلب الفاعلين . ومن المتفق عليه أيضاً ضرورة التمييز بين الأنساق الاجتماعية والثقافية وأنساق الشخصية على الرغم من أن مصطلح النسق الاجتماعي قد يستخدم في كثير من الأحيان بمعنى يشتمل على هذه الأنواع ، ولكن إذا كان نسق الشخصية يشير إلى جوانب الشخصية التي تؤثر في أداء الفرد لوظائفه الاجتماعية ، فإن النسق الثقافي يشتمل على المعتقدات الفعلية والأنساق الملموسة للقيم والوسائل الرمزية للاتصال ، ويشير النسق الاجتماعي إلى أنماط التفاعل والتنظيم مثل : بناء السلطة في تنظيم ما وتقسيم العمل في الأسرة ووظائفها المختلفة .

تراث (تقاليد): Tradition

١ - يطلق هذا المصطلح (تراث) على انتقال بعض المعتقدات وأنماط السلوك والأنشطة من جيل إلى جيل آخر . وقد يستخدم مصطلح التراث بمعنى الثقافة أو كعنصر ثقافي ينتقل عبر الزمان ويحقق درجة من الدوام والاستمرار ، والتراث قد يكون شفاهياً ، أو تراثاً شعبياً ، أو رواية شعبية ، وبالنسبة للنظم الاجتماعية ينتقل التراث عن طريق عمليات التنشئة الاجتماعية حيث يكتسب الطفل العرف وأنماط السلوك المعتادة من

الأسرة، والمدرسة، وجماعة الرفاق .

٢- وقد يطلق المصطلح أيضاً على بعض العناصر الثقافية التي تنتقل من جيل إلى آخر، وهنا يستخدم المصطلح بمعنى التقليد (Tradition) أنماط السلوك المقننة التي تنتجها الجماعة، وتعمل على تدعيم تماسكها ووعيتها بذاتها، كما تحظى بالقبول من جانب الأعضاء .

قيمة (اجتماعية): Value (Social)

١- القيمة كمصطلح عام في العلوم الاجتماعية قد تعني أي موضوع أو حاجة، أو اتجاه، أو رغبة، ويستخدم المصطلح في معظم الحالات حينما تظهر علاقة تفاعلية بين الحاجات والاتجاهات والرغبات من جهة، والموضوعات من جهة أخرى، كما أنه يعني: (دائماً في علم الاجتماع والأنثروبولوجيا) المستويات الثقافية المشتركة التي نحتكم إليها في تقدير الموضوعات والاتجاهات الأخلاقية أو الجمالية أو المعرفية، وهناك اعتقاد بين من يشاركون في هذه المستويات بأنها صادقة وأنه يتم الاعتماد عليها في تقييم الموضوعات .

٢- والواقع أن دراسة القيم هي دراسة فلسفية الأصل، ويصدق ذلك بصفة خاصة على المحاولات التي استهدفت تحديد صدق القيم أو صحة المستويات التي نحتكم إليها، ولم يكن يتصور من يهتمون بهذه المسألة أنها يمكن أن تحسم أمبريقياً، ومن أقدم التعريفات للقيمة والاتجاه تعريف (توماس وزنانيكى) في مؤلفهما الشهير (الفلاح البولندي)، فهما يذهبان

إلى أن القيمة الاجتماعية تعني أي معنى ينطوي على مضمون واقعي ،
وتقبله جماعة اجتماعية معينة ، كما أن لها معنى محدداً حيث تصبح في
ضوئه موضوعاً معيناً ، أو نشاطاً خاصاً ، أما الاتجاه فهو عملية الوعي
الفردية التي تحدد النشاط الواقعي للفرد ، إنه النشاط المحتمل في العالم
الاجتماعي . . . فالاتجاه إذن هو الجانب الفردي للقيمة الاجتماعية ،
والنشاط أيّاً كانت صورته هو الرابطة بينهما . غير أن (توماس) يعرف
الاتجاه والقيمة بطريقة بسيطة ، فالاتجاه هو الميل نحو الفعل ، حيث يمثل
رغبة أو حافزاً ، أما القيمة فتعبر عن موضوع الفاعل أو هدفه ، وقد حاول
(توماس) بعد ذلك أن يربط بينهما في عبارة «الاتجاه نحو القيمة» .

٣- ومن التعريفات الهامة للمصطلح أيضاً تعريف (كلاكهون)
C.Klukhohn فالقيمة هي تصور واضح أو مضمّر يميز الفرد أو الجماعة ،
ويحدد ما هو مرغوب فيه بحيث يسمح لنا بالاختيار من بين الأساليب
المتغيرة ، والوسائل ، والأهداف الخاصة بالفعل .

المصادر

- (١) أحمد أبو زيد، المجتمع القديم عند لويس مورجان.
- (٢) أحمد أبو زيد، تايلور.
- (٣) أحمد أبو زيد، التطورية الاجتماعية.
- (٤) أحمد أبو زيد، المرأة والحضارة،
- (٥) د. آمال عبدالرحيم، الطلاق مشكلة أم حل؟
- (٦) د. بيليم، الأصول البشرية، ترجمة فاروق مصطفى إسماعيل.
- (٧) بندلي صليبا الجوزي، دراسة في الفقه والتاريخ الاقتصادي عند العرب.
- (٨) تيار تشاردن، ظاهرة الإنسان، ترجمة: ندره يازجي.
- (٩) جان روتان، الإنسان، ترجمة: محمد عبدالرحمن مرجبا.
- (١٠) الفلكلور في العهد القديم، ترجمة: د. نبيلة إبراهيم.
- (١١) جون لويس، الإنسان والارتقاء، ترجمة: عدنان جاموس.
- (١٢) د. جورج بالنديه، الأنثروبولوجيا السياسية، ترجمة: غسان زيادة.
- (١٣) جيرار لكلرك، الأنثروبولوجيا والاستعمار، ترجمة: د. جورج كتوره.

- (١٤) د. حسين فهميم ، قصة الأنثروبولوجيا .
- (١٥) راد كليف براون ، سكان جزيرة الأندمان .
- (١٦) رينيه غروستين ، جنكيز خان قاهر العالم ، ترجمة : خالد أسعد عيسى .
- (١٧) زكريا فهمي ، طبيعة الإنسان .
- (١٨) زكي محمد إسماعيل ، الأنثروبولوجيا والفكر الإسلامي .
- (١٩) سيمون إبراهيم حمصي ، الحكم والأمثال الشعبية .
- (٢٠) شاكر سليم ، قاموس الأنثروبولوجيا .
- (٢١) د. عدنا مسلم ، محاضرات في علم الاجتماع .
- (٢٢) د. عدنان مسلم ، دراسات في الأنثروبولوجيا الاجتماعية .
- (٢٣) د. عدنان مسلم ، علم دراسة الإنسان «الأنثروبولوجيا» .
- (٢٤) علي محمود إسلام الفار ، الأنثروبولوجيا الاجتماعية .
- (٢٥) عدد من الباحثين ، الإنسان والحضارة والمجتمع .
- (٢٦) عبدالهادي عباس ، المرأة والأسرة في حضارات الشعوب وأنظمتها ، الجزء الأول .
- (٢٧) د. عاطف وصفي ، الأنثروبولوجيا الاجتماعية .
- (٢٨) د. عاطف وصفي ، الأنثروبولوجيا الثقافية .

- (٢٩) د. عاطف وصفي ، الثقافة والشخصية .
- (٣٠) د. علم الدين كمال ، تطور الكائنات الحية .
- (٣١) فريدريك إنجلز ، أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة .
- (٣٢) المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم .
- (٣٣) د. محمد رياض ، الإنسان ، دراسة في النوع والحضارة .
- (٣٤) د. محمد صفوح الأخرس ، الأنثروبولوجيا الاجتماعية .
- (٣٥) د. محمد الجوهري ، الأنثروبولوجيا ، أسس نظرية وتطبيقات عملية .
- (٣٦) مونيك بيتر ، المرأة عبر التاريخ ، ترجمة هنريت عبودي .
- (٣٧) ول ديورانت ، قصة الحضارة ، الجزء الأول .
- (٣٨) وليام هاولز ، ما وراء التاريخ ، ترجمة د. أحمد أبو زيد .
- (٣٩) د. يوسف عز الدين عيسى ، تطور الخلقة .

obeikandi.com

فهرست

الموضوع	الصفحة
- تمهيد .	٧
- مدخل معرفي : علم الإنسان «الأثنروبولوجيا» : الموقع والمكانة المعرفية .	١١
القسم الأول- علم الإنسان «الأثنروبولوجيا» :	
الموضوع الرئيس .	١٧
المبحث الأول: أصل الإنسان في ميثولوجيا الشعوب .	١٩
المبحث الثاني: الإنسان في ضوء العلم .	٢٥
المبحث الثالث: التطورية الثقافية - الاجتماعية للإنسان .	٤١
القسم الثاني- علم الإنسان «الأثنروبولوجيا» :	
تطوره وعلاقته بالعلوم الأخرى .	٥١
المبحث الأول: في التعاريف .	٥٣
المبحث الثاني: في التكوين والانتشار .	٦٣
المبحث الثالث: الاتجاهات النظرية لتطور علم الإنسان في القرن العشرين .	٩٧
المبحث الرابع: علاقة علم الإنسان بالعلوم الأخرى .	١٣٩
القسم الثالث: ميادين علم الإنسان «الأثنروبولوجية»	١٥٣
أولاً: الأثنروبولوجيا البيولوجية .	١٥٦
ثانياً: الأثنروبولوجيا الثقافية .	١٥٨

١٦٦	ثالثاً: الأنثروبولوجيا النفسية .
١٧٢	رابعاً: الأنثروبولوجيا السياسية .
١٨٤	خامساً: الأنثروبولوجيا الحضارية .
١٨٦	سادساً: الأنثروبولوجيا التنموية .
١٨٨	سابعاً: الأنثروبولوجيا البدوية .
١٨٨	ثامناً: الأنثروبولوجيا الاجتماعية .
٢٢١	القسم الرابع: علم الإنسان "الأنثروبولوجيا" المنهج وطرائق البحث.
٢٢٣	المبحث الأول: المنهج المستخدم في الأنثروبولوجيا .
٢٢٩	المبحث الثاني: طرائق البحث .
٢٤٣	المبحث الثالث: الدراسة الميدانية في الأنثروبولوجيا وميادينها .
٢٥٥	القسم الخامس: الأمثال الشعبية والمصطلحات الأنثروبولوجية.
٢٥٧	المبحث الأول: الأمثال الشعبية .
٢٩٧	المبحث الثاني: مفاهيم أنثروبولوجية .
٣٣٣	- المصادر .
٣٣٧	- الفهرس .

المؤلف

❖ عدنان أحمد مسلم:

- دكتوراة في علم الاجتماع «عضو الجمعية العربية لعلم الاجتماع».
- أستاذ في قسم الدراسات الاجتماعية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة دمشق.
- أستاذ زائر إلى جامعات: صنعاء، تعز، عدن وحضرموت في الجمهورية اليمنية.
- أستاذ زائر إلى جامعة تشرين (اللاذقية) في سورية.
- معار إلى قسم الدراسات الاجتماعية - كلية الآداب - جامعة الملك سعود في المملكة العربية السعودية.

❖ المؤلفات المنشورة:

أ- الكتب الجامعية:

- ١- دراسات في الفكر السياسي المعاصر، جامعة دمشق، ١٩٨٥ م.
- ٢- دراسات في الأنثروبولوجيا الاجتماعية، جامعة دمشق ١٩٨٦ - ١٩٨٧ م.

٣- دراسات في علم الاجتماع الريفي، جامعة دمشق، ١٩٨٧-١٩٨٨.

٤- محاضرات في علم الاجتماع، جامعة دمشق، ١٩٨٩-١٩٩٠.

٥- علم دراسة الإنسان، جامعة دمشق، ١٩٩٠-١٩٩١.

٦- دراسات سياسية، جامعة دمشق، ١٩٩١-١٩٩٢.

٧- محاضرات في علم الاجتماع السياسي، جامعة دمشق، ١٩٩٢-١٩٩٣.

٨- البحث الاجتماعي الميداني، الجزء الأول، جامعة دمشق، ١٩٩٣-١٩٩٤.

٩- البحث الاجتماعي الميداني، الجزء الثاني، جامعة دمشق، ١٩٩٤-١٩٩٥.

ب- الكتب غير الجامعية:

١٠- المسألة الزراعية في سورية، دار العلم، دمشق، ١٩٨٥ م.

١١- التحول الاجتماعي واتجاهات التنمية الريفية في سورية، مؤسسة الوحدة للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٧ م.

١٢- مبادئ الفلسفة وعلم الاجتماع، الصف الأول الثانوي، وزارة التربية (بالمشاركة مع مجموعة من الباحثين) المؤسسة العامة للمطبوعات والكتب المدرسية، دمشق ١٩٩٢ م.

١٣- الاقتصاد العربي ، الصف الثاني الثانوي ، وزارة التربية (بالمشاركة مع مجموعة من الباحثين) ، المؤسسة العامة للمطبوعات والكتب المدرسية ، دمشق ١٩٩٤ م .

١٤- علم النفس والأخلاق ، الصف الثالث الثانوي ، وزارة التربية (بالمشاركة مع مجموعة من الباحثين) المؤسسة العامة للمطبوعات والكتب المدرسية ، دمشق ، ١٩٩٥ م .

١٥- مشكلة المخدرات في سورية (دراسة ميدانية) بالمشاركة مع د . آمال عبدالرحيم ، دار كنعان ، دمشق ، ١٩٩٥ م .

١٦- بحوث الأسبوع الثقافي الثاني لقسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية (تحرير وإشراف) بالمشاركة مع د . أحمد برقاي ، مطبعة الاتحاد ، دمشق ، ١٩٩٥ م .

١٧- علم الاجتماع «مبادئ أولية» بالمشاركة مع د . عماد الأسد ، دار كنعان ، دمشق ، ١٩٩٦ م .

١٨- الثقافة المهنية ، الصف الثاني الثانوي الصناعي والنسوي ، وزارة التربية (بالمشاركة مع مجموعة من الباحثين) ، المؤسسة العامة للمطبوعات والكتب المدرسية ، دمشق ، ١٩٩٦ م .

١٩- علم الاجتماع الصناعي ، الصف الثالث الثانوي الصناعي والنسوي ، وزارة التربية ، (بالمشاركة مع مجموعة من الباحثين) ، المؤسسة العامة للمطبوعات والكتب المدرسية ، دمشق ، ١٩٨٧ م .

٢٠- البحث الاجتماعي ، مطبعة الاتحاد ، دمشق ، ١٩٩٧ م .

٢١- محاضرات في الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) : الموقع المعرفي ،

الموضوع والمنهج ، مكتبة العبيكان ، الرياض ، ٢٠٠٠ م .

- كتب قيد الطباعة:

١- علم الاجتماع : البعد التاريخي - النظري والمنهجي .

٢- المجتمع السوري : دراسات ميدانية .

٣- الديمقراطية مفهوماً وممارسة .

٤- أعلام الفكر الاجتماعي .

obeikandi.com